في

تاريخ الشرق الأدنى القديم

الجزء الثاني

العراق - إيران - آسيا الصغرى

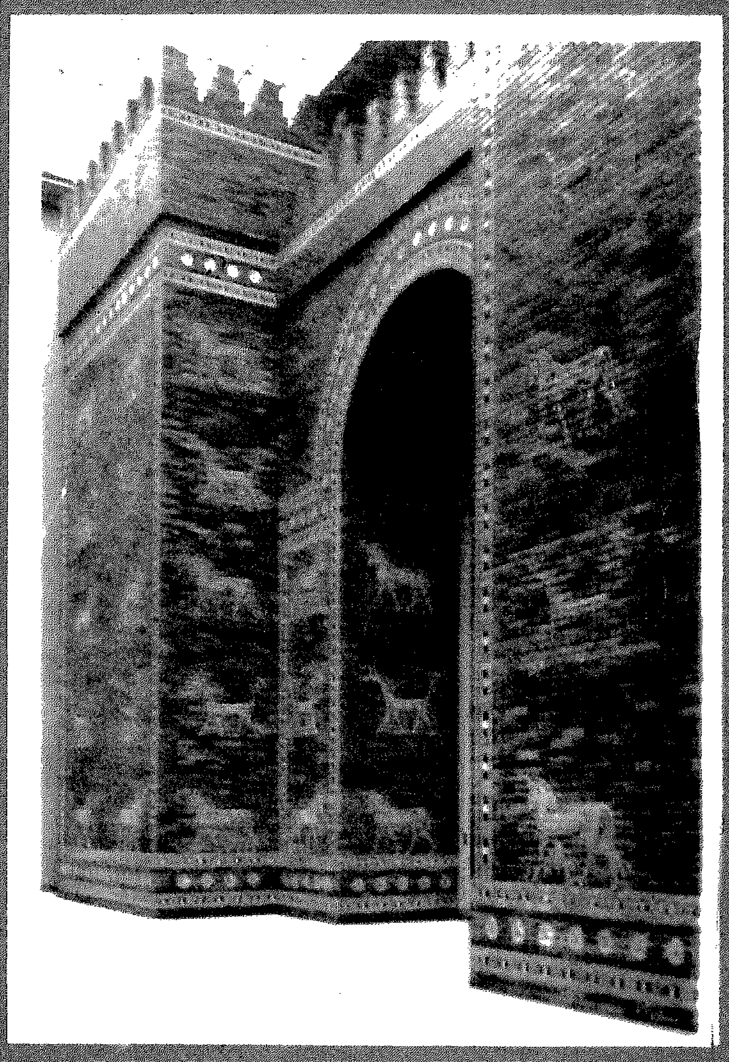
دكتور

حسن محمد محيي الدين السعدي

أستاذ تاريخ حضارة مصر والشرق الأدنى القديم المساعد

قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



١٩٩٥

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - إسكندرية

ت : ٤٨٣٠١٦٣







سلسلة مكتبة الطالب
في التاريخ الحضاري

في
تاريخ الشرق الأدنى القديم

الجزء الثاني

العراق - إيران - آسيا الصغرى

دكتور
حسن محمد محيي الدين السعدي
أستاذ تاريخ حضارة مصر والشرق الأدنى القديم المساعد
قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٥

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وعلّمكَ ما لمْ تكُنْ تَعلَمْ وكانَ فضْلُ اللّه عليكَ عظيما ﴾

صدق الله العظيم

النساء، أية ١١٣



الإهـداء

إليهـم ...

أهـدي هـذه الدراسـة

في تاريخ الشـرق الأدني القـديم

ولله الأمـر من قبل ومن بعد ،،،



محتويات الكتاب

رقم الصفحات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

«إن الحكيم يعلم، لماذا يُبقى على ما يعلمه مخفيا»

[حكمة سومرية]

يسعدنى أن أقدم لقارئ العربية هذا السفر الجديد، والذى يمثل الجزء الثانى من «سلسلة مكتبة الطالب فى التاريخ الحضارى». والكتاب يتناول بالعرض أهم المعالم التاريخية لثلاث حضارات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم وهى العراق وإيران وآسيا الصغرى. حيث مثلت بأحداثها المتشابكة جانبا من الصورة الكلية لمنطقة الشرق القديم والتى تنضوى فيها بقية دولها فى سوريا الكبرى وفلسطين وبلاد العرب ومصر وأفريقيا. حيث نبتت وترعرعت نبته الحضارة الأولى لتاريخ الإنسانية، والتى لم تكن لتثمر فى شتى مناحى الحياة لو لم يواكبها إستقراراً سياسيا وفهما عميقا لفكرة الدولة وكيانها التنظيمى.

ولهذه المنطقة التى نحن بصدد تناولها فى هذا الكتاب خصوصية أصطبغت بها وتمثلت فى قضية تعاقب الدول الحاكمة التى أستندت على فكرة الأمة تارة أو على فكرة الأصول العرقية تارة أخرى. كما أن علاقاتها المتشابكة قد أفرزت نسيجاً بالغ التعقيد فى تكوين صورة مترابطة لتاريخ المنطقة فى الفترات الزمنية المتشابهة. إذ تستعصى هذه المسألة على معظم المؤرخين لما تستلزمه من أدوات وأسس لم تستقر بعد ، نخص بالذكر منها مسألة التوافق الزمنى و مسألة التتابع الزمنى. فالأولى تستدعى أن يتم تثبيت التواريخ المتعلقة

بكل منطقة على حدة والفواصل الزمنية بين دوراتها التاريخية المختلفة من المبتدأ وحتى الإنتهاء، حتى يمكن مقابلة كل فترة زمنية فيها بمثيلتها فى المراكز الحضارية الأخرى وهى مسألة ما تزال قيد البحث ولم تحسمها الدوائر العلمية المعنية. وذات الأمر ينسحب على مسألة التتابع الزمنى، ذلك أن إفتقاد المادة الطينية والأثرية لبعض الفترات التاريخية فى هذه المراكز الحضارية القديمة، قد أوجد العديد من الفراغات التى يستلزم تناولها وتغطيتها بشكل علمى موضوعى العديد من الأدوات البحثية التى ما تزال نتائجها محل جدل كبير.

ومن ثم فقد كان من نتيجة ذلك، وقوع بعض الباحثين فى مغبة تكرار الأحداث عند دراسة كل منطقة على حدة، أوخطأ تأريخ الأحداث المتزامنة بشكل كثيراً ما يحدث فيه شيئ من الخلط أو الغموض. وهو الأمر الذى دفع الدوائر العلمية الدولية بتنظيم مؤتمرات دورية لمناقشة هذه القضايا التى لو أستقرت مشكلاتها بين الباحثين فى دراسات الشرق الأدنى القديم، فلسوف يكون لهذه النوعية من الدراسات شأن كبير.

وعلى أيه حال، فالكتاب الذى بين أيدينا ينتظم فى ثلاثة أبواب رئيسية، إختص كل منها بإحدى الوحدات الحضارية الكبرى من خلال فصول إستهدفت فى تقسيمها تسهيل تناول موضوعات الكتاب. ومن ثم فقد تناول الباب الأول «العراق» فى ثمانية فصول، تناولت تاريخ المنطقة منذ النشاطات الأولى للإنسان بها وتفاعله مع بيئته، ثم مراكز استقراره الأولى التى شكلت نواة الكيانات السياسية للمنطقة والتى ظهرت أما فى شكل الدولة – المدينة حينا أو فى شكل الدولة الموحدة أو الإمبراطورية حينا آخر.

أما الباب الثانى والخاص بإيران، فقد أقتصر على فصلين الأول تناول البيئة والتكوين الحضارى من خلال تفاعل الإنسان معها مكونا الأسس الأولى لحضارتها. والثانى تناول معالم الأحداث التاريخية التى مرت على المنطقة.

ولقد اختص الباب الثالث بمنطقة آسيا الصغرى من خلال فصلين تناول الأول منهما أيضا البيئة وتفاعل الإنسان معها، في حين قام الفصل الثانى بإلقاء الضوء على ملامح تاريخ المنطقة والذى يعد متأخراً نسبيا عن سابقيه.

ونظراً لأن فلسفة الكتاب تقوم على تبسيط المادة التاريخية المتعلقة بهذه المناطق الثلاث، قدر ما وسعنا من طاقة. فإن أسلوب عرض الموضوعات قد إتبع المنهج الوصفى فى سرد الأحداث التاريخية أكثر من المنهجين التحليلى والمقارن اللذين نتبعهما فى دراساتنا الأخرى الأكثر عمقا.

كذلك فقد حرصنا على عدم وضع هوامش مكتفين بتزويد الكتاب فى آخره بقائمة للمراجع التى إعتمدنا عليها وبعض الكتب المختارة التى تيسر على القارئ الحصول على ما يبتغيه من كتب لإستجلاء أو للإستزاده من أى موضوع يثير إهتمامه أو يستلفت نظره.

كما تم تزويد الكتاب بلوحات للخرائط والقوائم والجداول فضلا عن الصور التى من شأنها أن تيسر على القارئ تصوره للحدث التاريخى. وجاء وضعها فى متن الكتاب متواكبا من الهدف العلمى والموضوعى المرجو منها.

وبعد، فالله أسأل أن يجعل فى هذه الدراسة بعض النفع، وأن تؤتى ثمارها بإضافة لبنه وضاءه فى حفظ ذاكرة التاريخ فى وجدان أبناء هذه الأمة. فهو سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

دكتور حسن محمد محي الدين السعدي
قسم التاريخ والآثار – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الإسكندرية فى
صفر ١٤١٥هـ – يوليو ١٩٩٤م.



الباب الأول

العـراق



الفصل الأول

التفاعل بين البيئة والإنسان
وبداية التكوين الحضاري



الفصل الأول

التفاعل بين البيئة والإنسان وبداية التكوين الحضارى

أولا ـ البيئة والإنسان

تنتظم بيئة العراق الممتدة فى الطرف الأعلى من الخليج العربى فى إطار من الظواهر الطبيعية والعوامل الجغرافية التى تحكمت فى تشكيلها ، ومن ثم تفاعل الإنسان معها.

فمن ناحية التضاريس الطبيعية والتكوين الجيولوچى يمكن القول أن مختلف الأزمنة الجيولوچية قد تمثلت فى صخور العراق لكونها ـ وفقا لرأى العالم الچيولوجى إريك كرنكل – كانت جزءاً من القارة القديمة لأفريقيا الشمالية والشرقية والتى حوت معها بلاد العرب وسوريا وشبه جزيرة سيناء وإنه خلال العصور الجيولوجية المتتابعة بدأت معالم السطح تتكون بوضوح وتتنوع مابين السهل الرسوبى ودلتا النهرين وبين الجبال.

ويمكن تمييز معالم السطح بثلاثة أنواع رئيسية؛ أولها المنطقة الجبلية وتشغل حوالى خمس مساحة العراق ممتدة فى الشمال والشمال الشرقى متدرجة فى الإرتفاع من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق، وتمتاز بخصوبتها وصلاحيتها بالتالى للزراعة فضلا عن وفرة مياهها حيث تنساب منها روافد نهر دجله.

وتقع فى جنوب المنطقة الجبلية وجنوبها الغربى سلاسل جبلية أقل أرتفاعاً تتميز بتموجها ويفصلها عن بعضها البعض مجموعة من السهول والأحواض مثل سهل كركوك وأربيل ومخمور. وهى التى يعزى إليها القرى الزراعية الأولية بالعراق القديم.

أما ثانى هذه المعالم فهى الهضبة الصحراوية وتشمل ٦٠٪ من مساحة العراق وتنقسم إلى هضبتين رئيسيتين الأولى هى هضبة الجزيرة وتمتد بين نهرى دجلة والفرات وتحدها من الشمال أطراف سلسلة جبال آسيا الصغرى. وأشهر أوديتها وادى ثرثار الذى يبلغ طوله حوالى ٣٠٠ كيلومتر وعرضه ٤٥ كيلومتر، كما تقع جبال سنجار شمال غربه كإمتداد للسلسلة الجبلية السورية. ومصادر مياه هضبة الجزيرة متنوعة، فبالإضافة لنهرى دجله والفرات فإن الجزيرة تتمتع بسقوط الأمطار وكذا وفرة المياة الجوفية. مما جعلها بيئة صالحة للزراعة والرعى على حد سواء. وقد مثلت بموقعها منطقة إتصال هامة بين العراق والشام والأناضول وموانئ البحر المتوسط.

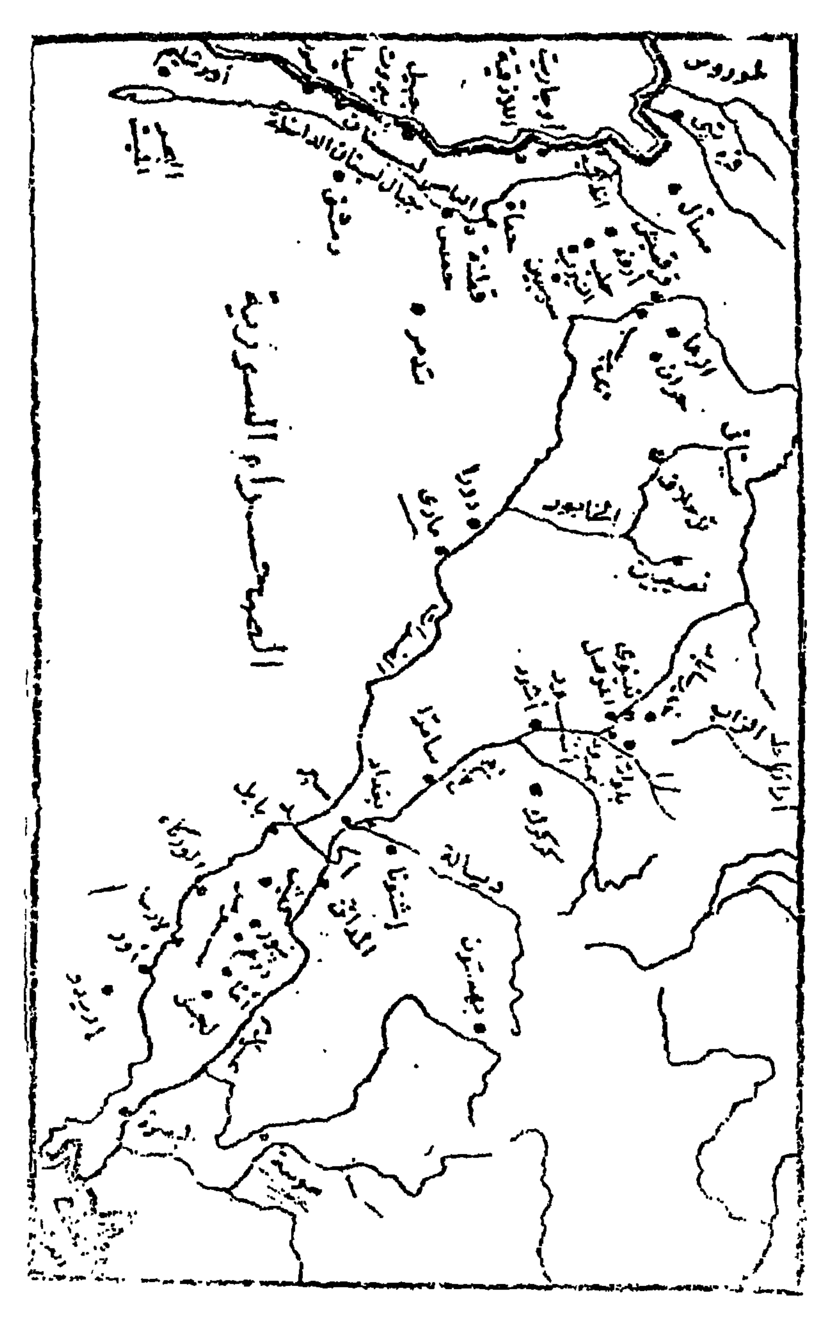
أما الهضبة الثانية فهى الهضبة الغربية والتى تحد مجرى الفرات غرباً متحدة مع بادية الشام، فى حين يمثل قلب الجزيرة العربية عمقا لها. وهذه المنطقة قد مثلت بأراضيها الصخرية وكثبانها الرملية منطقة طرد إلى سهول العراق الخصيبة لقلة أمطارها وعدم صلاحيتها لأى نشاط بشرى.

أما ثالث معلم من معالم السطح فهو السهل الرسوبى والذى يمثل هو الأخر خمس مساحة العراق ممتداً لحوالى ٦٥ كيلومتر بين مدينة سامراء على دجلة ومدينة هيت على الفرات شمالا، والبادية الجنوبية والخليج العربى جنوباً. وللحدود الإيرانية شرقاً والهضبة الصحراوية غرباً.

وبالرغم من وفرة الترسيبات التى شكلت هذا السهل سواء من مياه دجلة والفرات أو من السيول المنحدرة من وديان الهضبة الصحراوية إلا أنها لم تملأ المنخفض السهلى بشكل متساو. وهو الأمر الذى يفسر كم المنخفضات من أهوار ومستنقعات والتى لاتزال موجودة والتى تشغل مساحة ١٥ ألف كيلومتر مربع تنتظم فى ثلاث مجموعات هى الأهوار الشرقية فى منطقة دجلة (ومنها

الحويزة وشويجه) والأهوار الوسطى في منطقة الفرات (ومنها الحبانية وأبودبس) ثم الأهوار الجنوبية (وأكبرها حصور الحمّار) . ولعل هذا الكم من الأهوار والمستنقعات بالقسم الجنوبي من السهل الرسوبي على وجه الخصوص قد دفع بالباحثين إلى إعتبار أن الهبوط التدريجي لهذا الجزء من السهل هو الذى منع إمتلاءها بالترسيبات.

كذلك فقد أرتبط هذا السهل الرسوبي بالخليج العربي - فيما يرى بعض العلماء - على أساس من التفسيرات الأثرية والجيولوجية التي تدعم هذا الإرتباط. ويذهب التفسير الأول إلى إعتبار أن معظم السهل الرسوبي قد غمرته مياه الخليج بحيث امتد ساحل الخليج لأبعد من حدوده الحالية شمالاً وذلك خلال عصور ما قبل التاريخ. ويؤسس أصحاب هذا الإتجاه تفسيرهم على أساس بعض الإستنتاجات من النصوص القديمة لأسماء مدن على الساحل القديم للخليج مثل ميناء مدينة أور في عهد السومريين أو مدينة ميسان (كاراكس) من عهد الإسكندر الأكبر التي بنيت على مبعدة كليو مترين ونصف من الساحل فأصبحت الآن على بعد ١٨٠ كيلومترا منه. وهو الأمر الذى أسس عليه أصحاب هذا الرأى النتيجة التي وصلوا إليها من أن تراجع الخليج جنوب بفعل الترسيبات النهرية وغيرها كان بمعدل حوالي كيلومترين في القرن الواحد.



لوحة رقم (١)

العراق وســـوريا

أما التفسير الجيولوجي فقد إتجه إتجاهين الأول أثبت أن القسم الجنوبى للعراق لم يكن يوماً مغموراً بمياه الخليج العربى بل على العكس إذ أحياناً ماكان يحدث تراجع لليابسة لحساب مياه الخليج. وإن القضية فى مجملها لايمكن حسمها تاريخياً بتحديد حركة التقدم والتراجع لرأس الخليج.

أما الإتجاه الثانى للتفسير الجيولوجى فملخصة أن مياه الخليج قد أرتفع مستواها نتيجة لذوبان الثلوج بعد مرحلة العصر الجليدى وأن هذا الإرتفاع أدى إلى تقدم مياه الخليج بمعدل ١٠٠ متر سنوياً وأنه فى خلال حوالى ٥٠٠٠ عام كان قد وصل إلى أور فيما يغلب على الظن، ثم حدث التراجع فيما بعد حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م.

وهكذا تضاربت الآراء حول قضية ساحل الخليج وعلاقته بالسهل الرسوبى العراقى والفترة الزمنية لغمرة بمياة الخليج. وإن لم يختلف أى دارس على أهمية الخليج العربى فى ربط العراق بحرياً بأقطار الخليج والجزيرة العربية بل والهند. وهو الأمر الذى تؤكدة الشواهد الأثرية و النصية حيث وجود آثار عراقية بهذه المناطق ترجع لعصور ما قبل التاريخ لاسيما أبان حضارة العبيد Ubaid، أو ذكر مسميات إقليم دلمون (البحرين) ومكان (عمان) وميلوخا (ربما وادى السند).

والجدير بالذكر هو إرتباط الأنهار بالمعالم سالفة الذكر على المستوى الطبيعى فضلا عن أهميتها الاقتصادية بخاصة والحضارية بعامة على المستوى البشرى. وأهم هذه الأنهار قاطبة بالعراق هما نهرى دجله والفرات . وبالنسبة لنهردجله فإن منابعه تتكون من مجموعة روافد تقع فى مرتفعات تركيا الجنوبية حيث تتحد بأحد أنهارها مكونة المجرى الرئيسى الذى ينحرف جنوباً بشرق حتى يدخل العراق. ويمر خلال جريانه بعدة مدن مثل فيشخابور والموصل ونينوى وآشور وتكريت وسامراء حيث روافده الرئيسية مثل الخابور

والزاب الأكبر والأصغر والرافد العظيم. ويقترب مجراه من الفرات عند بغداد ثم ينحرف نحو الجنوب الشرقى. كما يلتقى بنهر ديالى شمال مدينة المدائن. وتجدر الإشارة إلى أن النهر قد تغير مجراه طبيعياً أو بفعل التدخل البشرى لخدمة مشروعات الرى حيث يرجع هذا الأمر الأخير لمنتصف الألف الثالث قبل الميلاد، أى منذ عصر فجر السلالات.

ولقد إتخذ النهر إسمه العربى من الاسم الأكدى ايديجلات أو ايديجلاتم (Idiglat (Idiglatum كما جاء ذكره فى النصوص السومرية باسم أدكنا (أدجنا) Idigna.

أما نهر الفرات فينبع من السلاسل الجبلية بشرق الأناضول حيث يتكون مجراه الرئيسى من فرعين أساسيين ويقطع رحلة جريانه خارج العراق عبر الحدود التركية السورية عند مدينة قرقميش القديمة (جرابلس الحالية) ملتقيا بعدها بأول روافده؛ الساجور ثم بسهول سورية والجزيرة حيث نهرى البليخ والخابور. وهذا الأخير هو أطول روافد الفرات الذى تصب فيه بدوره عدة روافد قبل دخوله الأراضى العراقية، والتى تبدأ رحله مجراه فيها بالقرب من بلدة البوكمال (فى مجاورات مدينة دارى القديمة). ويظل النهر فى مسيرته نحو الجنوب حتى يدخل السهل الرسوبى حيث كثرة المنخفضات المائية.

وجدير بالذكر أن إقتراب الفرات من دجلة جنوبى الفالوجه وإرتفاع مستوى واديه عن ذاك الخاص بدجلة قد شجع على قيام مشروعات الرى بين النهرين قديما وحديثاً. كما أن إنخفاض سرعة مجراه بعد هذه المرحلة قد أدى إلى ترسب كميات هائلة من الغرين ومن ثم تغير مجراه عد مرات وهو الإمر الذى أكدته الدلائل الجيولوجية والأثرية من خلال ذكر مواقع وأسماء أحواض المجارى القديمة فى النصوص المسمارية.

وكذلك فلقد أدى إلتقاء الفرات مع نهر دجلة وكذا نهر الكارون إلى

تكوين منطقة شط العرب بطوله ٢٠٤ كيلومترا وعرض يتراوح بين ٤٠٠ متر و١٥٠٠ مترا.

والاسم «الفرات» ويعنى الماء العذب مستقى من الاسم الأكدى بوراتى أو بوراتوم Purati (Puratum) المرادف للاسم فى النصوص المسمارية بورانن Buranun أو بورونونا Burununa.

أما عن المناخ وأثره على المياه النباتية والحيوانية فيمكن القول أن الأحوال المناخية تباينت بتباين العصور منذ العصور الجليدية الأوربية التى قابلتها عصور ممطرة بالعراق قبل مليونى عام وحتى حوالى ١٦٠٠٠ عام. ثم واكب العصور الممطرة باروبا عصور جفاف بالعراق.

وما من شك فى أن العصور الجليدية كانت فيها العراق أكثر رطوبة والأمطار كانت غزيرة صيفا وشتاء. فى حين أحتفظت قمم الجبال بطبقات سميكة من الجليد. وقد أدى كثرة المياه بالطبع إلى توسيع مجارى الأنهار وإرتفاع ضفافها، كما إتسعت مساحة المناطق الخضراء حيث إنتشر النبات الطبيعى من غابات وشجيرات وحشائش. وإنعكس ذلك على حياة الإنسان العاقل الذى عاش على صيد الحيوانات البرية من غزلان ووعول وخنازير وخيول وثيران وخراف وماعز، وكذا صيد الأسماك والطيور بالإضافة إلى جمع الثمار وجذور النباتات، وهى مظاهر مثلت مناشط الإنسان بالعراق فى عصور ماقبل التاريخ والتى سنعرض لها فى الجزء الثانى من هذا الفصل.

بيد أن مرحلة الجفاف التى تلت العصور المطيرة والتى أنحسرت بسببها ضفاف الأنهار مكونة المدرجات والأودية الجافة وزادت فيها مساحة الأراضى الصحراوية على حساب الرقعة الخضراء، كانت ذات أثر إيجابى على نشاط الإنسان بتحوله إلى مرحلة إنتاج الطعام ومعرفة الزراعة والإستقرار حول مجارى الأنهار، فضلاً عن إستئناس الحيوان. ومن ثم أصبح للسهل الرسوبى أهمية

جديدة أستدعت إستغلاله وتوطئته ليصبح صالحاً للزراعة، وهو تحد لقدرة العراقى القديم تمثلت إستجابته حيالها فى إنشاء أحد أجهزة الرى المتكاملة التى عرفتها الحضارات القديمة.

ولقد ساعد على إستمرار النشاط البشرى ذلك الإستقرار النسبى فى مناخ العراق الذى يمكن أن يندرج تحت نوع المناخ الصحراوى الحار ومناخ البحر المتوسط المعتدل، الذى تنتظم داخله ثلاثة أنواع رئيسية هى مناخ البحر المتوسط ومناخ السهوب ثم المناخ الصحراوى. حيث يسود الأول المنطقة الجبلية شمال وشمال شرق العراق بطبيعته الجافة المعتدلة صيفاً والباردة الممطرة شتاء مع تكون الثلوج على الجبال وسفوحها. أما مناخ السهوب فيسود المنطقة المتموجه وشبه الجبلية وهو إنتقالى بين النوعين الأول والثالث. فى حين يسود هذا الأخير وهو المناخ الصحراوى السهل الرسوبى والهضبة الصحراوية حيث تقل الأمطار وترتفع الحرارة صيفاً وتنخفض شتاء.

ولعل الحديث عن البيئة العراقية ومظاهرها الطبيعية يدفعنا لإلقاء الضوء على تركيبتها السكانية. فما لاشك فيه أن موقع العراق جعل منه ملتقى قارات أوربا وآسيا وأفريقية، كما أن ثرواته الطبيعية جعله محط أنظار شعوب المناطق المجاورة له والتى شكلت هجراته النسيج البشرى للمجتمع العراقى منذ القدم. ومن ثم فقد وفدت على العراق قبائل البدو العرب من شبه الجزيرة العربية وبواديها فى الشمال الغربى، كما نزحت من الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية لمناطق هند وأوربيه. ولقد أثرت تحركاتهم فى شكل موجات متتالية على حركة تاريخ العراق وتكوينه السياسى على وجه الخصوص حسبما سنرى فيما بعد.

كما لعب الإتصال التجارى دوره فى الإتصال الحضارى والإختلاط البشرى مع سكان الجبال فى مناطق العراق الشمالية وكذا الدويلات السورية غربها فضلاً عن الدولة المصرية القديمة.

ثانيا : بداية التكوين الحضارى (عصور ماقبل التاريخ)

لقد حظيت العراق خلال مسيرتها الحضارية بكل الفترات التى ساهمت فى تكوينها قبل العصور التاريخية، وذلك إعتمادا على اللقى الآثرية التى تشير إلى هذه العصور والتى مر فيها الإنسان بكل المراحل التقليدية للعصور الحجرية بتقسيماتها، القديم والأوسط والحديث ثم عصر الحجر والنحاس. وهى تصنيفات سنلحظ أنها إعتمدت فى المقام الأول على نوع المادة المستخدمة فى صناعة الآلات وطريقة الصناعة ذاتها.

أما محاولة وضع إطار زمنى لها فقد إعتمد إلى حد كبير على التاريخ للعصور الجيولوجية ومايقابلها بالطبع من عصور ماقبل التاريخ، مثلما الحال فى مقابلةن العصر الحجرى القديم (الباليولثيك) بالعصر الجيولوجى المسمى بالبلايستوستين. ذلك أن علماء الجيولوجيا يعتبرون هذه الفترة أحدث فصل فى التاريخ الطويل للأرض.

وعلى أيه حال، فقد إتجه معظم الباحثين فى تحديدهم لبداية عصور ما قبل التاريخ فى العراق إلى ماقبل نحو ستمائة ألف عام أو ماتزيد وتنتهى فى الألف الثالثة قبل الميلاد. حيث عدت هذه الأخيرة البداية التقريبية للعصور التاريخية. وهذه الفترة الزمنية الطويلة تنتظم خلالها العصور التالية :-

١- العصر الحجرى القديم (الباليولثيك Palaeolithic) ويبدأ قبل حوالى نصف مليون عام.

٢- العصر الحجرى الوسيط (الميسوليثيك أو الميكروليثيك (Mesolithic) Mi-crolithic) ويمتد من حوالى ٢٠٠٠٠ عام قبل الميلاد منتهياً حوالى ٧٠٠٠ أو ٦٠٠٠ ق.م.

٣- العصر الحجرى الحديث (النيوليثيك Neolithic) ويلى سابقه منتهيا حوالى ٥٠٠٠ ق.م.

٤-عصر الحجر والنحاس (الكالكوليثيك Chalcolithic) وينتهى ببداية العصور التاريخية حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. أو مايعرف بعصر البرونز إصطلاحاً.

ولسوف نحاول أن نلقى الضوء على كل عصر من هذه العصور على حدة من حيث طبيعة التسمية وأهم المواقع التى تمثله فى العراق القديم وطبيعة النشاط والإنتاج البشرى فيه.

١- العصر الحجرى القديم *Palaeolithic*

ترجع تسميته بالباليوليثيك إلى الإغريقية ومعناها الصخر أو الحجر القديم. ونظرا لإعتماد الإنسان فيها على جمع الطعام سواء بإستخراج جذور النباتات أو صيد الحيوانات فقد فضل البعض تسميتها بمرحلة جمع الطعام Food Gathering Stage. وهذه المرحلة تنقسم بدورها إلى ثلاثة مراحل أساسية تمايزت فيما بينها بأسلوب معالجة الحجارة وتشظيتها وطبيعة الآلات المستخدمة من قبل إنسان تلك الفترة فى كل مناحى نشاطه البدائى، سواء كانت فأس يدوية أو رأس رمح أو سكين إستخدم فى صناعتها إلى جانب الحجر عظام الحيوان وقرونه.

أما عن مراحل العصر الحجرى القديم فتنقسم إلى ثلاثة أقسام وعلى النحو التالى :

أ- العصر الحجرى القديم الأسفل *(Lower Palaeolithic)*

ويتوافق إنتاج هذا العصر مع الإنتاج الحضارى المبكر للحضارة الشيلية Chellean Culture أو الأشولية Achellean Culture أو الأبفيلية. وجميعها مسميات إصطلاحية ترتبط بمواقع ترجع لذات الفترة الحضارية بفرنسا، وقد أدى تشابه النتاج البشرى فيها مع غيرها من الحضارات القديمة فى الشرق فى

عصور ماقبل التاريخ إلى إطلاق العلماء عليها تلك المسميات الإصطلاحية. وتتميز بأنها ممعنه فى القدم لحوالى مليونين أو مليون عام، بيد أن تحديدها من قبل العلماء قد حصر إستمراريتها مابين ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف عام.

وقد تطورت أدواتها المستخدمة بعامه بدءاً من الفأس اليدوية Hand Axe المصنوعة من الصوان Flint. وقد أصبحت لإنسان هذه الحضارة القدرة على دقة الصنعة وتهذيب الحجر بشكل أكثر حنكة وذلك بترقيق حواف أدواته الحجرية مع إستخدام للأجزاء المشطوفة منها بشكل أكثر فعالية حتى تميزت أدواته وأسلحته بمسمى ذات الحدين Bifaces، كما طور حياته باستخدام النار وصنع المواقد. وهى جميعها وسائل نجح بها إلى حد كبير فى إستغلال الحياة النباتية الطبيعية المتاحة له لأقصى درجة ممكنة وكذا صيد العديد من أنواع الحيوان التى عثر على بقايا لها مثل عظام الفيل ووحيد القرن والثور والأغنام والماعز البرية، وإن لم ينجح فى إستئناسها.

ويتفق معظم الباحثين على أن موقع بردة بلكه - لحوالى ميل ونصف شمال جمجمال - بين كركوك والسليمانيه هو أشهر المواقع التى إكتشفت فيها آثار ترجع لهذا العصر، وإن غلب على معظمها الإنتماء إلى المرحلة التالية لها.

وهناك أيضا موقع أسكى كلك على الضفة اليمنى للزاب الأكبر شمال الموقع السابق، ومنطقة القصير لحوالى كيلومترين جنوب غرب قلعة القصير. وقد عثر فيها على بعض اللقى الأثرية مثل الفأس الأشولى وبعض الأدوات الحجرية المشظاة وبأحجام مختلفة.

ب- العصر الحجرى القديم الأوسط *Middle Palaeolithic*

ويطلق عليه إصطلاحا العصر الموستيرى Mousterian نسبة أيضا إلى كهف Le Moustier بفرنسا والذى تميز نتاجه البشرى بدقة الأسلحة القاطعة

وضآلة حجمها وخفة وزنها مثل المخارز والأزاميل والمحكات. أما إنسان هذه الحضارة فهو المعروف بين علماء السلالات باسم إنسان نياندرتال Neander-thal. ومن المواقع المرتبطة بهذه الحضارة فى العراق كهف يقع على بعد ثمانية عشر كيلومترا جنوب غرب السليمانيه وأسمه هزارمرد. بيد أن أهم مواقعه هو كهف شانيدر الواقع فى القسم الجنوبى من جبال برادوست مطلا على الزاب الأكبر غير بعيد عن مدينة راوندوز الصغيرة

ولكهف شانيدر أربعة مستويات إستيطانية أقدمها الطبقة الرابعة والتى تنتمى للحضارة الموستيرية ببقاياها العظمية والحجرية وتشير إلى طبيعة الحياة فى تلك الفترة والتى ترجع لحوالى ٦٠٠٠٠ سنة مضت.

جـ- العصر الحجرى القديم الأعلى *Upper Palaeolithic*

أهم مايميزه بعامه ما يعرف بالإنسان العاقل أو الحديث Homo Sapien ويتميز إنتاجه ليس فقط بالدقة المتناهية للأدوات الحجرية حيث تمكن الإنسان من أدوات صناعته وتقنينها، بل أيضا باستخدامه مواد أخرى غير الحجر، وخاصة العظم. ولعل هذا التحكم هو الذى حدا بالباحثين إلى إطلاق مسمى الأدوات القزمية Microlithic على إنتاجه من القواطع ورؤوس الحراب التى كان يقوم بتثبيتها فى مقابض عظمية أو خشبية.

وأشهر المواقع المميزة لهذا العصر بالعراق هو كهف زرزى شمال غرب مدينة السليمانية، فضلاً عن الطبقة الثالثة وجزء من الثانية من كهف شانيدر. كذلك كهف بالى كورا الواقع لحوالى ٢٠ كيلومترا شمال شرق قلعة جرمو. حيث عثر بتلك المواقع على أدوات وأسلحة لقتل الجياد البرية والغزلان والماعز والخنازير التى عاشت آنذاك فى منطقة شبه باردة وجافة منذ ٣٤٠٠٠ سنة خلت.



لوحة رقم (٢)

آلات حجرية عراقية تعود للعصر الحجرى القديم والعصر الحجرى المتوسط

٢- العصر الحجرى الوسيط *Mesolithic*

تميز بشيوع الأدوات القزمية (الميكروليثيك) على إنتاجه من مناجل ومدقات والهاونات ورحى الطحن والتى تشير إلى بداية استخدام الحبوب وبالتالى قيام زراعة تجريبية فى ذلك العصر الذى يرجعه العلماء مابين عام

١٢٨٠٠ ق.م. و ١٠٠٠٠ ق.م. من حيث المبتدأ، فى حين يصعب تحديد تاريخ إنتهاءه بشكل دقيق.

وتعد أهم مواقعة بالعراق الطبقة الثانية من كهف شانيدر فضلا عن الموقعين السابقين لكهف زرزى وبالى كورا مما يدل بوضوح على إستمرار الحياة البشرية فى هذه المواقع بما يسهل رصد تطورها. فضلا عن منطقة كريم شهر شرق بلدة جمجمال بحوالى تسعة كيلومترات وكذا منطقة ملفعات على ضفة نهر الخازر شمال الطريق الممتد بين أربيل والموصل. بيد أن الفرق بين الموقعين إحتمال كون الأول مخيما للصيادين كانوا يطرقوه بشكل موسمى فى حين كان الآخر مستوطنه لممارسة بعض الأنشطة ذات الطبيعة المستقرة لاسيما الزراعة غير المنظمة. ودليل ذلك وجود بيوت محفورة فى الأرض ذات جدران مشبكة بالحجارة ومبلطة بالحصى والحجارة أيضا.

ولعل هذا التوجه نحو الإستقرار وبناء البيوت كان أكثر وضوحاً فى موقع قرية زاوى جمى على نهر الزاب الأكبر لأربعة كيلومترات غرب كهف شانيدر، إذ كشفت التنقيبات الآثرية عن بيوت ذات جدران طينية وأساس حجرى كأقدم نموذج لبيوت إنسان العصر الحجرى المتوسط. وقد عثر فى الموقع على أدوات حجرية وعظمية لمناجل ورحى ومدقات فضلا عن بقايا سلاسل وحصر وهو مايشير لمعرفة الزراعة غير المنظمة – التى أشرنا إليها سلفاً – رغم عدم العثور على حبوب.

ويرجح أن إنسان العصر الحجرى الوسيط قد مارس التجارة وطرق بعض دروبها التى يسر فيها له الحصول على حجر الأوبسيديان (حجر بركانى زجاجى أسود) واستخدامه فى بعض أدواته.

٣- العصر الحجرى الحديث *Neolithic*

يعرف بمرحلة إنتاج الطعام Food Producing Stage حيث تحول نشاط الإنسان فيه بشكل أساسى إلى الزراعة التى أقترنت لدى كل الحضارات بالاستقرار، والذى أستند بدوره على أسس رئيسية هى الحياة الإجتماعية وقوامها الأسرةوالنشاط الاقتصادى وقوامه الزراعة والفكر الدينى وقوامه نظرة الإنسان للألهة والظواهر الكونية وأخيراً التكوين السياسى وقوامه الدولة والحاكم.

وفى المجمل فإن أهم مايميز هذا العصر من مظاهر هى : الزراعة، إستئناس الحيوان، تطور صناعة الفخار، الآلات الحجرية المصقولة بدلاً من المشظاة. وكذا فإنه على الرغم من تعدد مواقعة وكثرة آثاره، فقد ميز الأثريون على وجه الخصوص بين ثلاثة مواقع حضارية أساسية تمثل هذا العصر وهى مواقع جرمو وحسونه وحلف. ولسوف نتناول السمات الحضارية لكل منها على حدة وعلى النحو التالى :

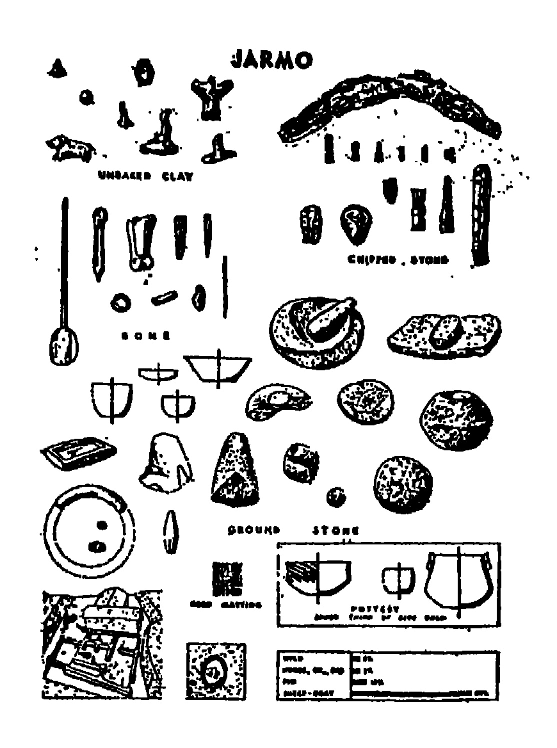
أ- جرمو :

اسم لإحدى الروابى الواقعة قرب جمجمال بحوالى إحد عشر كيلومترات شرقاً على مسافة ٣٥ كيلومتراً شرقى كركوك. ويتفق معظم الباحثين مع ماذهب إليه مكتشفها بريدوود Braidwood فى كونها أقدم قرى هذا العصر. وقد كشفت طبقاتها الستة عشرة عن ملامحها المميزة لها.

فالطبقات الدنيا حملت حبوب القمح والشعير وعظام الماعز والأغنام المدجنه فى حين ظهرت الفخاريات فى أحدث خمس طبقات بالموقع، بما يؤكد ماذهب إليه الدارسون للعصر الحجرى الحديث بتقسيمه إلى مرحلة ماقبل الفخار Pre-Pottery Neolithic ومرحلة الفخار Pottery Neolithic. وإن

كان يغلب على الظن أن فخار موقع جرمو بألوانه وحزوزه إنما كان مستورداً من الشرق (إيران تحديداً) لعدم وجود ما يماثل نمطه فى المنطقة ومجاوراتها بالعراق.

أما البيوت التى آوت حوالى ١٥٠ فرداً من سكان الموقع فتميزت بإستطالة شكلها وإرتفاعها على أسس حجرية فى حين كانت جدرانها مبنية بكتل طينية والأسقف من البوص المغطى بطبقة طينية سميكة. كما تميز منزل جرمو بتعدد حجراته وشيوع المادة الطينية فى بنائه وبناء أفرانه أيضا وكذا الأوانى الفخارية المتعددة.

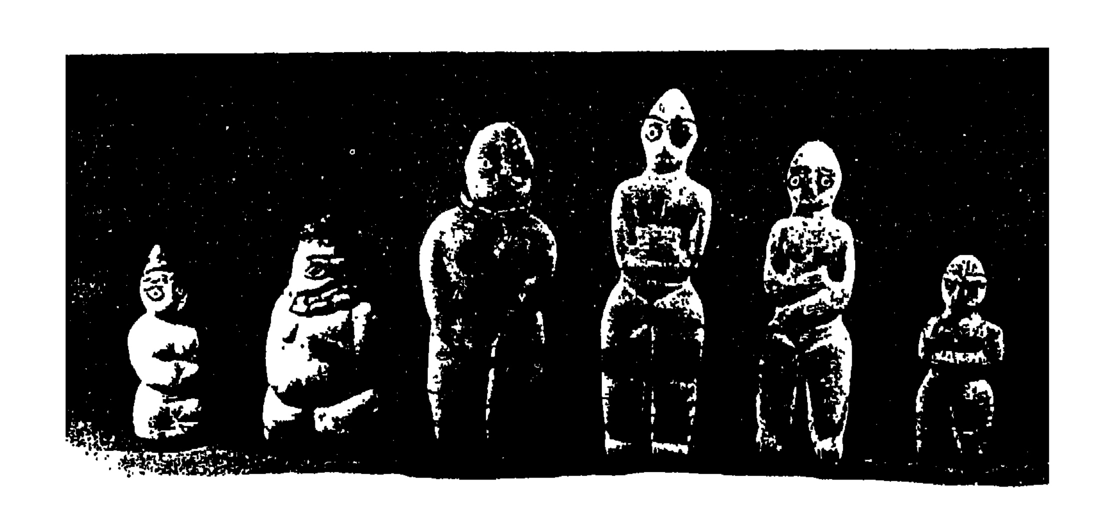


لوحة رقم (٣)

آلات وأدوات حجرية وعظمية وفخارية من قرية جرمـو

كما شاع استخدام حجر الأوبسيديان فى صنع أسلحته القزمية فضلا عن تطور صناعة الحجر بعامة للأدوات الزراعية من مناجل وفئوس ومجارش.

وعلى الرغم من كثرة التماثيل الطينية المكتشفة لحيوانات ورجال ونساء إلا أن الشئ الملفت فى التماثيل الآدمية هى تغليظ أعضاء الذكورة والإناث، بشكل دفع البعض إلى الظن بوجود نوع من تقديس فكرة الخصوبة ورموزها كنوع من الفكر الدينى المرتبط بالزراعة وخصوبة الأرض بعد مرحلة تقديس الظواهر الكونية.



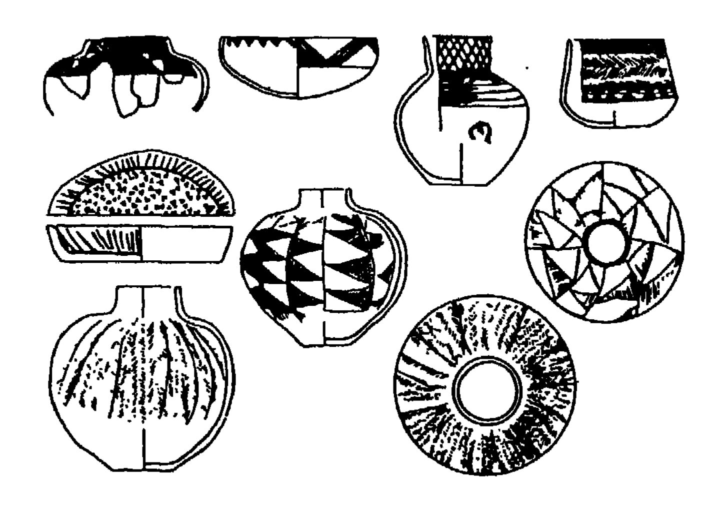
لوحة رقم (٤)

مجموعة من تماثيل الرخام الآلهة الأم، من موقع تل الصوان فى سامراء، يرجع تاريخها إلى أوائل الألف السادسة ق.م.

ب- حسونة :

نسبة إلى تل حسونة الواقع على بعد ٣٣ كيلومترا جنوب الموصل. وآثاره التى ترجع إلى حوالى ٤٨٠٠ سنة قبل الميلاد والتى تضمنتها ستة عشر طبقة آثرية، تؤكد على طبيعة القرية الزراعية. إذ زرع الفلاحون بها القمح والشعير معتمدين على الأمطار وخصوبة الأرض. كما إستخدموا الأدوات الزراعية المصنوعة من الحجر الصوان أو الأوبسيديان مثل المناجل والمحارث والرحى. كما كانت لديهم مخازن لتخزين فائض الإنتاج تحت الأرض وكانت تغطى بالقار للحفاظ عليها، كما دجنوا الماعز والأغنام.

ولقد شيدوا منازلهم من قوالب اللبن التى توصلوا لصناعتها فى حين كان يتم دفن موتاهم أسفل أرضياتها، كما تفيد أدواتهم من الأوبسيديان إلى وجود نوع من الإتصال الخارجى مع تركيا وأرمينيا، وكذا منطقة الخليج العربى لإستيراد الأصداف البحرية اللازمة لصناعة الحلى. وفخار تل حسونه يجمع بين نمط سابقة بجرمو حيث الألوان الزاهية والحزوز، وإن تميزعليه بوجود الزخارف الهندسية والرسوم الخاصة بالطيور والأسماك وغيرها من الكائنات الحية. ويؤكد إنتشار أوانيهم الفخارية فى مواقع عدة داخل العراق وخارجها على حجم النشاط الاقتصادى المتبادل بين صناع هذه الحضارة وجيرانهم.



لوحة رقم (٥)
نماذج من فخار حسونه

والجدير بالذكر أن مرحلة حسونه قد إقترن بها لدى الآثريين منطقة أخرى بمنطقة سامراء تعرف باسم تل الصوان على الضفة الشرقية لنهر دجلة ولحوالى ١٢ كيلومترا جنوب بلدة سامراء الحالية.

جـ- حلف :

يقع التل المسمى بهذا الاسم على نهر الخابور بالقرب من قرية الغين السورية عند الحدود التركية. وهى تمثل مرحلة النقلة نحو استخدام المعدن وتطويعه إلى جانب الحجر الذى أصاب الإنسان فى تقنيته مبلغاً عظيما. ومن ثم فقد تميزت هذه المرحلة بمسمى العصر الحجرى المعدنى؟ كمصطلح

يميز هذا الوضع الاقتصادى الجديد التى طرأ على النشاط البشرى وأدواته أكثر من كونه عصراً منفرداً بذاته.

وتمتد هذه المرحلة من حوالى ٤٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ ق.م. أى حتى قيام السلالات الحاكمة وبداية التاريخ السياسى. وتنفرد بنمط فريد من تصميم المنازل وهى المبانى ذات الشكل الدائرى والمداخل المستطيلة، حيث شيدت على أسس حجرية وجدران طينية واسقفها كانت ذات شكل مقبى. ولعل هذا الشكل المتميز للأبنية قد دفع بعض الآثريين لاعتبارها معابد وليس دور سكنى فى حين إتجه البعض الآخر لاعتبارها أماكن لإجتماع الرجال بالقرية مثل المضيفات الموجودة حالياً بالقرى.

وقد جمع فخار هذه الفترة كل الأشكال الجمالية والفنية السابقة وإن زاد عليها تعدد ألوانه الزاهية فى المنتج الواحد بدلا من لون أو أثنين على الأكثر كما كان من قبل. كما عرفت من هذا العصر الأختام الحجرية على شكل قرص كمرحلة سابقة للأختام الإسطوانية التى أشتهر بها العراق القديم. فى حين كان الإنتاج النحاسى غاية فى التواضع ولم يتجاوز صناعة الدبابيس والأزاميل.



لوحة رقم (٦)

نماذج من فخار تل حلف

وتجدر الإشارة إلى أن النمط الحضارى لحلف قد أنتشر على نطاق واسع بشمال العراق بلغت فيه المواقع التى عثر فيها على آثار تنتمى إليه حوالى ٢٠٠ موقعاً.

٤- عصر النحاس والحجر *Chalcolithic*

على الرغم من أرتباط حضارة حلف عند كثير من الباحثين بهذا العصر إلا أن تصنيفها السابق إنما يرجع إلى عاملين؛ أولهما أن استخدام المعدن لم يكن بالدرجة التى تجعل منه ظاهرة متحكمة فى النشاط البشرى. وثانيهما أنه منذ إنتقال ثقل الإستيطان من الشمال إلى الجنوب إنتقل الثقل الحضارى ثم السياسى بدوره جنوباً ولم يعد الشمال من عصر حضارة حلف سوى مجرد تابع يدور فى فلك الحضارات الجنوبية ثم كياناتها السياسية حتى حلول الأموريين بأرض آشور فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد.

ويتميز هذا العصر بتعدد حضاراته وتطورها فى القسم الجنوبى من أرض العراق حيث كانت أولاها حضارة العبيد بأقسامها الثلاثة تليها عصر حضارة الوركاء ثم جمدة نصر. بيد أن تداخل هذه الحضارات الثلاث الرئيسية قد دفع البعض إلى إدماج جمدة نصر بحضارة الوركاء فى حين إعتبر البعض أن حضارتى أريدو وحجى محمد (الحاج محمد) سابقتان على حضارة العبيد ولاينتظمان فى إطارها.

ولسوف نحاول إستعراض هذه الحضارات الثلاث الرئيسية كأطر عامه وأساسية لما تنتظم داخلها من حضارات فرعية، تيسيراً للدراسة ولجعلها أكثر تحديداً ... وذلك على النحو التالى :

أ – عصر العبيد :

ينسب اسمه إلى تل العبيد الواقع على بعد ثمانية كيلومترات غرب أور. وينقسم إلى مراحل العبيد الأولى والتى تمثلها حضارة أريدو (أقصى جنوب السهل العراقى؛ ١٩ كيلومترا جنوب غرب أور) والعبيد الثانية والتى تمثلها حضارة الحاج محمد (حوالى ١٨ كيلومترا جنوب غرب الوركاء) والعبيد الثالثة والتى يمثلها موقع التل ذاته الذى أعطى اسمه لهذه الحضارة أو بالأحرى هذا العصر.

والسمات العامة لهذا العصر تتمثل فى كونه أول مرحلة للإستيطان البشرى فى السهل الرسوبى من جنوب العراق نتيجة لتجمع النشاط السامى من سوريا شمالاً والجزيرة العربية شرقاً والخليج العربى جنوبا. وكان تكاثر عددهم وإنتشار ممارسة الزراعة التى تعتمد على الرى أهم سبب لذلك الإستيطان. ولعل إتساع نطاق النشاط الزراعى والمحاولات الأولى لمشروعات الرى على يد العبيديون الجنوبيون كانت فى مقدمة العوامل التى حفزتهم إلى تنظيم المجتمع وظهور المعالم الأولى لنظام الحكم. ومن ثم فقد إتسعت القرى الزراعية وزاد عدد سكانها الذين طوروا فى الآلات الزراعية التى صنعوها من النحاس لاسيما الفئوس بالإضافة للأدوات التقليدية المصنوعة من الحجارة والفخار مثل رؤوس المحاريث والمناجل وأقراص المغازل والمسامير.

وجدير بالذكر، أن ظاهرة عدم توافر معدن النحاس بأرض الرافدين رغم تميز هذا العصر باستخدامه قد دفع الباحثين إلى القول بأن استخدامه كان على يد الوافدين على العراق من مناطق خارجية يتوافر فيها معدن النحاس. مثل مناطق عدن أو إيران أو الأناضول.

ويبدو أن تأثير العناصر الجديدة لم يقتصر على استخدام النحاس بل أستتبعه تمايز فى كافة المناشط الأخرى ومظاهرها. فبالنسبة للفخار، فرغم

إجماع الباحثين على تدني مستواه الجمالي والتقني مقارنة بحضارات الشمال إلا أنه تميز بصبغته المصنوعة من خليط معدني بني غامق أو أسود يميل إلى الزرقة. في حين تميزت رسومه بإنعدام الرشاقة، والتكرار الممل للأشكال الهندسية. بيد أن أصحاب الرأي الذي يذهب بالأخذ بدور هذه العناصر الجديدة الحضاري يعزي إليهم ظهور النماذج الفخارية الجديدة ذات المقابض والصنابير بما يعني معرفة دولاب الفخراني أو عجلة الفخار الدوارة. كما يعزون بحذر بعض النماذج من المجموعات الفخارية الراقية لذات التأثير والتي تميزت بأشكالها ورسوماتها الدقيقة والمصورة على الجدار الداخلي للإناء.

ولقد واكب إزدياد عدد السكان تزايدا في حركة بناء البيوت المبنية من اللبن والتي تميز الميازيب سطوحها. كما زادت المقابر أيضا التي تجمعت جباناتها خارج نطاق المستوطنات. كما تطورت المعابد من حيث السعة وتعدد المرافق ومتانه البناء وتطور الطرز المعمارية، من ذلك على سبيل المثال معبد أريدو والذي شيد على مسطح يؤدي إليه درج في محاولة لرفعة عن الأرض الرطبة المحيطة به من الناحية الفعلية أو رغبة من أصحابه بالتسامي بمعبدهم نحو العلى من الناحية الرمزية، أو تأثراً ببيئاتهم الأولى بحكم كونهم من سكان المرتفعات التي أستعاضوا عنها بتلك الأبنية التعبدية لآلهتهم المسيطرين على المناطق الجبلية.

كما أستمر إنتاج الأختام المنبسطة التي ترجع للفترة السابقة وأن إتخذت شكلا بيضاويا بالإضافة إلى شكلها المستدير السابق. أما التماثيل الطينية والمجسدة للأمومة والخصوبة فضلا عن أشكالها الحيوانية فقد كانت أكثر دقة في صنعتها ومراعاتها للنسب الفنية في نحت مثل هذه الأشكال.

وجدير بالذكر أن حضارة عصر العبيد التي ترجع مراحلها لحوالي عام ٦٠٧٠ ق.م. قد إنتشرت مراكزها داخل العراق مثل تل العقير جنوب بغداد

ولجش القديمة شمال شرق مدينة الشطرة، على سبيل المثال لا الحصر. كما إنتشرت خارج العراق بواسطة الطرق النهرية والبحرية فى سورية وإيران وآسيا الصغرى وساحل الخليج العربى والجزيرة العربية.

ب- عصر الوركاء :

تعود بداياته الأولى إلى نحو ٥٨٠٠ سنة مضت . وهو ينسب إلى بلدة الوركاء (أوروك) الواقعة على بعد ٣٠ كيلومترا شرقى السماوة و١٢ كيلومترا شمال شرق قرية الخضر. وكانت تعد إحدى المدن المقدسة حيث عبد بها سادة السماء الإآله آنو وزوجته أنانا (عشتار). وقد وردت ذكرها فى التوراه باسم (إرك أو إرخ)، ويذهب الطبرى إلى كونها مسقط رأس الخليل إبراهيم عليه السلام.

والواقع فإن إمتداد اللقى الآثرية بالوركاء خلال ١٢ طبقة قد جعل الباحثين يقسمون تطورها الحضارى إلى قديم وتمثله الطبقات من (١٢-٧) ثم الوسيط وتمثله الطبقتين (٧ و٦) ثم أخيراً الطبقتين (٥ و٤) وتمثل مايطلق عليه إصطلاحاً اسم Proto-Literate Period، وتعنى ماقبل العصر الكتابى أو الشبيه بالكتابى أو بالأحرى بواكير العصر التاريخى، إذ أنه من المعروف كيف كانت الكتابة تمثل حدا فاصلاً بين العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ فى دراسة الحضارات القديمة.

والسمات المميزة لهذه الحضارة هى الإنتقال من طور القرية إلى المدينة لاسيما فى مراحلها المتأخرة حيث تميزت المستوطنات الحديثة بإتساعها مقارنة بالقرى السابقة، فضلا عن تطور معابدها وأبنيتها من بيوت وقصور للحكام.

وقد تميز فخار هذا العصر بأوانية المطلية ذات اللون الواحد الأحمر أو الرمادى المستمد من طبيعة مادته أصلا. كما أتسمت أشكال الأوانى بحوافها

المائلة والصنابير الطويلة والمعوجه فضلا عن القدور ذات العرى الأربع. أما المصنوعات المعدنية فقد تفوق فيها القسم الشمالى من هذه الحضارة الذى تفنن أصحابه فى تطويع معادن أخرى إلى جانب النحاس مثل الذهب والأحجار الكريمة ونصف الكريمة لاسيما فى صناعة الحلى.



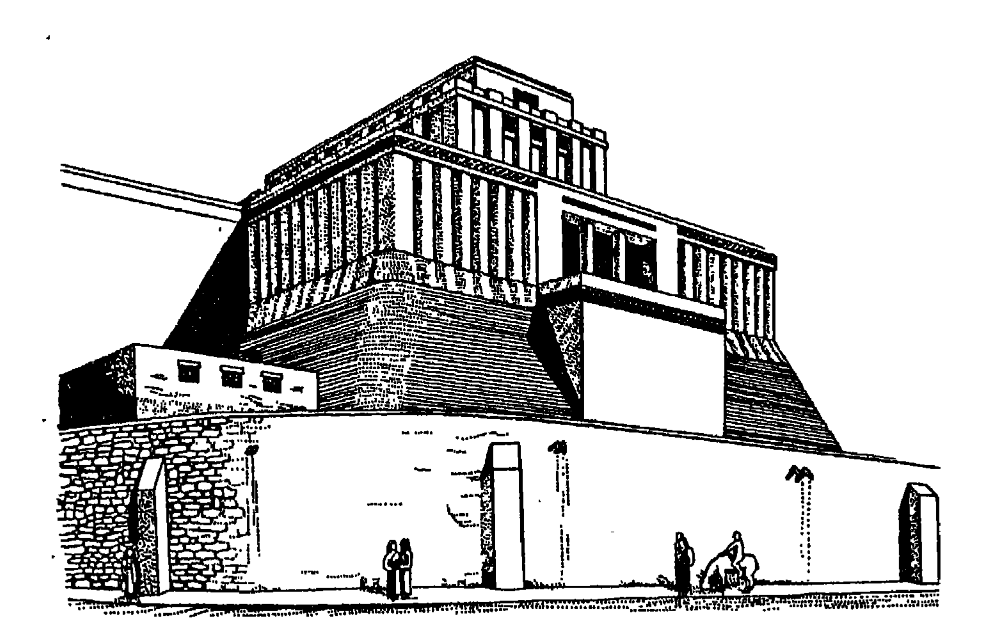
لوحة رقم (٧)

ختم أسطوانى من عصر الوركاء

ولقد استخدمت الأختام بنوعيها التقليدى المخروطى الشكل والإسطوانى المستحدث لختم سدادات الأوانى ولوحات الصلصال قبل جفافها. ومما لاشك فيه أن الشكل الأسطوانى قد ساد فيما بعد لسهولة إستخدامه فى تكرار النقش المراد طبعه حتى أصبح وسيلة ميسرة لنقش مناظر دينية ودنيوية ورموز تطور عن شكلها الصورى علامات كتابية ذات أشكال مثلثة أو مسمارية للتعبير عن المعانى المجردة. وهو الأمر الذى يفسر إطلاق مسمى الكتابة المسمارية عليها، ويميز بها المرحلة التالية من عصر الوركاء وبداية جمدة نصر.

وجدير بالذكر أن مرحلة ماقبيل الكتابة قد واكبها تطورا فى مجال العمارة الدينية عرف باسم المعابد المدرجة أو الزقورات. وأشهر أطلالها بالوركاء معبد عرف باسم المعبد الأبيض، وقد خصص لعبادة الإله آنو. ولقد أقيم هذا المعبد فوق ربوة مرتفعة عن مستوى السهل تم تسويرها بسور له مشكاوات لبعطى نموذجاً للأصل الجبلى القديم. ويؤدى إلى سطح المرتفع سلم جانبى

مرتبط بطريق صاعد. وقد إنتظم المعبد من الداخل فى مستويات متدرجة كسيت بالملاط الأبيض، كما تتوسطه المقصورة الرئيسية ذات المذبح ومائدة القربان. وكان يتم الوصول للمذبح عن طريق درج كما جاور المائدة موقداً منخفضا نصف دائرى الشكل. كما زخر المعبد بالحجرات الجانبية وبعض المصليات الملحقة به، كما قامت بعض مداخله على أعمدة. ولقد ظل هذا الطراز فى بناء المعبد مع بعض التطوير معروفا فى عمارة المعابد، كما إتسم معبدها بمناظر وصور لحيوانات على جانبى المقصورة الرئيسية كانت بمثابة الحماية الرمزية لها، مثلما الحال فى أطلال معبد العقير.



لوحة رقم (٨)

نموذج لمعبد مرتفع من أريدو

والواقع فإن نموذج معبد الوركاء لم يقتصر على جنوب العراق فحسب بل إمتد شمالها فضلاً عن سوريا، حسبما كشفت عنه حفائر تل قناص وجبل عروده على الضفة الغربية (الشامية) لنهر الفرات. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى إقتران حضارة الوركاء بملحمة جلجامش الشهيرة، والتى تشير إلى ثراء الحياة الدينية منذ بواكير حضارة الرافدين. وإن كان مايعنينا منها فى معرض تناولنا التاريخى لها هو ماذكرته قوائم الملوك السومرية من أن جلجامش هذا كان ترتيبه الثامن والعشرين بين ملوك الوركاء بعد مرحلة الطوفان، والملك الخامس من سلالة الوركاء الأولى الذى حكم أباه لست وعشرين عاما وإبنه لثلاثين أخرى.

جـ- عصر جمدة نصر :

تنتسب إلى تل النصر الواقع لحوالى ٢٤ كيلومترا شمال شرق كيش و ٥٥ كيلومترا شمال شرقى الحلة الحالية، وتمثل مرحلة النقلة بين آخر عصور ماقبل التاريخ الممتدة حتى سنة ٣٠٠٠ ق.م. وبواكير العصور التاريخية. أما إنتاجة الحضارى فى مجملة فلايختلف كثيرا عن سابقة وهو الأمر الذى حدا ببعض الباحثين إلى إدماج المرحلتين فى مرحلة واحدة. فقد شيدت الزقورات بقوالب الطوب اللبن، وإستخدمت الأختام الإسطوانية على نطاق واسع وإن باتت أكثر تقليدية ونمطية. كما تشابه الفخار مع مثيلة بالوركاء واستخدم فى تصنيعه عجلة الفخرانى، حتى أن بعض القطع المتميزه من فخار جمدة نصر لاتعدو كونها تقليعات محلية ليس لها سمة الإنتشار.

أما فن النحت فقد أزداد إتقاناً بأسلوبية البارز والمجسم فضلا عن استخدام المعادن فيه ومن أشهر هذه القطع «الرأس المرمرى» للمرأة «والأناء النذرى» المصنوع أيضا من المرمر والمحفوظ بمتحف بغداد، وتغلب على رسومات

صفوفه الثلاثة الأشكال البشرية والحيوانية والنباتية فى تصوير غاية فى الروعة والإتقان. وكذلك «مسلة صيد الأسود» والتى ثار الجدل حول صناعتها من حجر الجرانيت الذى تفتقر إليه بيئه جنوب العراق بما يحمل على الظن إستجلابه من الخارج فى إشارة مؤكدة لإستمرار العلاقات مع المناطق الخارجية. كذلك تعكس مناظر صراع المقاتل مع الأسود مثالا الطبيعة البيئة الحيوانية بالعراق فضلاً عن الرمزية المرتبطة بقيمة البطل التاريخية فى القدرة على حماية أتباعه، هو مايعزز فكرة الحاكم الفرد ودوره فى حماية وتأمين شعبه.

بيد أن مما لاشك فيه هو تميز هذه الحضارة بحدوث طفرات ملموسة فى وسيله التعبيز بالكتابة. ذلك أنها لم تتوقف عن مرحلة التعبير بالصور Picto-graphic إذ أخذت فى التطور والتجرد حتى وصلت لوسيلة إستخدام الكلمات المرسومة بالعلامات على هيئة أصوات مقطعية. وقد كانت تلك العلامات ذات عدد كبير تم إختصاره ثم تلاه أسلوب إستخدام العلامات الدالة على الكلمات، ثم أخيرا الإنتقال من المرحلة الرمزية إلى المرحلة الصوتية.

وعلى أية حال، فبإنتهاء مراحل هذا العصر ومظاهرة الحضارية تدخل العراق مرحلة حضارية وتاريخية جديدة صاغت ملامحها نشأة السلالات الحاكمة فيما يعرف إصطلاحا بعصر فجر السلالات أو العصر السومرى.

خاتمـــــة

يتضح من إستعراضنا السابق لعصور التكوين الحضارى فيما قبل التاريخ بالعراق القديم أنه حتى نهاية العصر الحجرى الحديث وبداية مايعرف بعصر الحجر والنحاس كانت اليد العليا للمراكز الحضارية بشمال العراق، فى حين إختص قسمة الجنوبى بالفترة التالية والتى شهدت الإنتقال إلى المدينة، وتطور أنماط وأساليب الإنتاج وتنوع مصادرها. فضلا عن نمو الجانب العقيدى وتطور

مظاهرة التعبدية لاسيما فى نمط عمارة المعابد. ولم يكن التطور على المستويين الاقتصادى والدينى فحسب بل تجاوزته للتعبير الكتابى الذى حفظ ليس فقط سجلات ثروة الأفراد ودخل المعابد بل قدم لنا أسماء الالهة والحكام وألقاب الوظائف التى ظهرت أنذاك.

كما يتضح من الدراسة صعوبة وجود حدود فاصلة بين كل مرحلة وأخرى، إذ تمثلت أكثر من مرحلة فى ذات الموقع. كما أن عصور النقلة كانت تمثل إمتداد بين مرحلتين يصعب معها التصنيف الدقيق لها مثلما الحال مع حضارة حلف ووضعها فى نهاية العصر الحجرى الحديث أو كأحدى حضارات عصر الحجر والنحاس. كذلك تداخل مرحلتى الوركاء وجمدة نصر. بل إن هذه الأخيرة لم يعد يعتبرها البعض نهاية العصور الحجرية (عصور ماقبل التاريخ) بل يضيفون بعدها حضارة تعرف باسم «عصر مسيلم السامى» نسبة إلى مسيلم ملك مدينة كيش السامى. وإن كان إغفالنا لها إنما يرجع لكونها قضية ترتبط فى المجمل بقضية السومرية والسامية فى العراق القديم. وهو ماينبغى أن يفرد له مبحثاً منفرداً فى الدراسات المستقبلية بإذن الله تعالى.

ولعل من نافلة القول فى هذه الخاتمة أن نشير إلى أن أرض الرافدين التى شهدت هذه الحضارات المتميزة على أرضها والتى يرجع قدمها لقدم التاريخ ذاته، لم يتفق المؤرخون على تسمية محددة لها. فكلمة عراق يتأرجح معناها بين ثلاثة آراء، الأول يرجعها للأصل العربى بمعنى الشاطئ أو الجبل والثانى يرجعها لأصل قديم (سومرى أو سامى) مشتق من كلمة أوروك أو أ ـِك بمعنى المستوطن. والكلمة كما نرى دخلت فى مسميات مدن الوركاء وأور من حواضر العراق القديم. أما ثالث رأى فيذهب إلى معنى الساحل وقد عرب إلى إيران ثم عراق. وبالرغم من إعتبار البعض أن استخدامها الكلمة أنما يرجع إلى حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، إلا أنها قد شاع إستخدامها مابين القرنين الخامس والسادس الميلادين.

وكان يطلق عليها أيضا أرض السواد بالنسبة للقسم الجنوبى وأرض الجزيرة بالنسبة للقسم الشمالى إشارة إلى وضعيتها الجغرافية فيما بين النهرين المرادفة للكلمة الأغريقية ميزوبوتاميا Mesopotamia. بيد أن هذا التعبير لا يمثل كافة الأطوار الحضارية التى أمتدت إلى ماحول أو ماوراء النهرين مثل العبيد وأريدو وغيرهما. ومن ثم كان تعبير بارا بوتاميا Parapotamia أكثر شمولاً لانسحابه على مناطق ماوراء النهرين أو ما حولهما. ومن ثم يصبح مسمى بلاد النهرين أوحضارة الرافدين – فيما يذهب إليه إستاذنا الدكتور عبد العزيز صالح – تعبيرا لطيفا، لولا أن روافد النهر تختلف عن النهر ذاته.

ويرتبط بهذا التوجه الجغرافى إطلاق أسماء المدن على القطر كله بما يتوافق مع تلقب الحاكم بلقب المدينة التى يحكمها وهو الأمر الذى أصبح ينسحب بشكل إصطلاحى على المسمى كله، مثل سومر فى القسم الجنوبى من السهل الرسوبى وأكد فى القسم الأوسط من ذلك السهل. بحيث أصبح القطر يسمى بلاد سومر أو بلاد أكد وهى مسميات من قبيل إطلاق الجزء على الكل. مثلها فى ذلك مثل إستخدام الكتاب الكلاسيكيون لمسميات بلاد آشور الجغرافية على الصعيد السياسى.

الفصل الثاني

الســـومـــريـون
وتاريخهم المبكر



الفصل الثانى
الســـــومـــريـون
وتاريخهم المبكر

تقديم

أن تناول قضية الكتابة عن السومريين لدى أى مؤرخ لايمكن أن تتم معالجتها تاريخيا فيما يعرف بعصر الأسرات السومرية المبكر دون تناول نقطتين رئيسيتين قبلها. الأولى وتعرف بالمسألة السومرية Sumerian Problem، والثانية وتخص مسألة الأساس الأسطورى للأسرات السومرية ولسوف نحاول فى هذا الفصل معالجة هاتين المسألتين وفق متقضى الحال فى هذه الدراسة، قبل زن نشرع فى تناول عصر الإسرات السومرية المبكر (فجر الأسرات السومرية) تمييزا له عن عصر الأحياء السومرى.

أولا - المسألة السومرية

لعبت الإستكشافات الآثرية -ولاتزال- دوراً بالغ الأهمية فى كشف تعاظم دور السومريين فى تاريخ حضارة الرافدين بخاصة ومنطقة الشرق الأدنى القديم بعامة، ولعل أهم نقطة تتعلق بفهم دورهم وعطائهم الحضارى بالمنطقة هى مسألة أصولهم الأولى والمكان الذى قدموا منه إذا سلمنا بكونهم مهاجرين غير أصلاء بالمنطقة أو قبلنا بعكسه من حيث كونهم من سكان العراق القدماء.

والواقع أن تناول هذه القضية يستند على أسس ثلاثة فى معالجتها؛ أولها لغوى والثانى إنثروبولوجى والثالث أثرى. وهى أسس لم تنته بالباحثين لرأى حاسم. بل جعلت جل نتائجهم مجرد إفتراضات غير يقينية، ولسوف نوغل من جانبنا فى المسألة بغاية الرفق مستلهمين مقولة أحد أعلام حضارة الرافدين.

«هنرى فرانكفورت H.Frankfort» إذ يذكر فى هذا الصدد «أن المناقشة المسهبة لهذه المشكلة يمكن تماماً أن تتحول فى النهاية إلى ملاحقة وهم لاوجود له مطلقاً».

وبادئ ذى بدء، يمكن القول أن مسمى «السومريون» مشتق من الاسم القديم للقسم الجنوبى من العراق «سومرن (شومر)» بما يفيد سكنى هؤلاء الأقوام هنا المنطقة تحديداً، تمييزاً لهم عن الأكديين الذين قطنوا منطقة أكد فى وسط العراق مشكلين ثانى المجموعات التى وصلت العراق فى وقت مبكر. وهى مجموعة «الساميون» (الجزريون) النازحة من الجزيرة العربية. وبجانب هاتين المجموعتين مجموعة ثالثة مجهولة الهوية أسما وموطناً تفرق أفرادها فى شتى أرجاء المنطقة وقد عاشت تلك الأقوام نفس النمط السياسى وتمثلت ذات التأثيرات البيئة على ظروفها الاقتصادية ونتاجها الحضارى دون تمايز فى هذا الصدد. بيد أنه منذ أكتشاف الفرق الهائل بين السومريين والساميين لغوياً فى منتصف القرن الماضى، وجهود العلماء لم تتوقف عن كشف مزيد من الفروق المستقاة من دراسة النصوص والمدونات بكلتا اللغتين. بحيث خلصوا فى النهاية إلى أن الحد الفاصل بين سكان العراق القدماء إستند على اللغة أكثر من أى إعتبار آخر؛ السومرين خاصة بالمجموعة الأولى، والسامية للمجموعة الثانية، فى حين تأكد العلماء يقينيا من وجود المجموعة الثالثة التى لاتنتمى لكلتا المجموعتين السابقتين نظراً للعثور على مدونات تحمل أسماء وكلمات ليست بالسومريه ولا بالسامية.

ولقد عزز الأساس اللغوى، ما توصل إليه العلماء فى الأساس الثانى أى الإنثروبولوجى؛ حيث تبين عدم وجود ثمة صفات تشريحية لجماجم القبور السومرية تجعل منهم عنصراً جنسياً متميزاً.

فالجماجم بشكلها الطولى أو المفلطح تشير إلى إمتزاج العنصر الأرينى مع مثيله من حوض البحر المتوسط. أما التماثيل المنحوتة سواء لأشخاص سومريين أو

ساميين أظهرت شكل الأنف أما كبيراً أو مستقيماً قصيرا والعيون واسعة والجبهة مسطحة مع أعناق تميل إلى الغلظة.

أما الأساس الثالث وهو الأساس الأثرى فقد أفاد فى محاولة التعرف على أمرين، أصولهم الأولى وتاريخ قدومهم أو ظهورهم بالمنطقة. وكلاهما تكتنفه صعوبة بالغة لاسيما مسألة التأريخ التى يختلف فيها العلماء إختلافا بينا نابع من إختلاف طرائقهم فى تحديد زمن كل حضارة فى عصور ما قبل التاريخ فضلا عن تداخل مظاهر اللقى الأثرية فى بعضها الآخر حسبما أسلفنا.

ومن ثم، فقد تبنى أحد الآراء كون هؤلاء الأقوام قد آستوطنوا وادى الرافدين خلال العصور الوركاء فى حين يرجع بها البعض إلى عصر العبيد، وإستناداً على أن ظهور الكتابة السومرية على الأختام الإسطوانية والمنحوتات وإن رجعت إلى عهد الوركاء، فإن هذا لايعنى أن اللغة السومرية ذاتها كانت مستخدمة قبل تلك الفترة وهى وجهة نظر لها وجاهتها على أساس أن التعبير اللغوى يسبق دوما ترجمته الرمزية.

ويعزز هذا الإفتراض الذى يربط بين وجود السومريين وعصر حضارة العبيد، تطور صناعة الفخار فى فترة عصر الوركاء الذى لايعنى كونه إشارة إلى أنه قد تم بفعل الغزو الأجنبى وليست محض تطور محلى خالص ... بل إن هذا الفخار أيضا قد تعود بنا دراسته إلى إعتبار سكان العبيد وكأنهم قد وفدوا من إيران أو على الأقل من شمال العراق فى شكل إستعمار بدائى فرض نفسه على السكان الأقدمين. وإستناداً على دراسة الفخار أيضا فى موقع أريدو يمكن أن نستقى نتيجة مؤداها رجوع السكان الأوائل فى جنوب العراق إلى العبيد وإلى حضارة تل حلف الشمالية بما يعنى كونهما فرعين لأصل واحد وهؤلاء الأخارى، أى الحلفين، يمكن أن يرجعوا بدورهم لعصر حضارتى جرمو وحسونة... وهكذا نجد القضية تدفعنا للوراء فى دهاليز مراحل ما قبل التاريخ بتعقيداتها ومشكلاتها الخاصة.

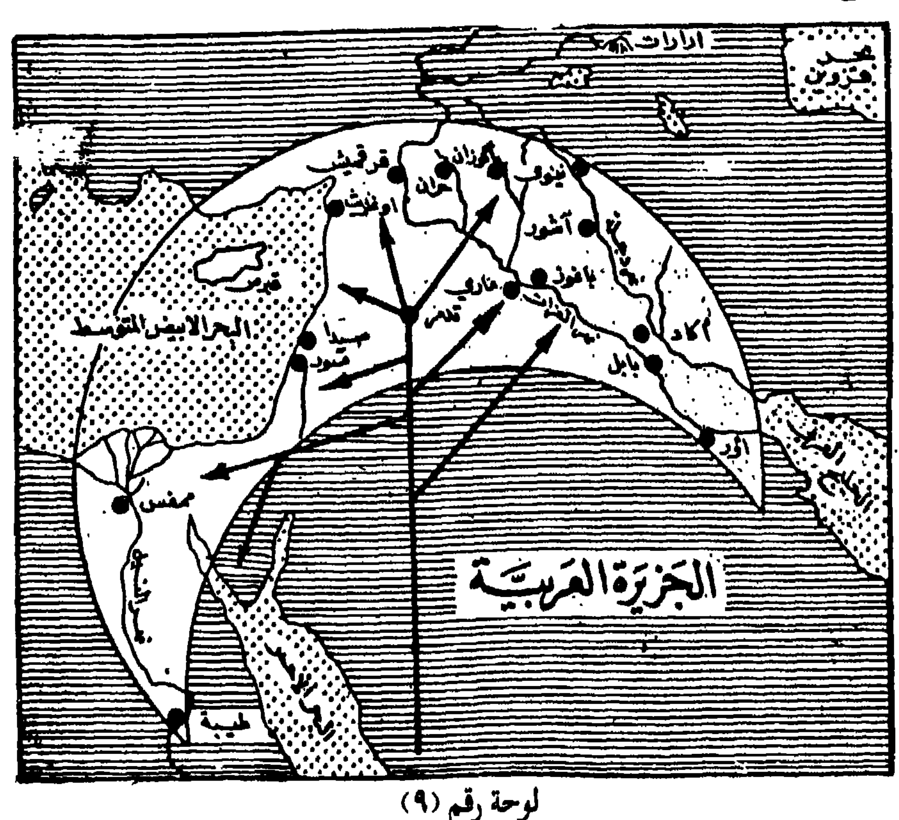
ومن خلال الأدلة الأثرية أيضا تذهب بنا الآراء حول موطن السومرين وأصولهم هذه المرة إلى حوض وادى السند حيث هاجرت منه أقوام كانت على درجة معينة من التحضر وأنهم عبروا إيران والخليج العربى إلى القسم الجنوبى من العراق حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ويستند أصحاب هذا الرأى على النمط الفنى لبعض القطع الآثرية ومادة صناعتها التى ترجعها لحوض السند. بل ويرجع البعض هذه العلاقة بين المنطقتين إلى عصر حضارة الوركاء إستناداً على نمط بناء المعابد المدرجة المستخدمة آنذاك والمعروف باسم الزقورات والدال على أصل هؤلاء الجبلى وتحديداً فى المناطق الجبلية الشرقية لإيران.

كذلك فإن التراث الدينى الآثرى والنص إنما يتخذه البعض كدليل على مايسوقونه من آراء فى هذا الصدد. فاستمرار التقاليد الدينية عبر حضارتى العبيد والوركاء أمر له دلالته الهامة. ذلك أن وجود طبقة سميكة من عظام الأسماك معطى معابد حضارة العبيد فى أريدو تقطع بأن الاله المعبود هناك لم يكن سوى أله الماء السومرى «إنكى».

أما المثال الخاص بالتراث الدينى فيذهب فى إحدى الأساطير السومريه إلى كون السومريين قد جاءوا عن طريق البحر فى عصور سحيقة كان الناس فيها -حسب الأسطورة- يمشون على أربع. وإنهم إستقروا فى دلمون (البحرين على الأرجح). والتى وصفتها الأسطورة بالبكورة فى مظاهر الحياة إذ «لم يكن ينعق فيها غراب أسود، ولايفترس أسد، ولايعتدى ذئب على حمل، ولاتحنى الحمامة رأسها، ولاتوجد أرملة فيها ولامرض ولاشيخوخة ولانواح ولابكاء ....».

بيد أن نقص المياه فيها دفع الآلهة إلى تزويدها بينابيع المياه التى حولتها جنة خضراء ... ورغم ذلك فقد نزح هؤلاء شمالا باتجاه القسم الجنوبى نحو الرافدين دون سبب واضح فى الأسطورة. وهذا القسم بالطبع هو بلاد سومر.

ومما لاشك فيه أن إستعراض القضية على النحو سالف الذكر، يبين مدى تعقيدها ويذكرنا بمقولة هنرى فرانكفورت التى سقناها بداية. بيد أنه فى المجمل يمكن القول أن معظم الآراء إنما ترجع وجود السومريين إلى حضارة عصر العبيد أو الوركاء. وإنهم وإن كانوا يمثلون الإمتداد الطبيعى لمدنيات، عصور ما قبل التاريخ الأخرى. فإن إستقرارهم إنما يرجع فى الغالب فيما بين ٤٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م. وإن كونهم مزيج من شعوب المنطقة قد جعل نتاجهم الحضارى مزيجاً من العناصر الأجنبية والمحلية وجعل من لغتهم فرعا من مجموعة لغوية كبيرة غطت كل منطقة غربى آسيا بل ربما أمتدت لأبعد من ذلك.



لوحة رقم (٩)

الهجرات السامية العربية من جنوب الجزيرة تتجه نحو الواديين العظيمين الفرات والنيل

ثانيا – مسألة الأساس الأسطورى للأسرات السومرية
(عصر الأبطال ؟)

يمثل الأساس الأسطورى للبدايات التاريخية للأسرات السومرية مسألة فى غاية الأهمية لفهم طبيعة الخلط الذى إعتمدت عليه المصادر المكتوبة لتلك الفترة والتى جمعت بين قوائم الملوك من ناحية وأسماء الالهة والملاحم والأساطير المرتبطة بهم من ناحية أخرى. وقد واكب ذلك بالطبع إختراع الكتابة منذ عصور الوركاء. ولتدخل الحضارة العراقية عصورها التاريخية منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد قام الأثرى توركيلد جاكوبسون بجهد وافر فى جمع تلك المصادر السابقة ووضع إثبات للملوك الذين حكموا المدن السومريه أو بالأحري دويلات المدن City-States. وقد ميزت تلك الأثبات أو الجداول الملكية بين مرحلتين رئيسيتين الأولى ما قبل الطوفان والثانية بعد الطوفان. وتشير المرحلة الأولى إلى أن الملكية قد نزلت لأول مرة من السماء على مدينة إريدو ثم إنتقلت بين خمس مدن حتى جاء الطوفان وقد ميز هذه المرحلة أسماء ثمانية ملوك يتفق وضعهم الأسطورى بالمدة التى طرحها الثبت لسنى حكمهم مجتمعة وهى ٢٤١٢٠٠ عاما.

أما مرحلة مابعد الطوفان فعلى الرغم من أنها لم تخل من بعض الروايات الأسطوريةن فى ثنايا الرواية التاريخية المتعلقة بملوك هذه المرحلة إلا أنها كانت أكثر وضوحاً نسبياً وتشير إلى حكم سلالات متتابعة فى عدة مدن تبدأ بكيش التى هبطت عليها الملوكية (الملكية) أيضا من السماء بعد إنحسار مياه الطوفان ثم سلالة الوركاء الأولى تعقبها سلالة أور الأولى ثم أخيراً سلالتى لجش وأوما. وهى مرحلة يطلق عليها بعض المؤرخين ما قبل سرجون الأكدى على أساس أن تاريخ أعتلاءه سدة الحكم حوالى ٢٣٣٤ ق.م. يعد أكثر التواريخ وثوقا وتحديدا فى هذه الفترة الممعنة فى الغموض.

والواقع فإن الربط بين الملكية وأسباب السماء أسطوريا لم تختلف فيه العقائد العراقية عن غيرها من الحضارات القديمة فيما تعلم. التى كانت تجعل من الحاكم وفقا للمعتقدات السائدة مفوضاً من قبل الآلهة فى حكم البشر، إن لم يكن هو الها بذاته أو على الأقل شبه إله. Semi-Divine Kingship وقد كانت مرحلة هامة لتثبيت فكرة الحكم المرتبط بالكيان السياسى للمدينة الدولة وهو مايفسره فيما يغلب على الظن تلقب حكام المدينة الدولة فى العراق القديم بثلاثة ألقاب هى،إين وإينسى ولوجال. والذى يشير أولهم وثانيهم إلى بعض الواجبات الدينية الكهنوتية،فى حين يضطلع الثالث بالمهام الدينونه الحاكمية دون إغفال ضرورة وجود حملة اللقبين السابقين بجانبه للمساعدة فى شئون الحكم الدينية.

ثالثا - الأسرات السومرية (السلالات المبكرة)

١- سلالة كيش الأولى :

أول سلالة حكمت بعد الطوفان فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد، حيث نجح ملوكها فى تحقيق الوحدة الداخلية للقطر. وكان مركزهم مدينة كيش (تل الأحيمر) بالقرب من بابل ولقد حملت قائمتهم البالغ عدد ملوكها ثلاثة وعشرون أسماً، أسماء سامية مما يدل على إستيطان بعض القبائل السامية (الجزرية) قبل السلالة الأكدية بعده قرون.

ولعل أهمية هذه السلالة إنما ترجع إلى إتخاذ العديد من الملوك القدامى لقب «ملك كيش» إشارة لإتساع سلطانهم السياسى فى البلاد من ناحية ولتطور مدلول اللقب من ناحية أخرى.

وترتبط إحدى الأساطير بالملك الثالث عشر بقائمة سلالة كيش ويدعى

«إتانا»، وإذ تذكر أنه كان ورعاً يبجل الآلهة ويقدرها. ولما كان محروما من الذرية فقد أرتقى إلى السماء على ظهر نسر كان قد أنقذه من الهلاك ليحصل على «نبات النسل» وقد كانت هذه الأسطورة الشعبية موضوعا لنقوش الأختام الأسطوانية التى طبعوها على الألواح الطينية، تخليدا لها ولذكرى صاحبها. ولعل هذه الأسطورة توضح ما سقناه من أرتباط الملوك فى هذا العصر ببعض القصص الأسطورى. ومن ملوك هذه السلالة المحاربين إنمى باراجسى وأجا.

وقد قام الأول بمحاربة عيلام والإنتصار عليها، كما شيد معبدا للآله أنليل فى نيبور. أما الثانى، فقد حملت سيدته إحدى القطع الأدبية السومرية المعروفة باسم «جلجامش وأجا». وتشير صراع على السيادة بين كيش والوركاء على عهد جلجامش الذى رفض إنذار ملك كيش أجا بالخضوع. كما رفض الإنصياع لمطلب مجلس حكماء المدينة بالإذعان لملك كيش وصمم على مواجهتها وكان له ذلك بالفعل.

وعلى أيه حال فقد إنتهت هذه السلالة بعد صراع بين حكامها أجا وبين جلجاميش حاكم الوركاء إنتهى لصالح الأخير ليبدأ عهد سلالة جديدة فى حين أصبح حاكم كيش تابعا للسيد الجديد.

٢- سلالة الوركاء الأولى :

عاصر أول أربعة ملوك منها حكام سلالة كيش قبل نجاح جلجامش خامس ملوك هذه السلالة فى فرض سطوته عليها. وقد صبغت المصادر أول ملوكها بصبغة أسطورية كإبن لاله الشمس. بيد أن الملفت للنظر أنه قد أمكننا إستقاء بعض مظاهر العلاقات الخارجية بين حكام هذه الأسرة وجيرانهم. فأول هؤلاء الحكام قد نجح -على مايدو- فى بسط نفوذه لمجاورات سومر. فى حين أمتد العلاقات بين الوركاء على عهد أبنه ويدعى أبن مركار إلى جنوب

عيلام وكذا جنوب غرب إيران. حيث حاول الحصول من هذه المنطقة الأخيرة على مالديها من ثروات معدنية لاسيما الذهب والفضة وكذا الأحجار الكريمة. وإنه إنتهى إلى ذلك مقابل توريد القمح لها لكونها منطقة جبلية غير زراعية، وإن هذه العلاقة تعرضت للشد والجذب بين الطرفين حتى إنتهت بالخضوع إليه.

بيد أن أهم حكام هذه السلالة قاطبة هو جلجامش الذى تشير النصوص إلى الصبغة المقدسة لوالده، وكذا هو ذاته من خلال الملحمة المعروفة باسمه والتى تعد من عيون الأدب ليس فقط فى العراق القديم ولكن فى أدبيات الحضارات القديمة بعامة. والتى تخلص تفاصيلها – التى ليس مجال ذكرها هنا– إلى حقيقة مؤداها أن الموت الذى لامفر منه لايحقق للإنسان خلود لفناء الجسد منه، وإن الخلود الحقيقى هو الذى يحققه الإنسان بفضائل أعماله وجلائل مآثره.

وبالإضافة لصراعه مع آخر حكام سلالة كيش الأولى – والذى أشرنا إليه بعاليه – فقد وجه جلجامش عنايته لبناء المعابد والمقاصير للآلهة المعبودة مثل ننليل فى نيبور وانليل. فضلا عن تسوير مدينة الوركاء وتحصينها. وقد وجه أبنه وخلفه إهتمامه أيضا لمعابد الالهة، فجدد للإله نتليل معبده فى مدينة نفر شمال سومر، وقدم لمعبود لجش الآله ننجرسو التقدمات المناسبة. وحظيت أوروك فى عهده على السيادة على سومر وكيش.

ولقد خلفه على عرش الأسرة ستة ملوك لم تسعفنا المصادر بمعرفة إنجازاتهم الداخلية والخارجية وإن نجح بالطبع حكام سلالة أور فى دحر سلالة الوركاء والسيطرة على السيادة بالمنطقة.

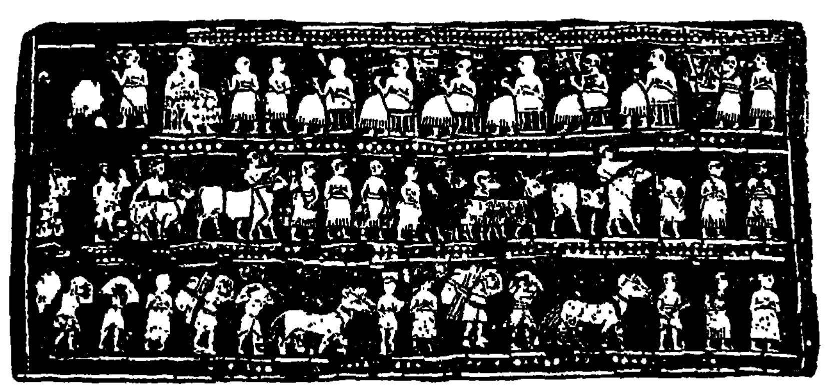
٣- سلالة أور الأولى :

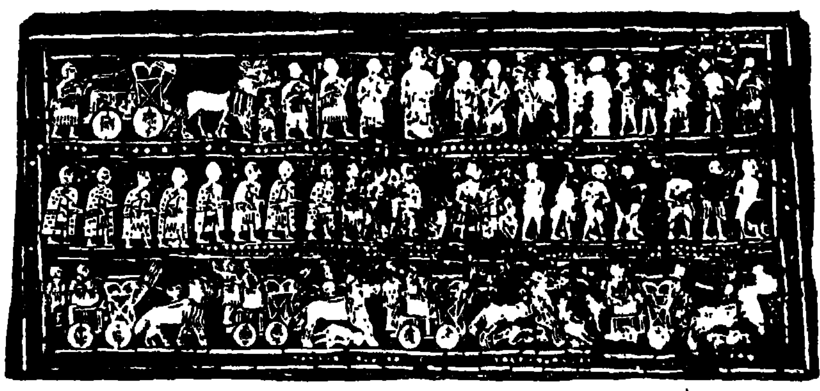
يرجع حكم ملوكها لأخريات النصف الأول من الألف الثالث حوالى عام ٢٦٥٠ ق.م. ونستطيع أن نميز من بين ملوكها لبعض الأسماء التى كشف عنها مجموعة المقابر الضخمة بالجبانة الملكية لمدينة أور وكذا بعض إنجازاتهم.

ومن هؤلاء الملوك، أوبالأحرى الحكام، مس أنى بادا وأبنه إنى بدا وحفيده مس كيا جنونا بنائين للعديد من المعابد للآلهة المعبودة. فقام الأول ببناء معبد الالهة ننخور ساج (أى سيدة الجبل) فى مدينة العبيد وهو المعبد الذى أكمل تشييده ولده وحفيده. كما شاد بعض الأبنية بمعبد انليل فى نيبور فى حين جدد ولده وحفيده معبد انليل بمدينة نفر.

ولقد بلغت سطوتهم على المناطق المجاورة مبلغا كبيراً، إذ كفل لقب «ملك كيش»، الذى حمله مس أنى بادا، له سطوه على الأراضى الممتدة من جنوبى العراق وحتى شمال مدينة نفر. وهى المدينة التى حظيت بأهمية استمدتها من قيمة إلهها المعبود أنليل، حيث عدت كعاصمة دينية ذات أهمية بالغة القداسة ولعل هذا ما يفسر سر إهتمام ملوك سلالة أوربها.

وجدير بالذكر الإشارة إلى أهمية اللقى الآثرية التى إكتشفت فى الجبانة الملكية بأور والتى تعكس ثراء لابأس به لها. وإن كان من أهم القطع قاطبة تلك الوحة المشهورة باسم «شعار أور» أو «سارى أور» والتى يصور أحد وجوهها مقرته خاصه غمارها المشاه والعربات ينتظمون فى ثلاثة صفوف. فى حين أظهرت الصفوف الثلاثة فى وجه اللوحة الأخر عن مشاهد إحتفال بالنصر على الأعداد؟ والتى صاحبها عزف للموسيقى وتبادل نخب النصر. وإن كانت بالطبع لاتشير إلى طبيعة تلك المعركة وأولئك الأعداء. بما يقلل من أهميتها التاريخية.





لوحة رقم (١٠)

ســـارى أور الشـــهير

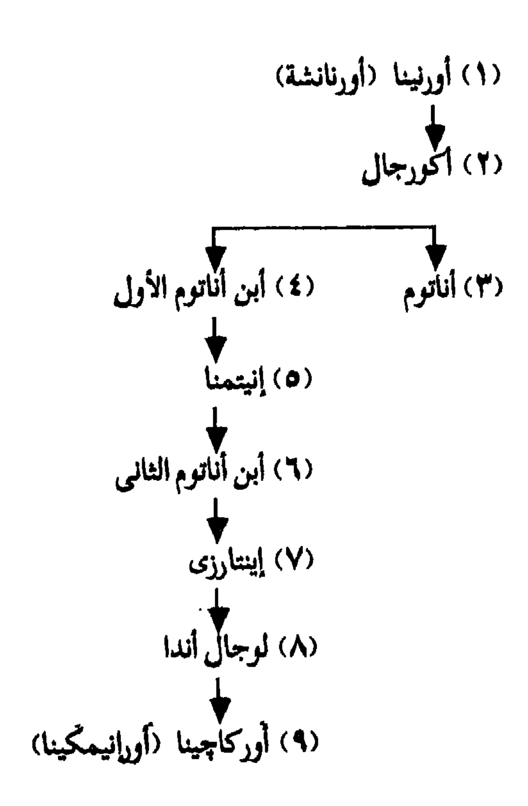
وعلى أيه حال، فقد فقدت أور سطوتها على المنطقة بعد ظهورها بما يربو على القرن من الزمان نتيجه لتعرض جزء من بلاد سومر لهجوم أجنبى من قبائل العيلاميين وبعض القبائل الأخرى بالمنطقة لتصيغ بهذا الهجوم حلقة من سلسلة الصراع بين العراق وعيلام والذى أمتد لحوالى ألفى عام.

بيد أن هذا الهجوم العيلامى فى هذه المرحلة كان قد نجح فى القضاء على حكم سلالة أور الأولى وتقسيم البلاد لقسمين. بيد أنه بعد عدة أحداث

متداخلة نجح حكام سلالة كيش الثانية فى تحرير البلاد من يد العيلاميين وأشتهر من بين ملوك هذه السلالة الملك ميسليم الذى مد نفوذه شرقاً حتى لجش، كما حدد الحدود بينه وبين أو ما (على الفرات الداخلى). ثم تداعت أحوال البلاد على عهد خلفاؤه، فى الوقت الذى بدأ يبزغ نجم سلالة حاكمة جديدة هى أسرة لجش الأولى.

٤- سلالة لجش الأولى :

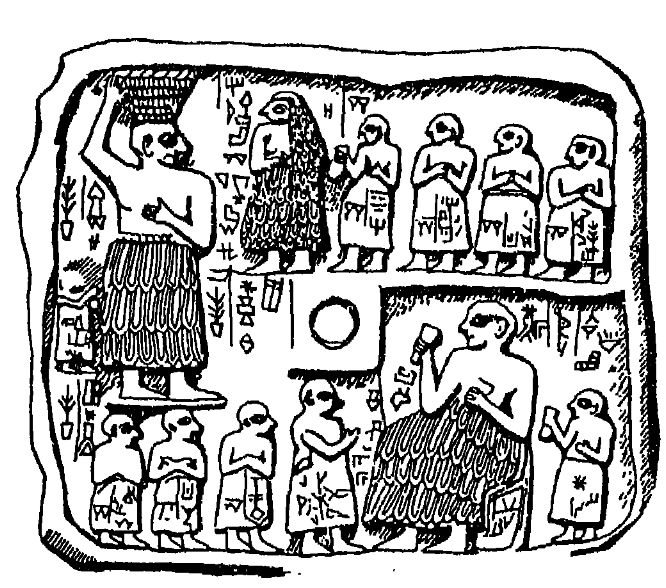
ترتيب ملوك الأسرة :



على الرغم من أن الصراع مع العيلاميين كان هو الذى ينبغى أن يصيغ طبيعة العلاقة بين حكام هذه السلالة وجيرانهم الشرقين، إلا أنه على العكس فقد صاغت صراعاتهم الداخلية مع حكام مدينة أوما - (تل جوفة الحالية على الفرات الداخلى) الواقعة شمال غرب لجش بحوالى ثلاثين كيلومترا -جزءاً أساسيا من سياستهم العسكرية خارج حدود مدينتهم.

بيد أنه قبل الخوض فى الحديث عن مراحل ذلك الصراع الذى سيسلمنا إلى تحول مركز القوى عن لجش، فالجدير بالإشارة بداية أعمال أولئك الحكام الإنشائية والإصلاحية والتى تدل على أن الحروب الطاحنة لم تحل بينهم وبين الاهتمام بشئون السياسة الداخلية.

فلقد سجلت نقوش أول حكامهم أورنينا حماسه الكبير لبناء المعابد وصنع تماثيل الآلهة إعترافاً بفضلهم فى إعتلاء عرش لجش، كما حصن المدينة وسورها ونظم قنوات الرى بها. ولعل لوحه الحجرى الذى يمثله حاملا فوق رأسه سلة تارة، وجالسا يحتفل بما قدم تارة أخرى وحوله فى المرتين أفراد حاشيته وأسرته، ليشير إلى إنجازاته السلمية فى البناء والتشييد. ولقد أنتهج حفيدة أناتوم ذات السياسة الإصلاحية، وكذا خلفه إبن أناتوم الذى قدم تقدمات متنوعة لثروات المعابد المختلفة والتى حددها أملاكها فيما بعد خلفه إنتيمينا، والذى شيدت فى عهده معابد عدة جديدة للألهة ننجرسو وآتو وأنليل وننخورساج وهى المعابد التى شق من أجل رى أراضى أوقافها قناه من الفرات خصيصاً لها.



لوحة رقم (١١)

صورة منحوتة على الحجر فى حوالى ٢٩٠٠ ق.م. تمثل حاكم لكش (وهو الجالس) واسمه أورنينا أو أور – ناتشه.

وعلى الرغم من تهافت مكانه الملوك التاليين لأنتمينا حتى فترة حكم أوركاچينا (وصحة اسمه أور أنيمكينا) إلا أن هذا الأخير قد سار على درب أسلافه خلال عهده الممتد لثمانية أعوام. حيث أبتنى معابد عدة للآلهة وشق قناتين للرى. بيد أن أشهر إنجازاته الإصلاحية مجموعة القوانين التى أستنها بهدف تقويض الفساد الإدارى والحد من الضرائب المفروضة على الشعب والتى أثقلت كاهلة وأضرت بمصالحة. كذلك عملت على الحد من نفوذ الكهنة مستغلين إشرافهم على الجانب الدينى فى المجتمع والأفراط فى تحقيق المكاسب من ورائه. وقد كان لإصلاحات أوركاچينا بعداً إجتماعياً ما فى ذلك من شك تجلى واضحا فيع عفوه عن المسجونين لعدم قدرتهم على سداد الضرائب المفروضة عليهم. بيد أن شمول هذا العفو كافة المسجونين فى جرائم خلقية كالقتل والسرقة دفع بعض الباحثين إلى القول أن تلك التشريعات إنما

كانت تستهدف تجميع القوى الشعبية خلفه فى صراعه الشرس ضد حاكم أو ما المنتصر لوجال زاجيزى.

أما عن السياسة الخارجية لحكام هذه السلالة، فتشير النصوص أن مؤسسها أورنينا كانت له علاقات اقتصادية مع جزيرة دلمون (البحرين) استغلها فى إستيراد الأخشاب، فضلا عن فرض سيطرته على آور.

أما على عهد خلفه، فقد بدأت أولى حلقات الصراع مع مدينه أوما والذى كان قوامه أصلا الصراع على الحدود بين الطرفين وقد حسم خلفه أناتوم هذا الصراع فى عهده بإخضاع أوما والوركاء وآور وكيش وغيرها بل وأمتدت سطوته إلى أرض عيلام شرقا. ولقد خاض فى سبيل ذلك حروبا عدة سجلتها آثاره لاسيما حربه مع آوما التى سجلتها لوحه شهيرة من عهده تعرف باسم لوحة العقبان (النسور) والتى نفهم منها إعتداء أوما أو بالأحرى معبودها الاله شارا على ممتلكات معبود لجش الآله ننجرسو. وقد أفلح نائبه على الأرض أى الحاكم فى إسترداد أملاك الآله المغتصبة بل وفرض جزية من الغلال على أوما وفق معاهدة أبرمت بين الطرفين.

بيد أن الصراع قد تجدد فى أخريات عهده وعهد خلفه إنتيمينا، حيث تحالفت مع أوما بعض الدويلات المجاورة، الأمر الذى دفعه لخوض غمار حروب طاحنه بلغت داخل أوما نفسها. لينتهى الصراع بينهما على عهده بتحديد الحدود وإشهاد الآلهة بصب اللعنات على أى غاز تسول له نفسه عبور الحدود إلى لجش والإعتداء على ممتلكات ننجرسو.

بيد أن ذلك الوضع كان مؤقتا إذ تجدد الأمر بعد وفاه انتيمينا وظل سجالاً بين الطرفين دون حسم حتى عهد أوركا جينا الذى وأن نجح فى حسم صراع سلالة لجش مع مجاوريها من مدن الرافدين لصالحة، إلا أنه لم يقو على الصمود أمام أمير أوما الطموح لوجال زاجيزى الذى زحف على لجش وأعمل

فيها تخريبا وتقتيلا لينهى عصر سلالتها نهاية مأساوية، صورها أحد كتاب المدينة. إذ يذكر كيف نهبوا ثرواتها وكيف أهدروا الدماء داخل معبد الآله، ثم دعا على لوجال زاجيزى بأن يظل حاملا أثمه أمام آلهه المعبود.

وعلى أية حال، فقد نجح لوجال زاجيزى فى ضم الوركاء إلى أوما ولجش وإتخذها عاصمة لملكة الجديد ولسلالة الوركاء الثالثة، وأمتدت طموحاته لأبعد من الصراعات المحلية داخل أرض الرافدين، إذ تخبرنا نصوصه أنه نجح باسم الآلة أنليل فى ضم المنطقة الواقعة من «.... البحر الأدنى (الخليج العربى) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط) ... ولم يبق لانليل منافسا من حيث تشرق الشمس وحيث تغرب ... وخضع له الجميع .... حكام سومر التابعين وأمراء البلدان المستقلين.

ويذهب معظم الباحثين إلى عدم تصديق كل ماجاء بنصوص انتصارات لوجال زاجيزى التى غلبت عليها المبالغة ونشوة النصر ... وإن كان واقع الحال يشير إلى إخضاع لوجال زاجيزى للتحالف الذى أقامه الساميون بزعامه مدينه مارى والذى نجحوا فيه بمد سيطرتهم السياسية على السامين فى سوريا.

وعلى أيه حال، فقد حلّت اللعنه التى أقامها أله لجش على لوجال زاجيزى وإن تأخرت بعض الوقت، أو بالأحرى لحوالى خمس وعشرين عاما وهى مدة حكمة. إذ تعرضت أسرة الوركاء الثالثة وحاكمها لوجال زاجيزى لمواجهة مع القبائل السامية (الجزريه) بزعامة قائدهم حاكم أكد ويدعى سرجون. حيث دان له النصر الذى دخل به تاريخ الرافدين مرحلة جديده عرفت باسم «العصر الأكدى».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاتمـــة

مما لاشك فيه أن مرحلة حكم السلالات السومرية المبكرة والتى صاغتها حكومات دويلات المدن المتعاصرة قد إتسمت بسمات مميزة صبغت به هذا العصر.

فعلى الرغم من الثوابت العامة التى إتسمت بها هذه المرحلة من وحدة الجنس والأرض والعقيدة التى تميز بها السومريون وميزت نتاجهم الحضارى عن جيرانهم من ساكنى الجبال، إلا أن اللامركزية التى أفضت إليها طبيعة حكم دويلات المدينة لحوالى خمسة قرون قد حالت دون تحقيق وحدة أكثر قوه وشمولاً وإنحصرت إنجازات الحكام فى مصالحهم الذاتية على المستوى السياسى والعسكرى وبل الاقتصادى. حتى إن الوضوح والتفرقة بين الحاكم بصفته المقدسة كوكيل اللألٰه المعبود ورجال الدين كهان هذا الآله كانت أيضا لصالح السلطة الحاكمة والتى لم يكن يحد طموحها أيه حدود حتى ولو كانت معارضة الشيوخ فى مجالس الحكم. وهو الأمر الذى عمق دون شك من المشاحنات المحلية والصراعات بين حكام تلك المدن.

بيد أنه من الأهمية بمكان أن نشير أن اللامركزية أيضا لم تكن وبالا مطلقاً على شعب الرافدين آنذاك أذ جعلت هناك تركيزا فى معطيات الحكم والسياسة لصالح الرعايا، ومكنت كل منطقة من إطلاق إبداعاتها الحضارية الخاصة والمميزة لها مما أدى إلى إثراء هذا العطاء الحضارى وتنوعه بعامة وإن كان ثراء غلب فيه الكم على الكيف، والسمات الحضارية الخاصة بكل مدينه على الإمكانات الفائقه التى تميزها عن غيرها.



الفصل الثالث

العصر الأكـــدي



الفصل الثالث

العصـر الأكــدى

تقديم

أشرنا سلفا كيف تعايش السومريون مع الساميين (الجزربين) ومنهم الأكديون حيث أنصهر الجميع فى بوتقه واحدة ذات نتاج حضارى واحد يعصب التمييز بين أصوله. وظل الجانب اللغوى هو العنصر المميز الوحيد بين أولئك الأقوام الذين هاجروا من جزيرة العرب والصحراء السورية وفلسطين والهلال الخصيب حيث كان تستقرهم العديد من المراكز الإستيطان جنوب الرافدين.

أما عن إستيطان الأكديين؛ فيمكن القول أنه رغم إنتشارهم فى رقعة واسعة نسبياً مقارنة بغيرهم وإن كانت بالطبع أقل من السومريين فى الجنوب، إلا أنهم كانوا يتمتعون بالقوة والنفوذ فى المنطقة الممتدة داخل حدود مملكة كيش وإن نفوذهم بلغ حد تسميه عدد من ملوكها يذيد عن النصف بأسماء سامية (حزريه). أما غالبيتهم فقد تركزت شمالى بلاد العراق. فى خين شكلت المنطقة الواقعة فى الإقليم الأوسط بين وادى الرافدين من مدينة نفر جنوبا إلى حيث - (وإسمها القديم توتول وتقع لحوالى ١٥٠ كيلومترا غرب بغداد) وسامرا شمالاً، ما يسمى «ببلاد أكد» التى إتخذها سرجون عاصمة له.

ومما لاشك فيه أن إحتكاك هؤلاء الأقوام لحوالى ألف وخمسائه عام بالسومريين ومركز استيطانهم، بل وإستيلائهم على بعض هذه المراكز وبسط نفوذهم عليها وقد سهل لهم الدربة على فنون الحكم وتنظيمة وكون لديهم

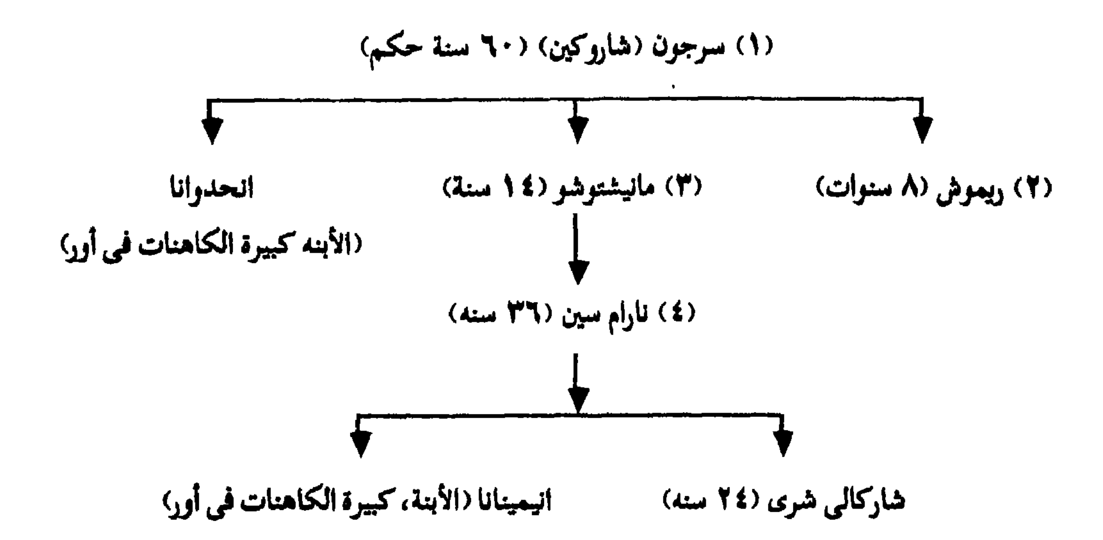
طموحاً سياسياً سرعان ما تنامى فى ظل وجود نظام دويلات المدن. وعندما ظهر فيهم من وحد صفوفهم، أنضووا تحت قيادته مكونين أمبراطورية مترامية الأطراف ومنهيين تواصل حكم السلالات السومرية لأول مرة فى تاريخها.

وتجدر الإشارة إلى أمرين قبل عرضنا تاريخنا السياسة الداخلية والخارجية لملوك أسرة أكد؛ الأول ويتعلق بطبيعة التأريخ الذى يجعلنا نبدأ حكم سرجون من حوالى عام ٢٣٣٤ ق.م. مع الوضع فى الإعتبار الإضافة على هذا التاريخ لما يربو عن الثلاثين عاما. وهذا الأمر ينتج عن تبنى النصوص الأكدية لنظام التأريخ المعروف باسم «أسماء الأعوام» والتى يؤرخون فيه لأحداث ملوكهم بالإعوام التى قدموا فيها جلائل الأعمال كبناء معبد أو تحقيق إنتصار على الإعداء. وهو نظام مخالف للنظم التقليدية المعروفة آنذاك مثل التأريخ بسنى عهد الحاكم أوعهد أحد كبار الموظفين والذى يحمل لقب «لومو».

أما الأمر الثانى، فيتعلق بتناولنا لتاريخ أسرة أكد والذى نقسمه إلى قسمين متمايزين، الأول عصر سرجون والثانى عصر خلفاءه. وتسميه فترة حكمة بالعصر هنا بدلاً من عهد ترجع إلى كونها الأساس الميتين الذين أبنت على سياساته أمبراطورية أكد كأول إمبراطورية عرفتها بلاد الرافدين خلال تاريخها المكتوب، وحتى سقوطها على يد الجوتيين الذين يميز ظهورهم على مسرح التاريخ القسم الثانى لهذا العرض.

- أسرة أكـــد

- ترتيب ملوك الأسرة



- عصر سرجون

يمثل عصره من وجهة نظر السومرين أول مواجهة بينهم وبين العناصر السامية، أسوجبت معها القتال والرغبة فى الإستقلال ذلك أن إحتياجه لبلاد سومر ترك أثر بالغ الوضوح فى نفوس السومريين الذين أحاطوا نشأته وخلفيته السياسية بهاله من الأساطير التى تربط بالآلهة.

وفى هذا الصدد يمكن أن نميز بين روايتين، الأولى تشير إلى أن أمه – كبيرة الكاهنات – قد وضعته سراً (ربما سفاحاً لعدم الإشارة إلى أبيه) ثم إلقت به فى النهر بعدما وضعته فى سلة وختمت غطاءها. إلا أن التيار قد جرفه حتى جذبه أمر المزارعين أثناء رفعه للماء من النهر، ويدعى أكى حيث تربى فى كنفه متخذاً أياه إبنا له وعلمه حرفه البستانى .... أما كيف أرتقى

سدة الحكم فكل ما ذكره فى هذا الصدد إن الإله عشتار قد أسبغت عليه رضاها ورفعته ملكا.

أما الرواية الثانية فقد جمعت بين الحقيقة التاريخية والبعد الأسطورى وإن إتفقت مع سابقتها فى الأصل المتواضع لسرجون. فهى تذكر أنه كان يعمل حامل الكأس للملك كيش المدعو أور زابابا فضلا عن الخدمة فى معبد الآله مردوك. وتذكر الرواية كيف أنه أخلص فى خدمة طقوس الآلة فى ذات الوقت الذى قصر فيه ملك كيش فى هذه الطقوس . الأمر الذى دفع مردوك يرفع سرجون على عرش البلاد بدلاً من سيده، لينتقل بعاصمته من كيش إلى أكد.

وعلى الرغم، من أن قبول الرواية الثانية على عواهتها يدخل الباحث فى متاهات، تاريخية لاتتفق والأدلة النصية المتعلقة بقوائم السلالات وإنتقال الحكم بين الأسرات. إلا أنها كانت المخرج الوحيد الذى تذرع به سرجون لتبرير إغتصابه العرش من سيده. ولايخفى على القارئ بالطبع قيمة توظيف الإرادة الإلهية سواء لعشتار أو مردوك. وكلاهما من كبار آلهة الرافدين - من أجل دعم السطوه السياسية لسرجون وتثبيت ملكه الجديد، بعد نجاحة فى القضاء على حاكم الوركاء لوجال زاجيزى.

وتشغل حروب سرجون الحيز الأكبر من سنى حكمه الممتدة لحوالى ستين عاماً. فقد بدأ حملاته بتحطيم الوركاء وأسر حاكمها وتقديمه مطوقا ذليلا (فى طوق كلب) على بوابه الآلة أنليل. ثم إتجه بعد ذلك إلى إخضاع سلسلة المدن السومرية الكبرى الواحدة تلو الأخرى، أور ثم لجش ثم أوما حيث إنتصر فى كل مكان وحزب أسوار كل مدينة إعرضته. وبذا أصبح سرجون سيدا على بلاد سومر من شمالها لجنوبها، حيث «غسل سلاحه فى البحر السفلى» (الخليج العربى). وهو بتعبير سيصبح تقليديا فى نصوص العديد ممن خلفوه فى حكم بلاد الرافدين.

وهكذا أصبح سرجون سيدا لبلاد سومر وأكد ومحققا لوحدة أراضيها. ويبدو أن هذه المرحلة قد سبقت إختياره لأكد عاصمة لملكة الجديد. وهى تقع فى مكان ما على نهر الفرات لم يحدد موقعه الآثرى حتى الآن. ومنها بدأت إنطلاقاته العسكرية التى جردها فى إتجاهين رئيسيين الأول جهة الشمال الغربى عند دجله نحو إيران، والثانى شرقا على طول الفرات بإتجاه سوريا.

ويذكر نص حملات كيف أنه وصل إلى مدينة توتول (هيت) وقدم الصلاة للآلة داجان (آله الحبوب المعبود فى منطقة الفرات الوسطى)، فقدم له الآلة جزاء وفاقاً منطقة مارى، وإيارموتى وإبلا (شمال سوريا) حتى غابة أخشاب الأرز وجبال الفضة».

وتفسير هذا النص أى يشير إلى نجاح سرجون فى دحر مدن جنوب غرب إيران وعيلام وإخضعها بملوكها لسيطرته المطلقة. بل وحاول أن يرتقى بمدن عيلام على خساب مركز الثقل فى أوان بغرب إيران، وكان نتاج هذه السياسة تحول سوسه من مجرد سوق متواضع إلى مدينة - عاصمته، تعاظم دورها حتى غدت فى مرحلة تاريخية تالية عنوانا لهزيمة بلاد الرافدين والإطاحه بسلاله سرجون ذاته. أما تعبير جبل الأرز «فتعنى أما جبال لبنان أو جبال الأمانوس، وإن كان التحديد الأخير أكثر دقة إستناداً على كلمة «جبل» وليس «غابة». أما تعبير جبل الفضة أو الجبل الفضى فيشير إلى جبال طوروس إلى الشمال من الأمانوس.

ومما لاشك أن التوسع فى هذين الإتجاهين إنما كان يضمن دون شك سيطرة سرجون على مصادر المواد الخام الأولية من أخشاب ومعادن وضمان نقلها بسهولة ويسر فى نهر الفرات إلى بلاد سومر وأكد. ولعل هذا ما يفسر لنا مذكرته إحدى نصوصه من إيضاح الهدف من حروبه وهو إحضار جزية هذه البلاد.

ولعل ذات الهدف الاقتصادى هو الذى دفع سرجون للإستجابة لتجار أحد إقاليم منطقة كباد وكيا بالأناضول. إذ تذكر ملحمته الشهيرة والمعروفة باسم «ملحمة ملك المعركة» أنه هؤلاء التجار قد إستجاروا به لانقاذهم من سطوة حاكم مدينتهم مقابل ثروة كبيرة تدفع له. وقد أجابهم سرجون لمطلبهم رغم وعورة الطريق وتردد أتباعه ونجح فى مسعاه وأخضع حاكم تلك المدينة الذى إستجاب لمطالب التجار الذى أوفوا بوعودهم لسرجون بدورهم أيضا.

ولقد تطرفت نصوص النصر الخاصة بسرجون إذ يبدو أن نجاحاته العسكرية ألهبت حماس كتابة حتى رأينا ما أشارت إليه الملحمة السابقة من توغله فى آسيا الصغرى وهو أمر محتمل إلى بعيد فى حين ذهبت غيرها من النصوص إلى الإشارة لأخضاعه لبلاد كردستان بل وإجتيازه البحر العربى (المتوسط) وسيطرته على جزيرتى قبرص وكريت. وإن كان أحد الباحثين يذهب فى تقيمه لمثل هذه المبالغات فى الحملات بالقول «... إن التطرف فى التشكيك بهذه القصص، مثل تصديقها حرفيا، أمر غير مرغوب فيه أبدا، فلابد لمعظم هذه القصص أن تحتوى على شئ من الحقيقة على الأقل...».

أما مايمكن قبوله أيضا ما ذكرته نصوصه من بسط نفوذه لأقصى جنوب البلاد والمتاخمة لرأس الخليج العربى فضلا عن جزيرة دلمون (البحرين). أما آخر معاركه فقد خاضها ضد كل البلدان التى تمردت عليه عندما طعن فى السن و أنهم حاصروه فى أكد، إلا أنه حمل عليهم حملة دمرتهم جميعاً. كما عاودت القبائل القاطنه أعلى الجزيرة (والمعروفة باسم السوبارتو) هجومها على أرجاء أمبراطوريته إلا أنه نجح أيضا فى الخلاص منهم.

أما سياسته الداخلية، فقد إعتمد فيها فى المقام الأول على بنى جلدته من الساميين الذى رفع منزلتهم على حساب السومرين. فتلقدوا حكم دويلات المدن الرئيسيه، وأصبحت اللغة الأكدية اللغة الرسمية لمدونات الدولة. كذلك

فقد حرص على تأمين كل المدن بحاميات كبيرة العدد، فى حين أحاط نفسه بقوة كبيرة لحراسته قوامها ٥٤٠٠ جندى. كما شهدت البلاد على عهده نضهه اقتصادية أنعكست على البلاد ثراءاً ورخاء إذ نشطت المتاجر والسفن من كل حدب صوب حامله المنتجات من وادى السند (ملوخا) ودلمون (البحرين) ومجان (عمان) وغيرها.

أما إحترامه للمؤسسات الدينية السومريه فيتضح ليس فقط فى تشييده للمعابد والتى كانت بمثابة سياسة تقليدية تعارف عليها معظم الحكام، بل تعداه إلى حمل لقب «كاهن الآلة» بكل من آنو وأنليل، كما نصب أبنته «كبيرة لكاهنات آله/ القمر» فى أور.

وعلى الرغم من كل هذا الإهتمام بالالهة ومقدساتها، إلا أن الدائرة قد دارت عليه من ذات الكأس التى أشربها لمليكه فى كيش فى مقتبل حياته. إذ تعزى النصوص تلك الصعوبات وحركات التمرد التى جابهها إلى غضبه الآلة مردوك عليه الذى اعتبر حفره لهياكل معبدة فى بابل أهانه تستوجب اللعنات بهلاك شعبه وهجوم شعوب الشرق والغرب عليه وألا يستريح فى قبره.

وأيا كان من أمر نهاية سرجون فما لاشك فيه أنه كان من أعظم ملوك العراق القديم قاطبه وإستحق بالفعل تقدير من خلفه من الملوك، حتى إن إثنين من ملوك آشور قد حملا أسمه. كما دبجت حوله بطولاته وفتوحاته الأساطير التى تناقلتها الأجيال كابر عن كابر. فحق له بالفعل أن يردد تلك بمقوله التى تضمنتها نصوصه بعدما دانت له أطراف الأرض المترامية.

«والأن أيا كان الملك الذى يدعى أنه نظير لى فليصل إلى حيث وصلت أنا».

- عصر خلفاء سرجون

١- ريموش :

أخذ على عاتقه دحر التمرد الذى حاق بالحكم فى أخريات عهد والده والذى ظلت نذره قائمة بعد وفاته. إذ تزعم حاكم أور المدعو كاكد هذه التمرد الذى ضم حكام مدن لجش وأوما وغيرهما. ويبد وأن ريموش قد بدأ بأور ذاتها فدك أسوارها وجعلها خرابا يبابا، حتى أن أخته كبيرة كهنة أور منذ عهد والدها قد ذكرت أن المدينة لم تعد المقام لها الطيب بلا مكان يظلها من لفح الشمس أو ريح جنوب.

أما أهم إنجازاته العسكرية الخارجية فقد كانت ضد عيلام وحلفاءها، حيث إلتقى الجمعان عند إحدى المجارى النهرية. ودان فيها النصر لريموش عسكريا بذلك الكم من القتلى والأسرى الذى جاوز العشرين ألفا، فضلا عن الغنائم والأسلاب، وسياسيا بإخضاع عيلام ومجاوراتها. بل أن إصداء هذا النصر قد أخضعت له القسم الشمالى من بلاد الرافدين الذى آثر السلامه وهادن الملك المنتصر.

وحق له أن تشير آثار عهده لحمل لقب «ملك العالم» و «ملك الجميع». إذ كفلت له إنتصاراته أن «يسيطر من أجل أنليل على البحر العلوى والبحر السفلى والجبال كلهم جميعاً».

ولقد حاول ريموش أن يحظى برعايه أنليل الذى وهبة النصر تلو الآخر، فشاد له التماثيل بمعبده فى مدينه نيبور والتى كان أفضلها ذلك التمثال من معدن الرصاص الذى باهى به على أقرانه بأنه لم يصنع أحد مثله من قبل.

بيد أن نهاية هذا الحاكم كانت سيئة، إذ يبدو أنه تعرض لمؤامرة مابين داخل القصر حيث قتله خدمة «بالرقم» أى بالكتابة حسب تعبير النص البابلى

عن هذه الواقعة. بما يعنى أنهم إستخدموا الكلمات أو بالأحرى اللعنة للخلاص من مليكهم. وأن رأى بعض الباحثين أن خلفه وأخيه مانيشتوسو» كان ضالعا فى تلك المؤامرة.

٢- مانيشتوسو :

بالرغم من أنه قد نعم فى بداية حياته بثمار كفاح أخيه إلا أن الهدوء كان سابقاً لعاصفة من التمرد جعلته ينفذ حملة بحرية هائلة وصفها النص من عهده أنها تمت بعدما نجح أولاً فى إخضاع تمرد عيلام وبعض المدن المتحالفة ناقصة جنوب غرب إيران.

يقول النص «... فتجمعت لحربه جيوش ملوك أثنتين وثلاثين مدينه تقع فى الجانب الآخر من البحر فهزمهم وأخضع مدنهم ثم أطاح بسادتهم وأصبح البلد كله فى قبضته حتى مناجم الفضة. وأخذ حجارة الجبال الواقعة وراء البحر الأسفل وصنع تمثاله وقدمه لإنليل».

والواقع أن حملتة البحرية التى أشار إليها النص لايمكن فهم هدفها إلا فى ضوء فهم الظروف الدولية بالمنطقة المحيطة بالأكديين. ذلك أن شمال سوريا كان ينعم أقوامه بحرية الحركة فى إستقلال نسبى عن الأكديين منذ عهد سرجون، فى حين سيطر الخوريون على شمال سوريا من فرقمس وحتى نامار أو ربما جنوبا حتى الزاب الأعلى. أما اللولوبيون فمدوا نفوذهم فى سهل شهر زور قرب السليمانين، فى حين سيطر الجوتيون على منطقة همذان ومجاوراتها وسط جبال زاجروس. وفى أقصى الجنوب الشرقى كان العيلاميون بعداوتهم التاريخة للأكديين. وقد مثلت كل الأقوام حجر عثرة أمام أحكام أكد للسيطرة على مصادر النحاس والتصدير والفضة وذلك بسيطرتهم على الممرات المؤديه لوادى الرافدين من الأناضول وأرمنيا وأذربيجان.

وقد إنتهج حكام أكد جبال ذلك سياستين، الأولى تأمين مصادر أخرى مثل عمان أو جنوب شرق إيران، وهو ماقام به مانيشتوسو بحملته هذه، أوشن

الحرب ضد هؤلاء الأقوام وهى المرحلة الثانية التى خاض غمارها حفيد سرجون، نارام-سين.

وعلى أيه حال، فقد حظيت الآلهة التقليدية مثل إنليل وعشتار برعاية مانيشتوسو، حيث أقام للأول تمثالاً فى نيبور ومعبداً فى سبار، وكذا معبدا للثانية بمدينة نينوى.

ويبدو أن المؤامرة التى حبكت ضد ريموش قد ألقت بظلالها على نهاية عهد مانيشتوسو أيضا الذى ربما لقى مصرعه هو الآخر من داخل القصر، ليخلفه إبنه نارام - سين، أحد أعضم ملوك هذه الأسرة.

٣- نارام - سين :

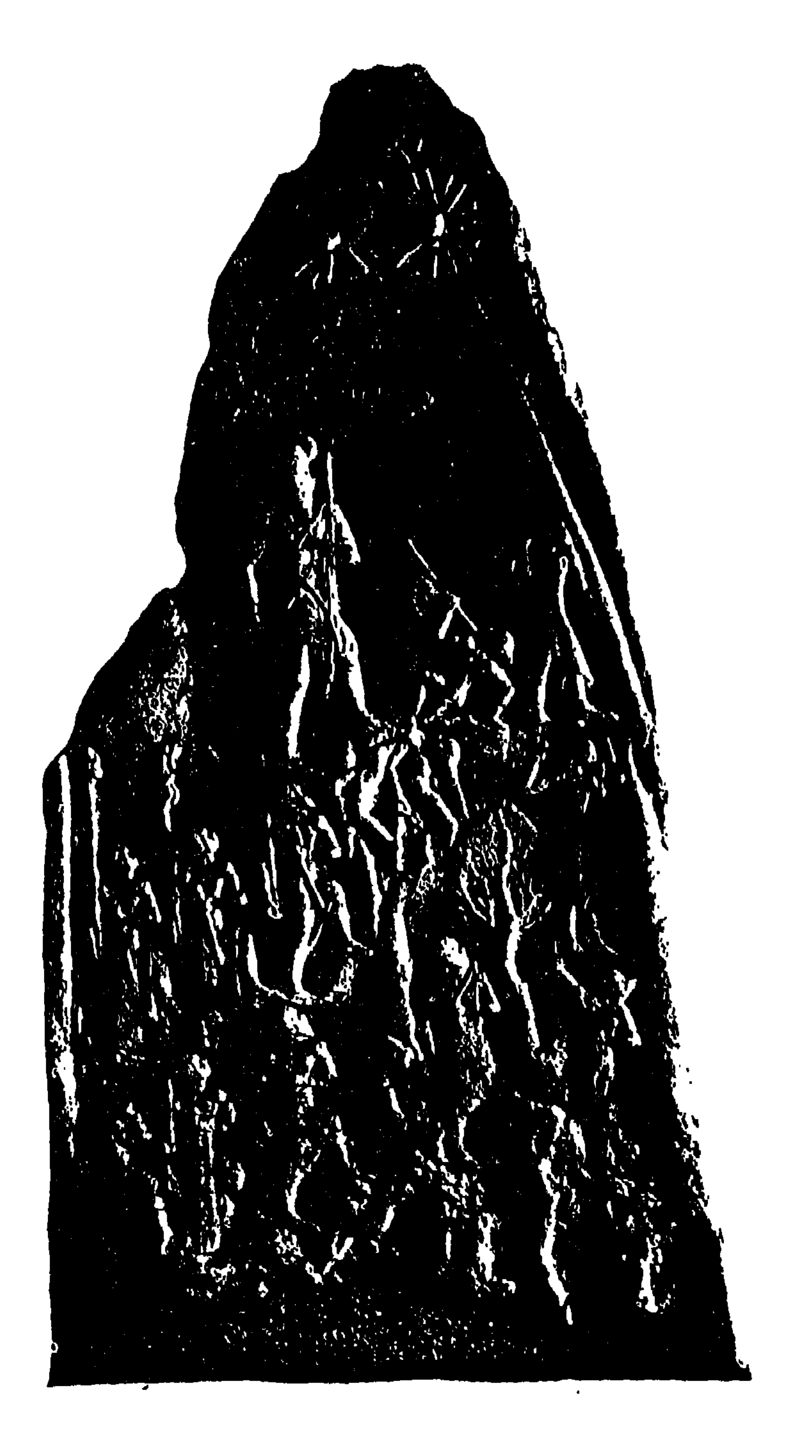
فرضت الظروف السياسية فى منطقة الرافدين وخارجها القتال على نارام سين، حتى أن فترة حكمة الممتدة لستة وثلاثين عاما قد قضاها فى حروب متصلة. وقد بدأت معاركة كالعادة بقمع تمرد الحكام العصاة بزعامة حاكم كيش فى المدن المجاورة، ويبدو أن التحالف هذه المرة قد تعدى حدود دويلات مدن الرافدين إذ اتسع مداه ليشمل من الأناضول فى الشمال العربى إلى ماحان (ساحل عمان) فى الخليج العربى.

وقد أفادتنا نصوص عهده بخطوات تركه نارام سين العسكرى والذى يبدو أنه بدأ بإتجاه الغرب فى الأرض السورية حيث أطاح بكل حلب (أرمان) وإبلا ثم إتجه إلى منطقة جبال الأمانوس وجبل أشجار الأرز. أما فى إتجاه الشمال فقد حارب منطقه نامار الحورية وبنى لنفسه قصرا أو حصنا فى تل البراك، وهى ذات موقع إستراتيجى يؤدى إلى قلب حوض نهر الخابور ومهيمنا على كل طرق الجزيرة. وهو ذات الأمر الذى تكرر ببناء مستقر له فى آشور مشابه إلى حد كبير فى تصميمه لقصر تل البراك. كذلك فقد إنفذ حملة جنوبية إلى

ماجان (عمان) قبض فيها على ملكها بعدما دان له النصر، وهو ماتثبته جزية مجان والتى كانت عبارة عن أوانى من المرمر منقوش عليها اسم نارام – سين.

أما أهم معاركة والتى أثارت جدلاً بين الباحثين فتتمثل فى قتاله لقبائل اللولوبى والجوتيين. ومصادرنا بالنسبة لمعاركة مع اللولوبى تتمثل أولا فى نقش صخرى بممر جبلى بين السليمانية وكركوك، والنص رغم تهشمه إل أنه أفادنا فى الإشارة إلى نصر نارام سين على اللولوبى فى مكان النقش الذى يخلد ذكرى ذلك الإنتصار.

أما ثانى المصادر ويطلق عليه «لوح النصر» فيتعلق بذات المعركة بيد أنه يشتمل على تفاصيل مصورة، وهو محفوظ بمتحف اللوفر فى فرنسا، وقد صور فيه نارام سين مرتديا زى القتال، أى الخوذة المقرنة والقوس والبلطة، وقد أرتقى قمة جبلية تدل على طبيعة المنطقة، فى حين أندحر أمامه على درجات الجبل الواحدة تلو الأخرى أعداءه بحركات مختلفة تبين مدى ما أعمله فيهم نارام سين من تقتيل. أما الملك ذاته فقد صورته اللوحة أيضا وهو يبتهل حمداً وشكراً للالهة على النصر المبين، وقد أرتقى جنوده المنحدرات الجبلية فى تنظيم عسكرى مرتدين عتاد الحرب ويتقدمهم حملة الأعلام.



لوحة رقم (١٢)

لوحة النصر لنارام سين ملك اكد

أما ثالث مصدر فيتعلق بملك اللولوبى نفسه والمدعو أنوبانينى، وهوعبارة عن نقش بمنطقة ذهاب الحالية، بجبال زاجروس شرق نهر ديالى. وهذا المصدر على العكس من سابقيه يشير إلى نصر أحرزه ملك اللولوبى على الأكدين الذين أندحروا أمامه بفضل الآلهة عشتار التى حرص النقش على تصويرها جنبا مع الملك فى كل خطواته.

ويرى بعض الباحثين أنه ليس هناك ثمة تعارض بين كلا المصدرين، فذاك الخاص بالأكديين يثبته دون أدنى شك توغل قوات نارام سين فى الشمال الشرقى واحرازها نصرا مؤكدا على ملك اللولوبى آنذاك المدعو ساتونى، وهو النصر الذى خلده بنقش داخل أرض اللولولى ذاتها. أما نقش أنوبانينى فرعا يشير إلى فشل محاولة الأكدين فى حملة تالية - ربما فى أخريات عهد نارام سين - حملت ملك اللولوبى على تخليدها فى ذلك النقش. وإضافة لما سبق، فإننا نرى أن هذا الأمر يشبه إلى حد كبير نتيجة موقعه قادش بين رمسيس الثانى والحيثين والتى أدعى كل جانب فيها النصر لنفسه، وهو أمر لاغرابه فيه طالما أن الكتبة الملكين هم الذين كانوا يديجون أخبار ملوكهم، ومن ثم كان لابد لهم من المغالاه فى أعمالهم الإيجابية والتخفيف من حدة فشلهم.

أما صراعه مع الجوتيين، فقد حمله النص المعروف باسم «لعنة أكد» والذى يشير إلى هؤلاء الأقوام الجبليين قد هاجموا مملكة أكد وأهلكوا الزرع والنسل تحقيقا للعنه الآله أنليل الذى دمر نارام سين فى حروبه مع المدن السومرية مدينته ومعبده فيها. إذ لم يكتف الآله أنليل بخراب المدينة وحلول المجاعة بين أفرادها بل تعدى بلعنته الأمر إلى تأليب الجوتيين عليهم.

وبالرغم مما يفهم من هذا النص من إنتصار الجوتيين، إلا أن واقع الأمر يبين إستطاعه نارام سين صد غاراتهم وإنقاذ دولته. لأنه وإن كان من المعروف

أن هؤلاء الأقوام قد أسقطوا دولة أكد، إلا أن هذا الأمر لم يحدث إلا على عهد خلف نارام سين، الملك شاركالى - شرى.

وفيما يتعلق بسياسة نارام سين الخارجية أيضا، علاقته بعيلام. والواقع فإنها هذه المرة إتسمت بصبغة سلمية غير عدائية بناء على معاهده بين الطرفين حفظت لعيلام مكانتها وحفظت لاكد سيطرتها عليها دون قتال. حتى أن نصها قد ذكر على لسان حاكم عيلام «إن عدو نارام سين عدوه وصديقه يظل صديقه أيضا». وهو الأمر الذى ترجم عمليا بقيام حاكم عيلام بارسال قواته لصد الجوتيين واللولوبين لصالح نارام سين. كما تعدت علاقه هذا الأخير به من مجرد إرسال الهدايا وإنشاء الأبنية فى سوسه عاصمه عيلام، إلى إقامه علاقة زواج سيأسى مع عيلام بزواجه من إبنة حاكمها مما دعم أواصر المودة والمصلحة المشتركة بينهما.

وعلى أيه حال، فقد تميزت حروب نارام سين بالحفاظ على مساحة الإمبراطورية التى أقامها جده سرجون دون زيادة فيها، إلا أنه مع ذلك قد حظى بألقاب التكريم والتبجيل غير المسبوقة. فإلى جانب لقب «ملك العالم» ولقب «ملك أكد» حمل أيضا لقب «ملك الجهات الأربع». كما أضاف لاسمه رمزا النجمه دلالة على كونه آلها أو بالأحرى شخصية مقدسة تحمل هذا اللقب المقدس ليس لكونها تدخل فى زمرة الآلهه وهو أمر غير مسبوق فى الفكر الدينى العراقى. ولكن بحكم أحد إفتراضين الأول ويربط بين قيام الملك بدور الآله المعبود فى الحفل الدينى المعروف بالزواج المقدس والمتزامن مع فترة الحصاد وتجديد الخصوبة على الأرض بعامة كل سنة جديدة. والآخر أن صفة الألوهية والإرتباط بها كانت تفرز وضع الحاكم فى بناء الأمبراطور وضمان خضوع أتباعه لأوامره وهما أمران لايرقيان لمرتبة اليقين على أيه حال، لاسيما واننا نعرف أن نارام سين قد حلت به لعنة الآلهة بما يتعارض مع كونه هو ذاته إليها.

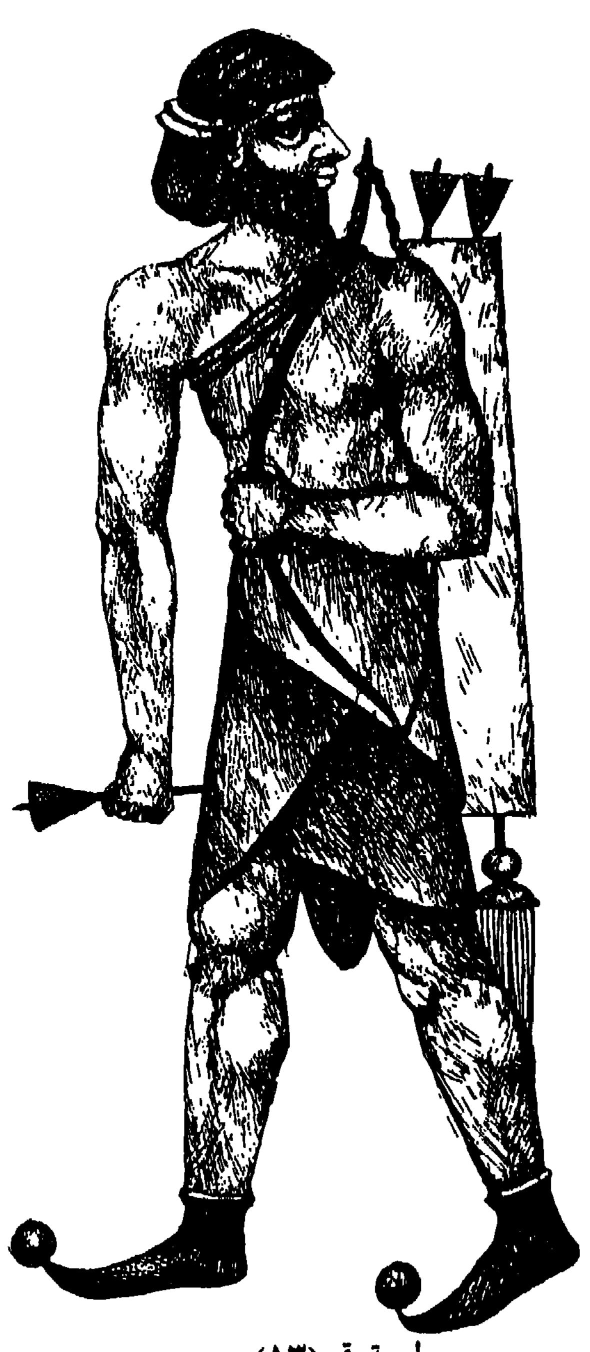
٤- شاركالى شرى :

خلف والده على العرش، وقد ورث تركة مثقلة بالعداوة مع كل جيرانه التى خلفتها حروب والده، فضلا عن أوضاع داخلية أثرت على وضع الدولة دون شك وزاد عليها لعنة الآله أنليل على رأس الدولة. وقد حاول شاركالى شرى فى مدة حكمه التى قاربت ربع القرن أن يسترضى الآلهة وأتباعها من الشعب السومرى فى مدنه المتعددة لاسيما نيبور.

بيد أن حجم الأخطار الخارجية كان أقوى من إحتماله كحاكم وكدولة. إذ بدأت المناوشات ضده من كل حدود الدولة. أولهما من عيلام حليفة الأمس عدوة اليوم والتى يبدو أءن مهادنتها لنارام سين كانت مناورة لإلتقاط الأنفاس حتى إذا ما رحل هذا الحاكم القوى أستغلت سوء الأوضاع الداخلية لتشق عصا الطاعة على آكد بل ويحمل ملكها لقب أشبه بلقب حاكم الجهات الأربع فى إشارة بالغة الوضوح إلى إستقلاله التام عن أكد.

وقد نجح شاركالى شرى فى تحجيم الخطر العيلامى، وكذ خطر القبائل القاطنة فى الصحراء السورية والذين كانوا نواة للخطر السامى الأمورى الذى بدأ فى هذه المرحلة ناشئا لم يشب عن الطوق بعد.

ولقد كانت الصراعات السابقة أرهاصات لصراع سيؤدى فى النهاية إلى التعجيل بأسرة أكد، إلا وهو الصراع مع الجوتيين. الذين رغم ضعف مصادرنا عنهم، يبدو أنهم قد نجحوا فى القضاء على شاركالى شرى وتقلد الأمور فى المنطقة بدلاً من أسرة أكد التى أطاحوا بآخر ملوكها بهزيمة أعقبتها عملية إغتيالة على يد أتباعه مثلما حدث مع سابقية ريموش ومانيشتوسو.



لوحة رقم (١٣)

محارب من العهد الأكدى بأدواته العسكرية الرسم مقتبس من ختم أسطوانى فى متحف برلين.

السيطرة الجوتية

تعد فترة السيطرة الجوتية على مقدرات الأمور بمنطقة الرافدين وحتى عودة الأسرات السومرية لسابق سطوتها، إحدى فترات الأضمحلال التى دامت قرناً من الزمان وأحدثت رده حضارية وأنهياراً فى كافة مناص الحياة. وقد صور أحد الكتاب السومرين الوضع بقوله «لم يعد أحد يعرف فيه الملك من غير الملك» بما يشير إلى الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد لاسيما فى منطقة أكد لقربها من أرض الجوتيين. وهو الأمر الذى سمح للمدن السومرية الجنوبية بعض القدرة على الحركة والمناوئه ومنها خرجت محاولات مدنها الواحدة تلو الأخرى للتحرر من السيطرة الجوتية.

فقد ظهرت فى الوركاء السلالة الحاكمة الرابعة، وإن نجح الجوتيون فى القضاء عليها بعد ثلاثين عاماً من قيامها. كما ظهرت محاولة باهتة لإستعادة مجد أكد سرعان ما إنتهت بالفشل الذريع.

وهكذا دان الأمر للجوتيين الذين لايعرف متى وكيف تم ذلك تحديداً، وإن عرف من حكامهم واحد وعشرين حاكما. حافظوا على طبيعة شعبهم الجبلية وطبائعهم القتالية شديدة المراس.

وبالنسبة لما دار أصلهم من آراء فهناك وجهاً للنظر يرى كونهم أحد شعوب منطقة جبال زاجروس من الوجهتين اللغوية واللسانية بما يخرجه من إطار الشعوب السامية والآريه. وإن كان قد إندمج فيه بعض العناصر الآرية فيما بين النهرين فى أواسط الألف الثانية قبل الميلاد، بحيث صار معظم سكان جبال زاجروس آريين فى الألف الأولى قبل الميلاد. ومن ثم، فلايمكن أن يكون الجوتيون آريين بشكل قاطع. أما وجهة النظر الأخرى فتراهم أسلاف الأكراد الحاليين؟. وإن كان يبقى الغموض حول أصلهم حائلا دون الوصول

لرأى قاطع. ومن ثم فإسهاماتهم الحضارية كانت شبه معدومة لضعف المادة الأثرية فضلا عن عدم وجود مقومات حضارية خاصة بهم. ومن ثم، فقد حاولوا تمثيل الأنماط السومرية والسامية فى أسمائهم ومعبوداتهم، لبعد الشقة بين هاتين الحضارتين وهؤلاء الأقوام من الجوتيين.

وفيما نرى فإن النتيجة الحتمية لذاك الإجتياح الذى قام به الجوتيون هو الإنحسار الطبيعى لنفوذ بغير جذور، حيث إشتعلت جذوة المقاومة والتحرير على يد الأسرات الجنوبية لدويلات المدن والتى صاغت مرحلة جديدة من تاريخ السومريين عرفت باسم «عصر الأحياء السومرى».

الفصل الرابع

عصر الإحياء السومري



الفصل الرابع

عصر الإحياء السـومرى

تقديم

لم يكن أزدهار إمبراطورية أكد ثم سقوطها متوافقا فحسب مع الناموس الطبيعى لسير الحضارات حسبما يتفق مؤرخوها على ذلك بوجه عام، بل إنه كان بداية لوضع تصور مستقبلى لسير جل إمبراطوريات الرافدين المتتاليه التى مايلبث أزدهارها أن يتحول إلى وهن تدريجى بفعل التمرد الداخلى المستمر والتهديدات العسكرية الخارجية. ويستتبع ذلك أخيرا إحتلالا أجنبياً كالذى حدث من الجوتيين بعد دولة أكد أو ماسنراه على يد العيلاميين والكاشيين والفرس. وفيما نرى أن أحد الأسباب الرئيسية العامة لذلك التذبذب الحتمى لم يكن مرجعه صراعاً بين النمط السومرى والنمط السامى للحضارات، أو الصراعات التقليدية لتعارض المصالح بين قوى متكافئة وهى أمور لها إعتبارها بالطبع. بيد أن الأمر – على مايبدو – يرجع إلى طبيعة التكوين السياسى الأولى الذى قام على أساس المدينة – الدولة. وهو النظام الذى سرعان ماكان تتفكك إليه أيه إمبراطورية إذا ما أعتراها ما ذكرنا من عوامل الضعف. وإن كان ينبغى أن نذكر أن هذا الوضع لم يكن فى مجمله ضد حضارة الرافدين إذ حافظ فى طياته على عوامل إستمراريتها.

ويتضح ماذهبنا إليه سلفا بشكل جلى فى هذه المرحلة التى شهدت سقوط إمبراطورية أكد على يد الجوتيين. إذ حافظت عدة مدن سومرية على الإستقلال السياسى، بل وكانت سلالة أوروك الرابعة بمحاولتها الإستقلالية التى باءت بالفشل أساسا لمحاولات أخر على يد سلالة لجش الثانية ثم سلالة الوركاء الخامسة وأخيراً سلالة أور الثالثة. وهم الذين يسمى عهدهم «بعصر

الأحياء السومرى» والذى يبدأ حوالى ٢١٤٤ ± ق.م. والذى يسميه البعض أحيانا «بعصر الإنبعاث السومرى الجديد».

١ - سلالة لجش الثانية

حكمت لحوالى ١٧١ سنه إنتظم خلالها على حكم المدينة ستة عشر ملكا، أجمعت المراجع جميعها على أن أهمهم قاطبة هو الملك الثانى عشر، جوديا الذى ورث العرش عن صهره أورببابا.

والواقع فقد كان حكام هذه السلالة تابعين لملوك أكد إبان الإمبراطورية الأكدية، ثم لم يلبثوا أن أسسوا لأنفسهم كياناً مستقلا إبتعد عن التبعية للجوتيين، وهو مايتضح من تسجيلهم لإنجازات حكامهم وفقا لسنى الإحتفالات الدينية التى يقوم بها حكامهم.

ويبدو أن جوديا قد ورث عن صهره حكما مستقراً، إذ كان أورببابا حاكما يتمتع بالثروة التى ساعدته على إنعاش مدينته اقتصاديا بما شقه من ترع وقنوات، وبما إبتناه من معابد للالهة ننجرسو وانكى وغيرهما من آلهة لجش حسبما سجل على تمثاله المقام بمعبد ننجرسو. ولعل إستقرار أموره قد ساعده على بسط نفوذه، على الأقل أسميا، على أور؛ إذ تفيد إحدى مصادر عصره إنه درج على سياسة أسلافه حكام أكد فى تعيين بناتهم كاهنات لعبادة إله القمر فى أور.



لوحة رقم (١٤)

جـــوديا مـــلك لجـــش

أما عن حكم جوديا والذى أمتد قرابة الأثنى عشر عاما، فظاهر الحال إن إستقرار عهد سلفه قد أنعكس على عهده بما أنجز من مشروعات. ولقد ساعده على ذلك تمسكه بجمع السلطتين الدينية والزمنية فى يده فى آن واحد، وهو ما تعكسه ألقابه المذكورة من نصوص عهده. فهو المنتسب إلى ننجرسو آلهه المعبود و«إنسيه» أو كاهنه ونائبه، ومن ثم فهو «الراعى» كذلك.

وقد أنعكس هذا التمسك على إلتزامه الشديد فى التعبير عن ولائه الدينى لمعبود لجش، حتى أنه أعاد بناء المعبد الكبير بالمدينة وأقام فى فنائه عدة نصب. وهو مايشهد به آثاره الشهيرة مثل الأختام الأسطوانية وتماثيلة التى نقش عليها تقواه حيال الأرباب. إذ تعزى الأساطير بناء – أو الأحرى – إعادة تشييد المعبد الكبير بلجش إلى رؤيتين للملك جوديا طالبته فيهما الأرباب بإعادة بناء

المعبد. وأن إقدامه على هذا العمل الجليل قد حال دون حلول القحط بمدينته وإستمراره بعدما تهاون فى الشروع فى إنفاذ رغبة الآلهة فى البداية. ولعل هذا ما يفسر كثرة عدد معابد الالهة التى بناها والتى قاربت الخمسين معبداً.

وعلى أيه حال فقد أنعكست روح التقوى التى صورتها آثار عهده على معظم ملامح إنجازات سياسته. بمعنى أن هذا النشاط العمرانى للآلهة المعبودة بلجش قد واكبه رقيا فنياً فى النحت والنقش والتصوير. كذلك فإن هذه النهضة العمرانية والفنية قد إستلزمت جلبا للمواد الخام التى يتطلبها إنجاز مثل هذه الأعمال، وهذا ما يفسر إتساع نطاق العلاقات الخارجية السلمية بين كيش وجيرانها على عهد جوديا لدرجة أنه قام بشق ممر جبلى فى جبل الأمانوس لتسهيل قطع الأخشاب ونقلها عائمة مع تيار نهر الفرات. أما إحتياجاته من الكتل الحجرية والقار فكانت من مجاوراته ببلاد الرافدين، فى حين إستلزم جلب النحاس والذهب والفضة والأحجار الكريمة الإتصال بمنطقة جبال زاجروس وأرمينيا وجبال طوروس وسوريا على التوالى. علاوة على عيلام والبحرين وعمان.

ويبدو أيضا أن سياسته العسكرية قد تحكمت فيها تلك النزعة المعمارية إذ يشير نصة الأوحد عن ضربه لمنطقى إنشان وعيلام إلى أن إنتصاره قد سمح له بإحضار العيلاميين وأهل سوسه من الصناع. هذا يعنى أن هدف حملته كان أساسا بهدف جلب الصناع الأكفاء للعمل فى هذه المنشأت الدينية. بجانب البنائين من رعاياه الذين أكدت نصوص عهده على حسن معاملة من أشتركوا فى بناء معابد الآلهة - لاسيما المعبد الكبير - خاصة وأن هؤلاء قد أعتبروا ما قدمت أيديهم للآلهة من أعمال القربى وكسب الثواب منهم.

وجدير بالذكر، أن جوديا لم تستغرقه فقط الأعمال الإنشائية وتبعاتها من الإهتمام بأهم أسس الاقتصاد فى مدينته وهى مشاريع الرى. إذ شق القناة

المسماه باسم الآله ننجرسو (أو شومجال) كحدث محلى يستوجب التخليد باسم إحدى سنى حكمة. كما أبقى على المجارى المائية والقنوات الصالحة للملاحة كى يسهل عمليات إستجلاب المواد الخام، بل وقام بتطوير أداء هذه القنوات بإقامة رصيف بالقرب من إحدى بوابات المدينة ليساعد على إنزال وتجميع المواد الخام المستوردة. بل وجعل من ذلك موثقاً بينه وبين الآله ننجرسو سجله فى معبده حيث تعهد فيه بصيانة القنوات والجداول وأدوات الرى الخاصة بمزارع الأرض المقدسة (أى أراضى المعبد).

والواقع فإن خلفاء جوديا قد قنعوا من الأرتباط به بترديد ذكراه وتبجيله دون أن يحذوا حذوه، سواء أكان ذلك ولده أور ننجرسو أو حفيده أو جمى، حيث قضيا فى الحكم عشر سنوات فقط. ليخلفهما الصهر الآخر لأوربابا ثم أخيراً الصهر الثالث ناماختى، وكلاهما أيضا لم يكن على مستوى عديلهما جوديا. بل إن حكم كيش قد شهد على عهد ناماختى السقوط والإنكسار على يد حاكم الوركاء وأبرز حكام سلالتها الخامسة المدعو أوتوخيجال(أوتوهيجال).

وبذلك ينتقل مركز الضدارة والريادة للمدن السومرية إلى الوركاء التى وقع على عاتقها عبء مجابهة الجوتيين وطردهم من البلاد.

٢ - سلالة الوركاء الخامسة

ينبغى الإشارة بادئ ذى بدءإلى أن إطلاق كلمة سلالة على هذه المرحلة إنما يتفق وتتابع ظهور قوى المدن السومرية على مسرح الأحداث، إذ أن السلالة أو الأسرة الحاكمة تقتضى التسلسل بين أفرادها فى الحكم. إلا أن هنا لم تشر القوائم السومرية إلا إلى حاكم واحد؛ هو «اتوخيجال».

وتتفق جل المراجع على أن اتوخيجال قاهر الجوتيين ومخلص بلاد سومر منهم، قد استمر حكمه بعد هذا النصر المبين لما يربو عن السبع سنوات

بقليل. أما قبلها فلا تشير نصوصه إلا إلى الترتيبات فى الخطوات التى أتبعها لمجابهة ملك الجوتيين تريقان، وهى إشارات نلحظ فيها إعزاء النصر لمساندة الآلهة له فى كل مراحل الصراع. ومما لاشك فيه أن أوروك قد ساعدها موقعها الجنوبى فى البعد عن سيطرة الجوتيين الفعلية وأهلّها لحمل عبء الكفاح المسلح ضدهم.

ويشير النص إلى أن «آلاله إنليل قد فوض من قبله ملك الجهات الأربع، الرجل العظيم أتوخيجال ملك الوركاء ... كى يحطم اسم جوتيوم (الجوتى) أفعى وعقرب الجبال، الذى رفع يده ضده الآلهة، والذى نقل ملوكية سومر إلى بلاد أجنبيه، وملأ بلاد سومر بالعداوة، الذى أبعد الزوجة عمن كانت زوجه، وأبعد الطفل عمن كان له طفل، والذى أقام العداوة والعصيان فى كل البلاد ...» .

بعد ذلك يشير النص إلى قيام أتوخيجال بطلب تحالف إلهة الحرب إنانا معه، ليقوم بعد ذلك بالزحف على رأس قواته من مدينتى أوروك وكولاب. ويبدو أن تريقان ملك الجوتيين قد استشعر الخطر من هذا الزحف، فأرسل من قبله رسولين كسفراء لحل النزاع سلميا. ولكن أتوخيجال قبض عليهما وأسرهما بما يعنى تصميما لارجعة فيه على مواصلة القتال.

وعندما ألتقى الجمعان دان النصر لأتوخيجال فى حين فر تريقان ملك الجوتبين إلى مدينة دوبروم الواقعة شمال غرب أو ما عند تل جدر فيما بين أوما وأدب. ولقد أكرمت دبروم وفادة الملك الهارب حتى بلغهم أن نصر اتوخيجال إنما برغبة إلهيه من أنليل، فما كان من هؤلاء إلا أن أطاعوا بدورهم رغبة أنليل وقبضوا على تريقان وسلموه للقائد السومرى، ليركع أمامه ذليلاً وليضع اتوخيجال قدمه فوق رقبته فى إشارة ضمنيه إلى سقوط الأول وحكمه وعلو الثانى وإنتصاره.

ومما لاشك فيه أن إنتصار أتوخيجال قد أعلى مكانته بين المدن السومرية التى دانت له بالولاء - ولو اسميا - الأمر الذى سمح بالتدخل فى شئونهم وفض نزاعاتهم. مثلما حدث فى الصراع بين لجش وأور وتدخله لصالح لجش على حساب أور التى فرض عليها سيادته وجعل من حاكمها أورنامو تابعاً له.

ويبدو أن هذا الأمر كان السبب الرئيسى فى إنتفاضه أور ضد تبعيتها لأوروك حيث نجح أورنامو فى شق عصا الطاعة على أتوخيجال حاكم أروك، وينجح بالفعل فى إعلان نفسه حاكما على بلاد سومر، كمؤسس لسلاله أور الثالثة التى دانت لها بلاد الرافدين بالطاعة مايربو عن قرن من الزمان أعادت فيه مجد الإمبراطورية الأكدية البائد.

٣- سلاسة أور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م.)

حكام سلالة أور

(١) أورنامو (١٧ عام)

(٢) شولجى (٤٧ عام) — انيرجالانا (كاهنة أور العليا)

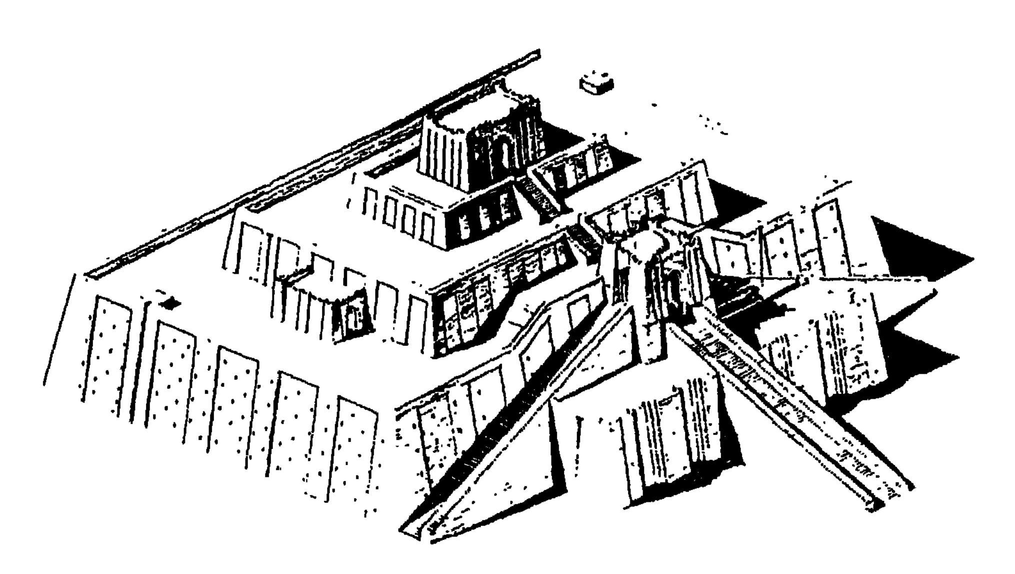
(٣) أمارسين (٩ سنوات) — (٤) شوسين (٩ سنوات) — (اينيرزيانا (كاهنة أور العليا)

(٥) ايبى - سين (٢٤ عام)

١ - أورنامو

أول حكام هذه السلالة الثالثة من حكام أور، وبقدر كونه حاكما غير محارب، كان ميالاً للإنشاء والتعمير حسبما تشير إنجازات عهده. فبعد أن ضمن سيطرته على أريدو والوركاء وكذا التبعية الأسمية لنيبور ولارسا وكيش وآدب وأوما، حق له أن يتحلى باللقب الشرفي «ملك الجهات الأربع»، وكذا اللقب الذى يدل على سطوته الفعلية على البلاد وهو لقب «حاكم سومر وأكد».

أما إنجازاته فى هذه المدن فقد تعدت السيطرة السياسية والتدخل فى صراعات تلك المدن فيما بينها، إلى بناء العديد من المعابد المدرجة (الزقورات) لألهة تلك المدن مثل أور والوركاء وأريدو ونفرو غيرها. وإن كان أفضلها قاطبة تلك التى إبتناها لإلهة القمر فى أور الآلهة نانا التى ظلت صامده متحدية عوادى الزمان بارتفاعها الذى يبلغ حوالى ٦٠ قدما.

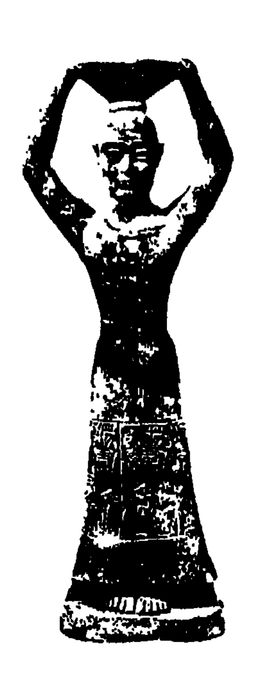


لوحة رقم (١٥)

زاقورة أورنامو (أسرة أور الثالثة)

كذلك فقد حدد الحدود بين هذه المدن وفق ماينطوى عليه نص الحدود وذلك ببناء أسوارها وتحديد أملاك إلهتها، كما وجه إهتماما كبيراً لشق القنوات وتطهيرها فى تلك المدن لاسيما فى أور التى أمر بحفر القنوات على حدودها وربطها بالبحر حتى يتيسر لسفن تجارة الخليج تفريغ شحناتها .فى عاصمة ملكة أور.

ولقد أظهرت «لوحة أورنامو» الشهيرة ذلك الاهتمام البالغ من قبله بالإنشاءات، حيث أظهرته اللوحه حاملاً لأدوات البناء وهو يتلقى أرشادات ألهه المعبود. وقد بلغ من إهتمامه بالهيمنه على الجانب الدينى أن نصب أبنته إنيرجالانا كبيرة كاهنات نانا فى أور، وأحد ابناءه كبير كهنة إنانا فى الوركاء.



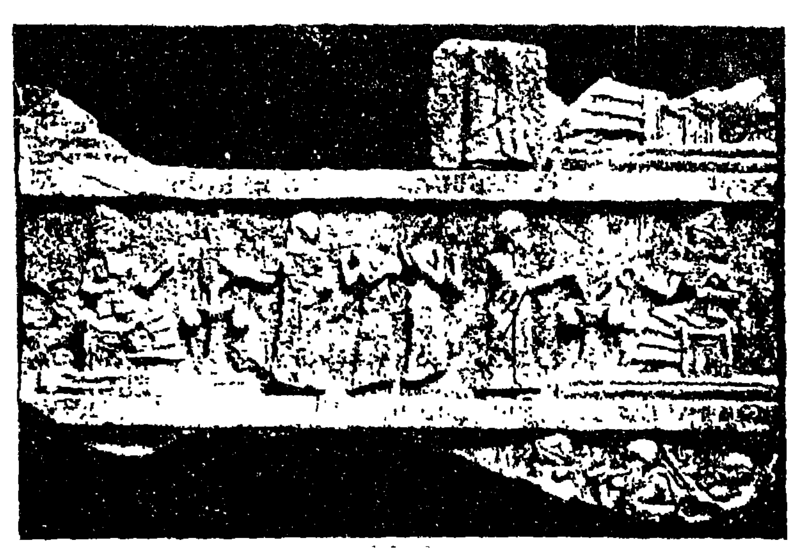
لوحة رقم (١٦)

تمثال من البرونز يمثل الملك «أورنمو» وهو يحمل على رأسة سلة مواد البناء لتشييد المعبد

بيد أن أفضل إنجازات عهده تلك التشريعات التى حاول بها أن يطهر الأرض من اللصوص وقطاع الطرق والمتمردين، وهى تشريعات تمثل أقدم مجموعة من القوانين فى تاريخ الإنسانية بعد تنظيمات أوركاجينا. بيد أن تشريعاته قد تجاوزت نطاق المحلية إلى مدن الرافدين الأخرى؛ لسببين أولهما هيمنته السياسية على تلك المدن فعليا، وثانيهما الربط بين تلك التشريعات وبين إختيار الآلهة وارادتها بما يكفل إحترام هذه التشريعات وخلع الشرعية عليها.

وفى المجمل، فقد هدفت التشريعات أولاً إلى حماية الثروة والاقتصاد بالتركيز على ضبط الموازين والمكاييل مع تثبيت قيمة المعادن المتداولة والتى قامت مقام العمله. كما حرصت على العلاقة بين أصحاب الثروات المتقاوته حتى لايجور أى منهم على الأخر.

كما قررت ثانيا على المستوى الجنائى مجموعة من العقوبات المالية تدفع فمن أصاب غيره أصابات بدنيه بحيث تفاوتت تلك الغرامات بتفاوت طبيعة الأذى الجسدى. أما ثالثا فتتعلق بمجموعة المواد المتعلقة بالأحوال الإجتماعية من خطبه وزواج، وكذا مايتعلق برمى المحصنة أو الأغتصاب أو التطاول من الجارية على سيدتها أو شهادة الزور. ومعظمها عقوبات قد قابلتها بعض الغرامات المالية المقررة. وهذه الغرامات النقدية والتى كانت تدفع قيمتها بوزن الفضة يراها بعض الباحثين دلالة على رقى المجتمع فى أور وبالتالى رقى تشريعاته التى لم تعاقب بالقصاص الجسدى، وهو أمر مخالف لما سنراه فى تشريعات حمورابى. وإن كنا نميل لمبدأ القصاص المماثل للعقوبة بحيث تصبح الغرامات فى هذا الأمر ذات جانب تعزيرى فحسب.



لوحة رقم (١٧)

منظر من مسلة أورنمو ملك أور

تمثل أورنمو وهو يمثل أمام آله القمر «ننا» اله مدينة أور

وعلى أيه حال، فليس لدينا الكثير مما يذكر عن سياسة أورنامو خارج الحدود باستثناء تلك الإشارة المتعلقة بعلاقاته الخارجية الممتدة من الخليج العربى جنوبا وحتى البحر المتوسط شمالا، وكذا توطيد علاقته بالأسرة الحاكمة فى مارى. وأخيرا، الإشارة إلى وفاته فى معترك ما من ميادين القتال حسبما يشير النص لذلك بالقول«أنه نبذ فى ميدان القتال مثل قارب محطم ..» وإن كنا لانعرف ممن حورب وأين كان ذاك الميدان !!!

٢- شولجى

خلف والده أورنامو ويعد عهده أطول عهود حكام سلاله أور الثالثة على الأطلاق وهو الأمر الذى ساعده على القيام بالعديد من الأنجازات على المستويين الداخلى والخارجى، ولقد توزعت تلك الأنجازات على مدى سنى

حكمه السبعة والأربعين التى أمضى نصفها الأول فى الإنشاءات الداخلية والإصلاحات المعمارية، فى حين توزع نصفها الثانى بين متابعة آثارها وبعض التجريدات العسكرية لأقرار الأمور على الحدود أو لضمان جلب الجزية.

ومن ثم، فلقد أكمل أعمال والده الإنشائية لاسيما زاقورة أور الشهيرة، كما أعاد بناء معبد للإلهة أنانا وآخر للأله أنليل بمدينة نيبور. ويعزى إليه كذلك العديد من الإنشاءات الصغيرة من اللبن والتى أقامها فى مجاورات مدينة أور فى منطقة ربما كانت تمثل الجبانة الملكية سواء للبقايا العظمية التى وجدت بها، أو تلك الأبهة فى أبنيتها العلوية من أبواب مذهبه وجدران منقوشة ومصفحة برقائق ذهبية مطعمه بالأحجار الكريمة. الأمر الذى فسره البعض بأن البناء العلوى كان يستخدم كمعبد جنزى يعلو المقبرة المقبيه أسفله.

ولقد تجاوزت أعماله الإنشائية حدود أور إلى أريدو وسوسه، حيث أولى الأولى عناية فائقة فى حين بنى معبداً ضخماً للمعبود المحلى لسوسة. كما إهتم بتوسيع وتعبيد طرق المواصلات وبناء الإستراحات عليها لراحة المسافرين وهو الأمر الذى أنعكس بالطبع على طرق التجارة والنشاط الاقتصادى بعامة.

بيد أن أهم مايحسب له من إنجازات هو ذلك التنظيم الإدارى الدقيق الذى إستهدف فى المقام الأول إحكام قبضته إداريا على المناطق التابعة له أو تلك الواقعة فى دائرة نفوذه دون خضوع فى إطار الدولة ويستوجب معها دفع الجزية أو الضرائب لخزانته.

ومن ثم، فقد أنشأ نظاما إداريا موحداً لمدن سومر وأكد قوام الإمبراطورية الأساسى. يتولى شأن كل مدينه به حاكم بلقب «إنسى» يتم تعينه أصلاً من الأسرة المحلية الحاكمة، ويعاونه حاكم عسكرى بلقب «شاجين» يقوم برفع تقريره مباشرة للملك وذلك لضمان المراقبة. أما المنطقة الواقعة خارج نطاق سومر وأكد وتدين له بالتبعية الاسمية فقد ولى عليها حكاما عسكريين أيضا.

كذلك فقد إستحدث نظاماً للسيطرة المباشرة على أراضى المعبد وذلك من خلال نظامين جديدين لجمع الضرائب، أولهما يسمى «بالا» Bala وهو عبارة عن ضريبة تدفعها مدن سومر وآكد بماقيمته معادن نقدية، والثانى يسمى «جان مادا» gun mada ويقوم بدفعه المشرفين العسكريين على المدن التابعة لأور خارج نطاق منطقة سومر وأكد، ويتم تقديره برؤوس الماشية.

ولقد أسس عدة مراكز لجمع عوائد الضرائب وتخزينها وتوزيعها، وهى مراكز أطلق عليها «مراكز إعادة التوزيع "Redistribution Centers"، منها على سبيل المثال لا الحصر مركز بوزريش داجان الواقع جنوب نيبور بعشرة كيلومترات، والذى تذكر المصادر تخصصه فى جمع رؤوس الماشية التى بلغت فى عام واحد ٢٨٠٠٠ رأس من الأبقار و٣٥٠٠٠٠ من الأغنام. وقد جاءت جميعها من المقاطعات المختلفة ليتم إعادة توزيعها على المعابد والأسرة الحاكمة وكبار موظفى الدولة. وكان هناك أيضا مركز دوسابارا والذى تخصص فى جمع المنتجات الزراعية وإعادة توزيعها على النحو السابق.

وما من شك أن هذا النظام الإدارى وأساليب جمع الضرائب قد إستلزم بالضرورة تدريب العديد من الكتبة والإداريين للأرتفاع بأداء هذا النظام لأعلى مستوى. لاسيما وأن شولجى كان يرى أن السبيل لنجاح نظامه يستلزم توحيد نظم الكتابة المسمارية، وتنظيم الموازين والمقاييس فضلا عن إدخال نظام تقويمى جديد يستخدم على نطاق الدولة بأسرها.

والجدير بالذكر، أن هذه الإنجازات الإدارية واسعة النطاق قد حدت ببعض الباحثين إلى إعتباره هو ذاته صاحب القوانين الشهيرة والتى لاتزال تنسب لوالده وسلفه أورنامو. وبالرغم من عدم وجود دليل دامغ على ماذهبوا إليه إلا أن إتساق الهدف من تلك القوانين مع الهدف من إصلاحات شولجى الاقتصادية والإدارية ربما هو الذى دفعهم لسوق مثل هذا الزعم.

وعلى أيه حال، فلقد عنى شولجى بربط أقاليمه ضماناً لأحكام سياساته عليها وذلك بنظام العدائين الرسميين الذى يحملون مكاتبات تلك الأقاليم وتبادلها وفق محطات محددة.

أما عن نشاطه الخارجى عسكريا وسلميا، فعلى الرغم من نجاحة فى مد نفوذه شمال سومر حتى منطقة آشور وشرقها حتى منطقة سوسة، إلا أن النصوص التاريخية تعوزنا فى تتبع خطوات هذا المد. وكل مايمكن رصده فى هذا الصدد أن شولجى قد شرع فى سلسلة من الحملات العسكرية منذ العام الثانى والعشرين من حكمة، وإن لم تتعد النصوص مصدراً واحداً فقط حوى قوائم مؤرخه ومكرره تشير إلى السنة التى دمرت فيها مدينة (كذا)... ثم التى تليها وكهذا دون تفاصيل.

وعلى الرغم من ذلك فإننا يمكن أن نستشف قيامه ببعض الحملات العسكرية المتكررة فى الشمال الشرقى حيث أوربيلوم واللولوبى وغيرهم، وهى منطقة قلاقل أشارت النصوص إلى قيامه فى عامة الثانى والأربعين بتدميرها للمرة التاسعة.

أما المنطقة الشمالية حيث منطقة سوبارتو فقد كانت مثار إضطرابات أيضا دفعت شولجى إلى إرسال مبعوثين لتثبيت سلطانه عليها. وإن حاول مهادنتها باللين مع رسله تارة والشدة تارة أخرى، حسبما يتضح من فقرات خطابه لمبعوثه هناك المدعو إيرمو. بينما أصطبغت علاقته شرقاً بالصبغة الودية إذ تزوج ثلاثه من بناته الثمانيه من حكام المقاطعات الإيرانية (عيلام) وهى مرهاش وباشلم وإنشان، وإن كان يبدو أن علاقته مع الأخيرة لم تكن مستقرة رغم تلك الزيجة السياسية حتى أن نصوصه تشير إلى تجريدتين تأديبتين أنفذهما هناك.

وبالنسبة للغرب فما أمكن التعرف عليه من خلال النصوص يشير إلى ذكره «أمورو» وتحصيل الملك لجزيتها مرة ثم تحصينه حدود البلاد ببناء سور دفاعى فى نهاية عهده، ربما لصد الخطر الأمورى الذى سيشكل وجزوه مرحلة ما بعد سقوط سلالة أور الثالثة فى تاريخ الرافدين.

وعلى أيه حال، فإن إنجازات شولجى قد حدت به لإنتحال لقب «ملك الجهات الأربع»، ودفعته إلى الإعتداد بذاته بدرجة عبّر عنها نصا بقوله «أنا الملك، لقد كنت بطلاً فى بطن أمى، صاحب بأس منذ مولدى، ثاقب النظر كالأسد ...» كما تجاوز الإعتداد الذاتى إلى تأليه ذاته بالقول «أنا حامى السومرين وراعيهم ... رب البلاد كلها». ومن ثم فقد أقيمت الهياكل لعبادته وقدمت القرابين والنذور له ثم لتماثيلة بحيث أضحى يعبد حيا وميتا، كما أطلق على أحد شهور السنة اسم «شولجى المقدس».

وعلى الرغم من كل تلك المزايا الشخصية لشولجى والتى بلغت حد التقديس، فإن بعض الكتاب لم يقبلوا تلك النزعة التى لاتتسق وإعتداءاته على ذخائر معبد بابل، هذا على المستوى الدينى. أما على المستوى السياسى، فلم تقبل بعض المدن خلع حكامها الوطنيين وتعيين حكاما عسكريين من قبله الأمر الذى أفضى إلى تمرد وعنف أديا بدورهما إلى إحياء نزعات الإستقلال لدى شعوب تلك المدن وكانا كفيلين باضعاف أور ثم سقوطها.

وعلى أية حال، فلقد خلف شولجى إمبراطورية مترامية الأطراف أعادت للمنطقة مجد أكد الغابر، كما خلف من البنات ثمانيه، أشهرهن صاحبات الزواج السياسى من حكام مدن عيلام والرابعة كاهنة أور العليا. أما البنين فقد عقب إثنى عشر ولدا خلفه منهم إثنين من أبنائه على التوالى وهم أمارسين ثم شوسين واللذان حكما كل منهما تسع سنوات، ثم حفيده إيبى سين.

٣- خلفاء شولجى :

عندما أعتلى أمارسين العرش خلفا لوالده شولجى كانت إمبراطورية والده قد توطدت أركانها حيث أنعكست الإصلاحات الإدارية والقانونية؟ على أوضاعها الاقتصادية. الأمر الذى جعله يولى اهتمامه بالمنشآت الدينية بنفس همة والده، إذ أقام العديد منها فى مدن نيبور وأور وأريدو لاسيما هذه الأخيرة التى أنشأ فيها معبدا للإله إنكى إله الماء العذب. فى حين أنه لم يوجه إهتمامه نحو سوسه بأية نوع من التشييدات.

أما سياسته الخارجية فقد سارت على نهج والده لاسيما فى التفاعل مع منطقة القلاقل فى الشرق والشمال الشرقى. وقد تنوعت أساليبه فى ذلك بين أرسال الحملات العسكرية بين الحين والآخر، إذ تشيد نصوص عهده إلى حملات سنى حكمه الأول والثانى والسادس والسابع. أو بين تنصيب أتباعه المخلصين مباشرة، حكاما على بعض هذه المناطق، مثلما الحال فى نقل تابعه حاكم آشور ويدعى زاريقوم إلى حكم سوسه.

أما بقية المناطق فى مجاورات أورفلم تشر النصوص إلى أيه معاملة عسكرية من قبل أمارسين تجاهها، بما يوحى فى الغالب إلى إستتباب أمورها على النحو الذى وضعه والده شولجى.

ولقد صبغ أمارسين نفسه مثل والده بقداسة جعلته معبوداً أيضا، إذ أطلق على نفسه لقب «أله الشمس وحاكم الأرض». وإن كانت تلك الألوهية لم تحل بينه وبين وفاته بسبب «رضه أو عضه حذاء» - حسبما يشير النص - والتى ربما تفسر أنه قتل من جراء حذاء مسموم.

وعلى أيه حال، فقد دفن مع والده فى ضريحه بجبانه أور الملكية، وهو الضريح الذى عثر عليه بحالة جيدة أثرياً رغم وضوح عبث السلب لثرواته وكنوزه التى دفنت معه.

ولقد أعتلي العرش من بعده أخوه شو-سين (ويعنى أسمه المقدس) حيث أولى بدوره الإهتمام التقليدى لعدد من المعابد بناءً وترميما. كما تركز إهتمامه بالحدود الشرقية والشمالية الشرقية على إنفاذ عده حملات فى عامية الثانى والسابع. وتصور النقوش شو-سين وهو يحمل على أعدائه ويحملهم أسرى فى معسكر خصص لذلك. ويبدو أن هذه الحملات العسكرية لتلك المناطق الجبلية كانت اقتصادية بحته إذ غنم من ورائها إحتياجاته من النحاس والرصاص والبرونز فضلا عن الذهب الذى صنع منه تمثالا لمعبودة أنليل. أما ولايه إنشان بمنطقة عيلام فقد وطد الزواج السياسى بين حاكمها وأبنه شوسين من العلاقة بينهما. وفى المجمل، فقد إهتم شوسين بتقوية سطوته على هذه المناطق والتى أتبع نهج أسلافه فى تولية المخلصين من رجاله جلائل الأعمال، إذ تشير النصوص إلى اسم أحد رجالاته ويدعى أوردو نانا الذى جمع فى يده كل السلطات الدينية والزمنية والعسكرية للإشراف على المنطقة الشرقية.

ويبدو أن الملك قد اتجه لتلك السياسه حيال المنطقة الشرقية ليتفرغ للخطر الجديد القادم من الحدود الغربية إلا وهو هجمات قبائل المارتو (الأموروم). والتى كانت تقطن غرب الفرات فى الرقعة الممتدة بسوريا والصحراء المحيطة بتدمر ووادى نهر العاصى والجبال الموازية لحوض البحر المتوسط. وقد كان خطرها قبل عهد شوسين لايتعدى بعض القلاقل التى تكفلت بها تجريدات تأديبية من قوات الحدود، إلا أن تعاظم خطورتها قد دفع بشوسين فى عامة الرابع إلى بناء جدار دفاعى فيما بين دجله والفرات لصد هجمات هؤلاء الغزاة الأموريين. الأمر الذى يعنى أنهم قد بدأوا يضعون مملكه أور فى موقع المدافع.

وأيا ما كان الأمر، فلقد آتى أجراء شوسين ثماره فى السنوات التالية من عهده وبداية عهد خلفه إيبى سين، الذى لاندرى ظروف توليه العرش بعد والده. بيد أنه منذ توليه الحكم ولمدة أربع وعشرين عاما ومعاول هدم إمبراطورية

أسرة أور لم تنته إلا وقد جعلتها أثراً بعد عين. وكان ذلك حوالى عام (٢٠٠٤± ق.م.)

حقيقة أنه حاول قدر ما وسعه جهده فى الحفاظ على حدود مملكة أسلافه، فأصلح أسوار الحصون عند مدينتى نيبور وأور، وعقد زيجة سياسية بين أبنته وحاكم إحدى مدن عيلام. فى حين قام بتجريد حمله فى عامة العاشر لقمع تمرد بعض مدن عيلام بزعامه سوسه المستقلة ونجح فى ذلك بعد ما أسر زعيم التمرد، ثم أعقب تلك الحملة بأخرى فى عامه الرابع عشر أكتسح بها أرض إنشان.

بيد أن أنفصام عرى دوله أور كان حتميا رغم مجهوداته السابقة، ففى عامة الثانى أنفصلت عن سلطته مدينه أشنونا وتبعتها فى العام التالى مدينة سوسه زعيمة تمرد المدن العيلامية منذ إستقلالها. وتوالى بعدها الإنهيار عاما بعد الآخر وهو مانلمسه بتتبع التاريخ بأسماء الأعوام فى وثائق تلك المدن، إذ لم تعد هناك إشاره لاسم إيبى سين منذ عامه الثالث بمنطقة بوزريش - داجان، ومن عامه الخامس بمدينة أوما، ومن السادس بمدينه جرسو، ومن الثامن بمدينة نيبور ... وهكذا، حتى عامه العاشر والذى أعلن فيه أحد قادته العكسريين المدعو أشبى - أرا سيطرته على نيبورو شمال بابل، مؤسسا أسرة جديدة ومتخذا عاصمة له فى مدينة أيسين.

وهذا الموقف الأخير من أشبى أرا وهو من مدينة مارى أصلا - يحتاج إلى وقفه مفصلة لموقفه حيال مليكة. فالرجل قد أوفده مليكة لشراء كمية من الحبوب من مدينتى نفرو إيسين ونقلها إلى مدينه أور. إلا أن إشبى أرا إدعى عدم إستطاعته تنفيذ المهمة لأن المارتو (الأموريين) قد قطعوا خطوط المواصلات المؤدية للعاصمة بعد ما اجتاحوا البلاد، وأنهم بصدد مهاجمه أيسين ونفر كذلك.

ولم يكن أشبى أرا فى موقفه هذا إلا مخادعا للمليكة، إذ أن مدينته مارى كانت من المدن التى باتت تترقب الصراع الوشيك بين الأموريين وحاكم أور دون إن تنحاز لطرف دون الآخر. وهو مافطن إليه إيبى سين ذاته ونبه إليه قائده فى رساله بالغة الدلالة، تتضمن فحواها أن الأعداء لن يقدروه لو إنحاز لهم وإنه سيفقد أهدافه وستحجم طموحاته بعد فترة من الأموريين والعيلاميين الذين لن يتركوه، فضلا عن أنليل الذى سينزل عليه غضبه.

بيد أنه وحسبما أظهرت الأحداث كانت طموحات أشبى أرا أقوى من تبعيته للمليكه، وكان هذا الأخير بدوره أضعف من إستعادة ماسلبه منه قائده. فضلا عن ضياع لارسا من سطوته لصالح الأموريين ليؤسسوا فيها حكمهم على معبده خمس وعشرين ميلا من أور.

وهكذا أنحسر نفوذ أيبى سين وإمبراطوريه أور فى العاصمة أور نفسها ومجاوراتها القريبه جداً، فى الوقت الذى كان فيه خطر العيلاميين يتنامى ليقضى على البقية الباقية من أور وعهد آخر حكامها إيبى سين. ولم تفلح محاولات هذا الأخير الدفاعية أو الدبلوماسية فى حماية بقايا ملكة، إذ أنقض عليه العيلاميون وأعملوا فى المدينة تحريقا وتقتيلا وعادوا أدراجهم إلى بلدهم تاركين حامية صغيرة فى أور. كما ساقوا أيبى سين أسيراً إلى عيلام ليموت هناك منهيا بذلك عهد أسرة أور الثالثة نهاية ماساوية ظلت أدبيات السومريين تذكرها عبر السنين من خلال تلك القصيده التى كتبها أحد شعراء سومر وخلد فيها هذه الكارثة الوطنية.

خاتمـــة

مما لاشك فيه أن إمبراطورية أور لم تكن تقل بحال من الأحوال عن إمبراطورية أكد. بيد أن إمبراطورية أور اعتمدت على تنظيمها الإدارى القوى فى تثبيت دعائمها. وهو نظام أبقى على نظام الدولة المدينة فى جانب وكرس التبعية فى جانب آخر. وهو الأمر الذى يمكن معه القول أنه حمل فى ذاته بذور الإنفصال.

كذلك فإن الاهتمام الذى أولاه ملوك أور لصد الخطر التقليدى للمنطقة الشرقية والشمال الشرقى قد جال بأنظارهم بعيداً عن الخطر الوليد فى الغرب، وهو خطر الأموريين الذين نجحوا فى تقويض دعائم أور عندما سنحت لهم الفرصة فى وقت لم تفلح المحاولات السلمية والعسكرية فى القضاء على تهديدات المناطق الشرقية. وهكذا سقطت أوربين شقى الرحى.

بيد أنه يحسب لهذا العصر المزدهر من تاريخ الرافدين، ذلك الإنتعاش الذى شهدته البلاد على كافة الأصعدة ولاسيما الاقتصادية منها والتى أنعكست على كافة مناحى الحياة الأخرى الإدارية والعسكرية والإجتماعية والفنية.

وعلى أيه حال، فبسقوط أور تدخل مسيرة تاريخ الرافدين مرحلة جديدة يمكن أن نطلق عليها مرحلة النقلة بين مملكتى أور وبابل، وهى مرحلة تعاظم فيها دور دويلات المدن المستقلة عن حظيرة نفوذ مملكة أور، مثل أيسين (مارى) ولارسا وأشنونا، حتى بداية حكم مملكة بابل الأولى. وتمثل مرحلة النقلة هذه موضوع الفصل التالى.

الفصل الخامس

مرحلة النُقلة منذ سقوط أور
وحتي بداية العصر البابلي القديم



الفصل الخامس
مرحلة النقلة منذ سقوط أور
وحتى بداية العصر البابلى القديم

تقديم

ذكرنا فيما سبق أن دويلات عصر النقلة قامت قائمتها أبان نهايات دولة أور، ومثل ظهورها ثم إستقلالها أحد تداعيات القضاء على مملكة سلالة أور الثالثة. ليحل محلها مملكتى أيسين ولارسا الجنوب، وآشور واشنونا فى الشمال. وقد تعاصرت هذه الممالك بشكل متفاوت خلال قرنين من الزمان، حيث بدت ملامحها المستقلة وصراعاتها فى القرن الأول منهما، فى حين تقلص دورها بدرجات متباينه أمام ظهور قوة بابل الناشئة. ومع نهاية القرن الثانى ظهر نجم حمورابى ساطعا فى المنطقة ليطوى صفحة هذه الدويلات التى صاغت تاريخ تلك الفترة.

أولا - فى الجنوب

بالرغم من تزامن قيام كل من المملكتين، إلا أن دور إيسين بقيادة مؤسسها إشبى إرا قد تبدى واضحا على غريمتها لارسا. وهو الأمر الذى إستمر لقرن من الزمان قبل أن تبدأ لارسا فى إيجاد موطأ قدم لها فى معترك دويلات المدن.

وهكذا بسط أشبى أرا سطوته على نفرو أورورك وأريدو بالإضافة لمدينتى ايسين ومارى. وإنتحل لنفسه صفات الألوهية ولقب ملك سومر وآكد. بل ونجح فى أخريات عهده من التخلص من الحامية العيلامية فى أور بعد حرب

مجهولة التفاصيل وإن نجح من خلالها فى كسر شوكة عيلام وضمان عدم تعديها على مدن العراق الجنوبية لفترة ليست بالقصيرة. لاسيما وأنه عزز أنتصاره بتعزيز الوسائل الدفاعية من ناحية وتوطيد أواصر العلاقات السلمية لاسيما التجارية مع جيرانه. وهى صلات توّجها ودعمها بتمسكه باللغة السومرية كلغة رسمية لدولة نفوذه.

ولعل تلك التدابير السالفة قد حقت لصاحبها أن يصف نفسه بأنه «ليس له منافسون»، وهو تعبير يؤكد على جهوده الموفقة وإصلاحاته لإعلاء شأن مدينته وتوابعها من المدن المجاورة من ناحية. كما يؤكد على حقيقة أن لارسا المنافس الرئيسى لايسين قد قنع حاكمها نبلا نوم بحكمه لمدينته كمؤسس لأسرة أموريه بها.

ولقد قضى إيشبى أرا نحبه بعدما حكم لاثنين وثلاثين عاما، ليخلفه ولده شوايليشو الذى حكم لحوالى تسع سنوات، ثم إيدين داجان الذى حكم لعشرين عاما خلفه بعدها إيشم داجان الذى ظل على عرش لارسا لثمانية عشر عاما، ويمثل حكم هؤلاء الثلاثة مرحلة غير متميزة مقارنة بمؤسس هذه الأسرة ثم من تلاهم وهو لبث عشتار.

أما عن إنجازات هؤلاء الملوك الثلاثة فتشمل عمليات توطيد دعائم ملك إيسين، فمدوا حملاتهم العسكرية والسلمية نحو إنشان ثم سيبار فضلا عن مدن أوروك وإريدو ونيبور، الأمر الذى مكنهم من توسيع حدود المملكة لتمتد من الخليج العربى حتى منطقة بغداد الحالية على طول مسار الفرات؛ الشريان الحيوى لسومر. ولقد إنتحلوا لأنفسهم تبعا لذلك ألقاب «ملوك أور، ملوك سومر وأكد».

ولقد تعززت التحصينات الدفاعية على عهودهم أمام العيلاميين بل والأموريين، حلفاء الأمس القريب، حيث فرضوا على قبائلهم الضرائب. كما يحسب لهم إعادة العلاقات التجارية التقليدية مع دلمون. ولقد أثرى الحياة

الفكرية والأدبية على عهدهم تمسكهم باللغة السومرية، لغة رسمية للدولة، بحيث أضحى كل شئ فيها سومريا عدا حكامها.

وعلى أيه حال، فقد تولى بعد إيشم داجان، الملك لبت عشتار الذى يعتبر عهده بسنواته العشر متميزا عن سابقية لسببين؛ أولهما تشريعاته التى ميزته عن أقرانه. وثانيهما تحول سياسة لارسا إلى المناوءة وعدم الأكتفاء بدورها السلمى على عهد حاكمها جانجونوم.

فالنسبة لإنجازة التشريعى والمدون باللغة السومرية، فقد بقى منه حوالى ثمان وثلاثون مادة، بدأها كاتبها بمقدمه عن الملك والقابة وأرتباطه بالأله أنليل. فضلا عن صفاته التى تتأبى على الفساد مما جعل إختياره لإسعاد المدن السومرية حتما إلهيا ورغبة مقدسة من قبل الالهة المعبودة.

ثم تناولت المواد فى المجمل تقنينا لأوضاع العبيد وأساليب تحريرهم وهو أمر لم يتناول فى تشريعات سابقة كما تناولت مسألة ملكية الأراضى الخاصة والحكومية ومايتعلق بها من ضرائب وتعويضات، فضلا عن إستخدام الأدوات الزراعية والحيوانات المؤجرة للأعمال المختلفة. كما تناولت أيضا قضايا الأحوال الشخصية من زواج وميراث لأبناء الحرائر والجوارى، وغيرها من الأمور التى ألقت الضوء على طبيعية المجتمع أنذاك.

أما فيما يتعلق بالعلاقة مع حاكم لارسا الطموح جانجونوم، والذى حكم لارسا لست وعشرين عاما، فلقد كانت بداية العلاقة بين المدينتين المتنازعتين فاتحه لسلسلة من التداعيات والصراعات التى أفضت لتغيير موازين القوى على الساحة. ذلك أن طموح جانجونوم قد دفعه لإنتزاع عدة مدن من مملكة إيسين، حيث بدأ نشاطه العسكرى بتأديب قبائل جبال زاجروس ثم تفرغ منذ عامه الثامن لتقويض مملكة إيسين مستوليا على المدينة تلو الأخرى. فقد بدأ بمدينة أور ثم تلتها لجش ثم سوسه وربما أوروك، لينصب نفسه

حاكما على بلاد سومر وأكد. أو بالأحرى حاكما على النصف الجنوبى للعراق ومتحكما فى تجارة البلاد الخارجية المطلة على الخليج العربى.

ولقد كانت تلك الضربة جد موجعة لمملكة لارسا التى شهد عرشها كما من الصراعات وإغتصاب العرش بشكل شبه متوالى، بدأ ضد لبت عشتار نفسه الحاكم المسالم وعلى يد أورنورتا الذى حكم لسبع وعشرين عاما أشتهر فيها بالشدة والصرامه بل وتأليه ذاته. وهى أمور تتسق وطبيعة ظروف توليه العرش وبالتالى توطيد مكانته. ولقد تبعه ثلاثة حكام لانعرف الكثير عن إنجازاتهم وإن كان لثالثهم إيرا - إيميتى قصة تستحق الذكر لأهميتها فى فهم طبيعة ظروف حكم من اعتلوا عرش ايسين بعد لبت عشتار.

تستند القصه على مبدأ غريب فى الأعراف الملكية لبلاد الرافدين يعرف بمبدأ «الملك البديل». وفيه يتم إختيار شخص من العامة لينصب على عرش المملكة لحوالى مائة يوم بدلاً من الملك الأصلى وذلك فى حالة استشعاره بخطر محدق به أو بغضبه إلهية عليه، ثم يسترجع عرشه مرة أخرى بعد قتل الملك البديل. ومن ثم، فلقد وقع الإختيار على بستانى يدعى أنليل بانى عوضا عن إيرا إميتى.

بيد أن هذا الأخير قد لقى حتفه مغتالا بدس السم فى الحساء، ليموت مسموما. وليجدها أنليل بانى فرصه للإستيلاء على العرش فعليا، وهو ماجعل معظم المؤرخين يشيرون إليه بأصابع الإتهام فى إغتيال مليكه ليس طمعاً فى العرش فى المقام الأول ولكن إنقاذاً لحياته أولاً.

والواقع، فلقد أغرى اضطراب الأمور فى إيسين، حاكم لارسا سموئيل ثانى حاكم بعد جانجونوم من تقليص نفوذ إيسين بالإستيلاء على مدينة نفر، لتصبح حدود المملكة مقتصرة على مدينة إيسين ومجاوراتها فحسب. وقد أستمر خليفتيه نورآداد وسين أدينام خلال مدة حكمها، حوالى ٢٢ عاما، على

على نهج ذات السياسة بالاتجاه شمالا واحتلال المدينة تلو الأخرى. وفى ذات الوقت كان انليل بانى مشغولا تبأليه نفسه وتوطيد عرشه المغتصب.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن عند هذه المرحلة من حكم كل من أسرتى إيسين ولارسا بدأت الظروف السياسية تتغير بظهور قوة بابل التى حجمت زحف لارسا شمالا، وظهور قوة الأموريين واجتياحهم المدن السومرية فىَ كيش وأوروك بعدما تدفقوا بأعداد هائله عبر الفرات ليزيدوا من متاعب ايسين وينجحوا حوالى عام ١٨٩٤ ق.م. من إتخاذ مدينة قرب كيش مقرا لحكمهم، وهى مدينة بابل (ومعناها باب الاله) وذلك على يد شيخهم سومو آبوم.

وهكذا ظهرت على مسرح الأحداث دولة ناشئة جديدة فى بابل ظل حكامها منذ نشأتها أى فى مرحلة ما قبل حكم حمورابى ولحوالى قرن من الزمان – على سياسة العنف تارة واللين تارات أخر حيال المدن السومرية، وإن فشلوا فى ضم مدينة نفر الدينيه.

كذلك فقد كانت هناك عودة على الساحة لتهديدات العيلاميين الذين إستغلوا صراع بابل مع لارسا ونجاحها فى قتل سيلى آداد ملك لارسا، ليتوج زعيم العيلاميين أحد أولاده واراد سين حاكما لارسا. ثم تبعه أخوه ريم سين الأول الذى نجح فيما لم ينجح فيه ملوك لارسا الأصلاء. فقد توج تصديه لبابل وهزيمتها غام ١٧٩٤ ق.م. بإحتلال مدينة إيسين واسقاط عدو لارسا التقليدى فى هذه المرحلة التاريخية. بيد أن مصيرها النهائى قد حسمه ظهور حمورابى على عرش بابل.

ثانيا - فى الشمال :

ماثل دور إشنونا فى الشمال كدويلة طموح دور إيسين فى الجنوب، كما تماثل قدرهما فى وقوف قوى خارجية للحد من طموحاتهما الخارجية. وإشنونا الواقعة بين نهر دجلة وشرقى نهر ديالى بعشرة أميال هى موقع تل الأسمر الحالى، وكانت تتضمن مدن تل حرمل وخفاجى وتل الضباعى وشجالى ضمن دائرة سيطرتها. ولقد خول لها هذا الموقع أن تكون حلقة إتصال بين شمال العراق وبلاد عيلام كما كان لها حضور تاريخى من عهد حكم إيبى سين من سلاله أور الثالثة، كدويلة مستقلة إتخذ ملوكها الأوائل من التدابير ما عبروا به عن هذا الإستقلال. فقد حملوا لقب «خادم الآله تشباك» وألهوا ملكهم وحصنوا عاصمتهم وجعلوا من اللغة الأكدية هى اللغة الرسمية للدولة. وجعلوا من تل حرمل مركزا إداريا هاما لتوسعاتهم الممتدة لأبعد من كركوك شمالاً.

وهكذا بلغت أشنونا شأواً عظيما فى غضون مالايقل عن ثمانين عاما هى مجموع سنى حكم أربعة من أوائل ملوكها. حتى إذا ما أعتلى بيلالاما العرش كخامس ملك لها، كانت قد بلغت أوج أزدهارها فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخها. ويعزى لهذا الملك ألواح التشريعات التى عثر على نسخة منها فى المركز الإدارى بتل حرمل للرجوع إليها عند تقييم النواحى التنظيمية للدولة. وهذه التشريعات تعد المحاولة الثانية أو ربما الثالثة بعد أور ولجش فى سلسلة تشريعات حكام بلاد الرافدين. وماتبقى منها حوالى إحدى وستون مادة مقسمة إلى مجموعات قوانين: الأولى تتعلق بتحديد أسعار السلع الأساسية كالشعير والزيت والملح والنحاس، والثانية تتجه إلى تحديد أسعار العمال وأجورهم وكذا أجور وسائل النقل المختلفة البرية والنهرية. فى حين خصصت المجموعة الثالثة للجرائم وعقوباتها. وتكفلت الرابعة بالأحوال الشخصية

والعلاقات الإجتماعية. وقد عاب هذه التشريعات فى المجمل إنها ميزت طبقة الأحرار على طبقة العبيد تمييزاً مجحفا.

وعلى أيه حال، فلقد تعرضت أشنونا لفترة ضعف بعد عهد بيلالاما، وذلك على عهد خلفه أزوزوم إذ فقدت أجزاء من ممتلكاتها على يد حاكمى مدينة دير (حوالى ٦٥ ميلا من تل الأسمر) وكيش. بيد أن الأمر عاد سيرته الأولى من التوسع على يد سابع حكامها ورائد نهضة أشنونا الجديدة الملك أبيق آداد الأول وذلك حوالى عام ١٨٥٠ ق.م. حيث مد سلطانه على عده مدن تقع على مجارى أنهار دجله الفرات والخابور، وهى مواقع كفلت له - حسبما يذهب جورج رو G.Roux - «الهيمنه الكاملة على وادى دجله والجزيرة العليا وسفح جبال كردستان فضلا عن تأسيس رأس جسر على الفرات لتأمين سيطرته الفاعلة على طرق التجارة الكبرى الواصلة فيما بين الشمال والشرق وعاصمتهم تجاه سوسة».

ويبدو أن طموحات أشنونا فى تلك المرحلة قد توقفت عندهذا الحد، لأن القوى الكبرى التى أحاطت بها مثل مارى غربا، وبابل ولارسا شمالا لم تكن تسمح لها بالمد التوسعى لأكثر من ذلك، وقد زيدت على هذه القوى ظهور قوة جديدة من عهد خلف، أبيق آداد الأول، المدعو شيقلانوم، ألا وهى قوة آشور.

وجدير بالذكر أن مدينة آشور قد حظيت بالذكر على مسرح الأحداث التاريخية منذ عصور فجر السلالات ووصفت المصادر حكامها بالعيش فى الخيام بما يشير لطبيعتهم القبلية وتبعيتهم للمدن السومرية لردح من الزمان. بيد أن تميز موقعها بمكانه استراتيجية بوقوعه فوق مرتفع يطل على نهر دجله بما كفل له حماية طبيعية، وكذلك أشرافها على الطريق الواصل بين سومر وإكد من ناحية كردستان من ناحية أخرى، كل ذلك قد هيأ لها إمكانية تكوين كيان سياسى بين المدن الشمالية لبلاد الرافدين.

ويحسب لبوزور آشور الأول السبق في أعلاء كلمة آشور بين أقرانها، وهو الأمر الذى يدرك قيمته إذا ماعرفنا أنه تعاصر مع أحد حكام المدن الكبار وهو إيبق أداد حاكم أشنونا العظيم. وقد نجح هو وخلفه فى الحفاظ على كيان آشور حتى أعتلى عرشها إيليو شوما. وهذا الأخير قد شهد إعتلاء أول حاكم لمدينة بابل المستقلة المدعو سومو - ابوم، ورغم تموج المنطقة بهذه القوى الناهضة إلا أنه نجح فى توسيع رقعة مملكته لستين ميلا شمال آشور حيث مدينة نينوى، كما توغل جنوبا وناوأ ملك إيسين على عهد مليكها إيشى - داجان.

بيد أن توالى الهجرات الأمورية على شمال العراق قد أسفر عن تهديد لوضع آشور، لاسيما بعد نجاح أحد قادة أمورو فى تأسيس دويله له فى مدينة مارى (تل الحريرى) وهو الملك ياجيد ليم. وقد صاغت أحداث ممالك أشنونا وآشور ومارى المتشابكه تاريخ هذه المرحلة حتى بزوغ نجم حمورابى فى بابل. وهى أحداث ملخصها توسع مملكة اشنونا على عهد ملكها نارام سين، فى حين أعتدت آشور على مارى لولا مساعدة حاكم إشنونا وخليفة نارام سين المدعو دادوشه، لحاكم مارى زمرى ليم الذى استعاد مارى من قبضة آشور. ذلك أن هذه الأخيرة كانت قد توسعت على حساب جاراتها على عهد أحد أعظم ملوك آشور وهو شمش أداد الأول الذى حكمها لحوالى إثنين وثلاثين عاما.



لوحة رقم (١٨)

نقش للملك زمرى ليم من مارى يصوره أماالالهه عشتار وبعض الآلهه الأخرى

ولقد بسط شمس آداد الأول نفوذه على وادى دجله الأوسط وآشور ثم عرج غربا عبر لبنان حتى ساحل البحر المتوسط. مقلصا نفوذ اشنونا على بعض مناطق نفوذها، كما ضم مارى لحظيرة ملكة ليحكم بذلك قبضته على شمال بلاد الرافدين بالكامل.

ولقد خلفه إبنه أشمى داجان على عرش آشور ولم تسعفه الظروف للحفاظ على ملك والده رغم ما عرف عنه من شراسه في ساحات القتال. إذ نهضت أشنونا من كبوتها على يد دادوشه وظلت تناوى نفوذ آشور التى كانت ترد هى الأخرى بمناوشات مضادة، دون أن يفطنا للخطر الآتى من بابل على يد «رجل بابل» حمورابى حسبما تصفه المراسلات الرسمية للحكام الآشوريين آنذاك والذى أقدم بالفعل على إبتلاع دويلات المنطقة الواحدة تلو الأخرى مؤسسا إمبراطورية بابل الأولى وكأحد أعظم الحكام الذين عرفهم تاريخ العراق القديم.

ثبت بالملوك الرئيسيين لممالك مدن الرافدين في مرحلة النقلة وحتى عصر حمورابي

إيسن	لارسا	بابل	أشنونا	آشور	ماري
إيشبي إرا (٢٠٠٠ ق.م.) – شو إيليشو – إيدين داجان – ايشم داجان – لبت عشتار – أورنينورتا – بورسين (١٩٠٠ ق.م.) – لبت أنليل – إيرا إيميتي – أنليل باني – زامبيا – ايتر بيشا – أوردو كوجا – سين ماجير – ديمق ايليشو (١٨٠٠ ق.م.)	نبلانوم – إيمي سوم – ساميوم – زابايا – جونجونوم – أبي سار – سومائيل – نور آداو – سين ايديام – سين ايريام – سين إيقيشام – سيلي آداد – واراد سين – ريم سين الأول – ريم سين الثاني	– سومو أبوم – سومو لائيل – سابيوم – أبيل سين – سين موباليط – حمورابي (١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م.)	ايتوريا – ايشوايليا – نوراهام – كيريكيري – بيلالاما – أزوزوم – أبيق آداد الأول – شيقلانوم – عبدي ايراه – بيلاكوم – واراسا – ايبال بي ايل الأول – ابيق آداد الثاني – نارام سين – دادوشه – ايبال بي إيل الثاني	– بوزور آشور الأول – شاليماهو – ايليو شوما – ايريشوم الأول – أيكونوم – سرجون الأول – بوزور آشور الثاني – ايريشوم الثاني – شمسي آداد الأول – ايشم داجان	– ياجيد ليم – ياحدون ليم – يسم آداد – زمري ليم



الفصل السادس

العصر البابلي القديم



الفصل السادس

العصر البابلى القديم

تقديم

إن تناول الأحداث التى شهدتها أرض الرافدين خلال العصر البابلى القديم يستوجب منا توخى الدقة والحذر فى طرح المعلومات عن العلاقات التى ما تلبث أن تتضح معالمها حتى تتشابك ليكتنفها الغموض لقله المصادر أو لكثرة الفجوات التاريخية فى تسلسل الأحداث. كذلك فإن وجود سبعة أو ثمانية أسرات تنتظم تحت مسمى العصر البابلى القديم يصعب من مهمة الباحث للأسباب سالفه الذكر، لأنها لم تقم جميعها فى بابل. ومن ثم أصبح أرتباطها بالمسمى أرتباطا أصطلاحيا ينضب على مسمى العصر برمته وظهورها خلاله.

وعلى الرغم من تميز الأسرة البابلية الأولى ودولتها عما تلاها من أسر حاكمه، إلا أن عصر هذه الدولة البابلية أو الأسرة البابلية الأولى يقتضى منا - وفقا لمتطلبات البحث - والدراسة تقسيمه داخليا إلى مراحل ثلاث أساسيه. هذه المراحل بمثابة خط بيان لتطور هذه الدولة التى يقف على قمة خطها البيانى مرحلة عصر حمورابى. يسبقه عصر ما قبل حمورابى ثم أخيراً عصر خلفاء حمورابى.

وهو تقسيم يطرحه الباحث لتفسير عملية فهم تطور الدولة البابلية الأولى من مجرد مدينة دوله إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، أرتفعت فيها بابل إلى مرتبة المدينة - العاطمة. كما أن التقسيم يوفى فترة حكم أعظم ملوك هذه الأسرة وهو حمورابى حقها من العرض والبيان والتى عدت بحق عصراً منفرداً بذاته وليس عهداً، مثلما الحال تماما عندما نتناول فترة حكم رعمسيس الثانى فى مصر الفرعونية والتى تعتبر عصراً منفرداً بذاته فى إطار عصر الرعامسة بعامة.

أولا – الدولة البابلية الأولى

١- عصر ما قبل حمورابي

شهد هذا العصر بداية نشأة بابل المدينة الدولة على يد الأموريين إبان المرحلة التي تلت سقوط أور. ويعزى هذا الإنجاز لمؤسس الأسرة وأول حكامها الملك سومو أبوم الذى حكم ثلاثة عشر (١٨٩٤-١٨٨١ ق.م.) نجح خلالها فى أحكام تحصين بابل وتسويرها فضلا عن الإهتمام بمعابدها. أما على المستوى الخارجى فقد بسط سيطرته على بعض المدن المجاورة مثل سيباروكيش وغيرهما.

أما خليفته سومولا ايل فقد ساعده حكمه الممتد لخمس وثلاثين عاما (١٨٨٠ – ١٨٤٥ ق.م.) من إنجاز العديد من الإنجازات على الصعيدين الداخلى والخارجى حتى عدة بعض الباحثين المؤسس الحقيقى للدولة البابلية. تشهد على ذلك مشروعاته فى شق القنوات وإنشاء المعابد وتجديد تحصينات المدينة.

أما على الصعيد الخارجى، فقد قمع تمردا بزعامة كيش، فضلا عن ضمه لمواقع جديدة إتسمت بأهميتها الإستراتيجية أو الدينية مثل منطقة نفر وحصن دور زكار بنيبور وأربعة قلاع أخرى مثلت خط دفاع شمالى للمملكة.

وتشير نصوصه إلى نشرة العدالة فى ربوع مملكته الأمر الذى فسره البعض بإحتمال وجود قانون من عهده لم تصلنا أحكامه بعد، وإن كان الأمر فيما نرى قد لايعدو كونه إشارة لطبيعة حكمه وأسلوبه.

وعندما قضى نحبه خلفه ولده صابيوم الذى حكم لحوالى ثلاثة عشر

عاما (١٨٤٤-١٨٣١ ق.م). سار فيها مثله مثل خليفتيه أبيل سين (١٨٣٠-١٨١٣ ق.م.) وسين موباليط على نهج سابقيهم. إذ أهتموا بمشروعات الرى وشق القنوات، كما شيدوا المعابد والحصون، ووأدوا الفتن التى حاقت بمملكتهم الممتدة فى دائرة قطرها حوالى خمسون ميلا تمتد من سيبار إلى ماراد (من الفالوجة إلى الديوانيه الحالتين).

بيد أن أهم ما شهد عصرهم من أحداث هو نجاح العيلامين فى تنصيب أنفسهم ملوكا على لارسا، بحيث نجحوا فى إسقاط عرش أسرة إيسين وضمها لملكهم - حسبما ذكرنا سلفا - على عهد ملكها ريم سين الأول وكان ذلك عام ١٧٩٤ ق.م.، حيث كان يحكم بابل آنذاك سن موباليط والد حمورابى الذى خلفه بعد عامين من سقوط ايسين.

٢- عصر حمورابى (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م.±)

عندما تولى حمورابى حكم مملكة بابل خلفا لوالده، كانت منطقة الشرق الإدنى تموج من حوله بقوى مختلفة المشارب، متفاوته القوى. فالجنوب تبرز فيه مملكة لارسا بقادتها العيلاميين الذين تحالفوا مع حاكم أشنونا مشرقا. أما شمالاً فكانت آشور بزعامه شمش أداد الأول سيدة الموقف على مارى وغيرها من مدن الشمال.

ولم يكن حمورابى (واسمه منسوب للأله السامى حمو؛ ومعناه الاله حمو العظيم) أرعن الشخصية، بل كان سياسيا فذا، لم يلق بنفسه فى آتون الصراع فور توليه الحكم. بل على العكس فقد تبنى سياسة سلمية أظهر فيها روحا طيبة لملك آشور. وشرع خلال السنوات الخمس الأولى من حكمة الممتد لاثنين وأربعين عاما فى توطيد دعائم ملكه داخليا قبل البدء فى تحقيق هدفه الأسمى وهو توحيد العراق تحت سيطرته. وهذه الجهود على أيه حال،

لم تتعدى إنشاء المعابد أوشق القنوات فضلا عن تجديد التحصينات التقليدية بعاصمة المملكة.

وجدير بالذكر، أنه من الصعوبة بمكان التعرض لسياسته الداخلية والخارجية على حدة ذلك أنه منذ بدأ نشاطه العسكرى وكل منطقة يضمها فى إطار ملكه تنصب عليها جهوده فى الإصلاحات الداخلية والتى كان قوامها بالطبع تشريعاته التى سنلقى عليها الضوء بعد إستعراض نشاطه العسكرى المسجل وفقا لسنى حكمه وتكوينه لإمبراطوريتة الموحدة المدينة بعد الأخرى والعام تلو الأخر.

فمع بداية عامه السادس ١٧٨٧ ق.م. خاض حمورابى حروبا خاطفة محددة الأهداف نجح فيها فى ضم الوركاء ومن بعدها ايسين، ثم أعقبها بعد ثلاث سنوات بتدمير مالجوم ورابيقوم شمال سيبار فى العام العاشر من حكمه. ويبدو أنه آثر الاستكانه لفترة قاربت العشرين عاما حتى لايعجل بالصدام مع قوة آشور التى ظل يعترف لقائمها شمش آداد الأول بالسيادة، شاغلا نفسه ببناء المعابد وتحصين المدن وشق القنوات فضلا عن إعداد العدة للمرحلة التالية من هجومه.

شملت العمليات العسكرية لهذه المرحلة الثانية من توسعاته نجاحة فى الإستيلاء على لارسا، بعد نجاحه ببصيرته السياسية النافذة فى إستقطاب مدينتى أشنونا ومارى لصفة ضدها، بعدما كان كل هؤلاء يشكلون تحالفا بقيادة عيلام. وكان ذلك حوالى عام ١٧٦٢ ق.م. وليصبح بهذا النصر ملك سومر وأكد بحق.

وجدير بالذكر أن طبيعة العلاقة وتحولاتها بين حمورابى ولارسا على عهد حاكمها ريم-وسين سوف تعطينا مؤشرا واضحا لأسلوب الملك البابلى فى التعامل مع الحكام المحيطين به. فكل الشواهد التاريخية تشير إلى إنقضاضه

على حلفاء الأمس بادءاً بمملكه أشنونا حوالى عام ١٧٦٣ ق.م. وبمساعدة حاكم مارى زمرى ليم. فى حين أستند حاكم أشنونا على تحالفه مع مملكة عيلام. وقد إنتهت هذه التكتلات بانتصار حمورابى على أشنونا ولكنه أخر ضمها حتى ينهى ضم مملكة حليف الأمس زمرى ليم، وهى مملكه مارى.

وربما يرجع هذا الزحف الأخير لمملكة مارى من قبل حمورابى، إلى محاولة الأخير تقليم أظافر هذه المملكة التي رغم عمق علاقاتها معه إلا أن علاقاتها مع مملكة حلب ذات الثراء والرخاء الاقتصادى قد جعل حمورابى يسبق أيه محاولة لعقد تحالفات جديدة بين مارى وحلب بما يؤثر على وضعه السيادى فى المنطقة من ناحية، ويخل بالتوازن فى موازين القوى من ناحية أخرى.

وبعد ضم حمورابى لمملكة مارى ضمن مملكته تشير المصادر إلى أنه قد عانى من بعض القلاقل التى حاولت شق عصا الطاعة على حكمه بالرغم من تركه زمرى ليم على عرشه مع ضمان التبعية. ومن ثم، هاجم مارى مرة أخرى بعد عامين من الهجمة الأولى وكان هجوماً كاسحا عمد فيه إلى هدم أسوار المدينة وتحريق قصر زمرى ليم، جاعلاً من المدينة التى كانت عاصمة للفرات الأوسط أثرا بعد عين.

بيد أنه فيما بين غزوتيه لمارى كان قد تخلص من تهديد ملك أشنونا لأطماعه التوسعية، إذ كان هذا الأخير قد عقد حلفامع الجوتيين ومالجوم وآشور. ولقد نجح فى هزيمة أشنونا بعد ما حول المياه عن المدينة. وبعدها دانت له منطقة سوبارتو (آشور) وكذا نينوى، حيث دعم سلطانه هناك بنشر الحاميات فى أركان المنطقة، كما إمتد نفوذه غربا حتى الحدود السورية.

وهكذا فى غضون عشرين عاما كانت ممالك الرافدين قد دانت بالولاء والسيادة لبابل، التى أصبحت بدورها عاصمه لمملكة جديدة موحدة بقيادة

حمورابى. وقد ترامت أطراف هذه المملكة ممتدة من مارى وتوتول غربا ومن آشور ونينوى عبر دجله وبامتداده جنوبا لأور وأريدو وجرسو. وهى الأسماء التى ترددت فى مقدمة قانون حمورابى الشهير فى قائمة تم فيها ترتيب المدن الخاضعة له ترتيباً يتفق ومكانتها الدينية وليست الإدارية. كما أنها تتفق والألقاب التى إنتحلها حمورابى لتغطى إتساع مملكته فهو «الملك العظيم، ملك بابل، ملك كل بلاد امورو، ملك سومر وأكد، ملك الجهات الأربع».

وتجدر الإشارة قبل أن ننهى مجهوداته العسكرية الخارجية إلى القول بأن هذه السياسة العسكرية لم تكن - كما رأينا - مطلقه، بل غلفها حمورابى بين الحين والآخر بعلاقات سلمية كفلت له مهادنة بعض المدن ضمانا لتحييدها، أن لم يكن للتحالف معها. ولقد لعبت السفارات الدبلوماسية فى هذا الصدد دوراً مشهوراً فى نقل المراسلات والتى كانت تتضمن فى فحواها أيضا الإستخبارات عن أحوال المدن التى يقيم فيها السفراء.

أما عن سياسة حمورابى الداخلية فقد قامت على أساسين رئيسيين مثّلا وجهى العمله فى إحكام قبضة العاصمة على ممالك الدولة المترامية الأطراف، وهى الجانب الإدارى والجانب التشريعى. وبالنسبة للجانب الإدارى فقد أستهدف فى المقام الأول تثبيت دعائم الوحدة السياسية على أساس من المركزية المطلقة التى تربط حكام كل المدن التابعة له بالعاصمة بابل. ولعل هذا النظام قد قلص من نفوذ الحكام الكهنة الذين حملوا لقب «أنسى»، جامعين بين السلطتين الزمنية والدينية، بحيث أصبح الحاكم فى النظام الجديد مدنيا صرفا يستمد أوامره من الملك. الذى جمع فى يده كل مقدرات السلطة سياسيا واقتصاديا. وقد توفر على هذا النظام مجموعة من الموظفين كانوا بمثابة حلقه الوصل بينه وبين حكام المدن. وهؤلاء الموظفون كانوا يخضعون لإشراف مفتشين.

ولعل من نافلة القول، أن نذكر بعض الأمثلة على دقة هذا النظام وجمعه كل الأمور فى قبضه حمورابى. إذ تشير بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين موظفيه من حكام المدن إلى كمية المنصرف من مخازن الدولة لهم من بعض المواد التى تقدموا بطلبها مثل الأخشاب. وكيف أن موافقه حمورابى قد إشتملت على كم ومواصفات الكمية المنصرفة. كما تضمنت بعض هذه الرسائل أوامر تتعلق بتنظيم التقويم أو بث رجال إستخباراته أو الشروع فى التحقيق فى قضية ما، أو الفصل بين التجار فى منازعاتهم. فضلا عن توجيهاته باستصلاح الأراضى أو فتح قنوات جديدة أو إصلاح القديم منها.

وفى المجمل فإن هذه الرسائل إنما تعطينا صورة واضحة عن رغبة حمورابى ليس فقط فى جمع كل خيوط الإدارة تحت يديه فى مركزية ممعنة التركيز، بل وفى إشعار الحكام التابعين له بهذه الرغبة أو بالأحرى هذا الأمر الواقع. وقد استلزم تطبيق هذا الهدف إقامه شبكة إتصال بين تلك المدن قوامها نظام العدائين السريع والمعروف بنظام "day to day running"، وكان الموظف فيه يسمى «مارشبرى». وفيه كان يقوم أولئك العداءون بحمل الرسائل المراد توصيلها والعدو بها وفق محطات محدده قسمت إليها مناطق الدولة. ويتم تسليم الرسالة من عداء إلى آخر حتى تصل إلى كاتم السر فيفض ختمها ويتلوها على مليكه ثم يعد الرد للعودة به إلى حيث يراد ارساله. وإن كان هذا النظام لم يغفل بالطبع منح بعض الاختصاصات الثانوية لمجالس المدن كالفصل فى القضايا الصغرى أو جبايه بعض الضرائب.

وتوكيدا لتحقيق الهدف الوحدوى المنشود لأجزاء إمبراطوريتة والذى يعزز تدابيره الإدارية، عمد حمورابى إلى توحيد البلاد ثقافيا وفكريا وعقيديا وذلك بنشر المدارس فى المدن الكبرى مع توجيه رجاله إلى جمع عيون الأدب السومرى وقوائم الأرباب والملوك وإعادة تدوينها. كما وجه عنايته إلى الإله

الرسمى للدولة وهو الإله مردوك (مردوخ) إله بابل، الذى ترد إليه عناصر الخلق جمعاء من سموات وأرض وكافه المخلوقات ليحل بذلك محل الالهة التقليدية لسومر فى هذا الصدد. وليعطى بذلك أحد أوضح الأمثلة على التحولات العقائدية المرتبطة بالتحولات السياسية.

وتجدر الإشارة إلى أهمية الجيش فى تنظيمات حمورابى الإدارية، حيث جعل التجنيد إجباريا وفرض عين على كل فرد قادر على «الذهاب فى طريق الملك» وهو التعبير الإصطلاحى للجندية.

وتعادل النجيش فى أهميتة الحياة الدينية والتى أشرف عليها حمورابى أشرافاً مباشراً بحيث جعل مخصصات المعابد ومقدراتها الاقتصادية تحت أمرته المباشرة وذلك من خلال التقارير التى كان يرسلها له مندوبوا التاج المشرفين على أملاك المعابد.

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد، إلى أنه من الصعب على الباحث تحديد سمه التوازن بين اقتصاديات القصر الملكى والمعبد وكبار رجال الدولة. بيد أنه بعامه يمكن القول أن القصر الحاكم كان أهم ملمح فى مدن الإمبراطورية البابلية، وأن تعاظم السلطة الملكية لم يتأتى بحكم كون الملك الكاهن الأعلى للاله المعبود ولكنه تأتى من تعاظم السلطة الزمنية التى تمتع بها الملك. وهو الأمر الذى أنعكس بدوره على تلك الألقاب المدنية التى كان يتحلى بها الملك برغم التوكيد على الإدعاء الدائم بكونه يحظى برعاية الإله ومساندته.

ولقد أنعكس بالطبع تنامى السلطة الزمنية على المقدرات الخاصة للأفراد فى مجالات الزراعة والتجارة والصناعة وهو مايفسر كثرة المصادر التى ترجع لذلك العصر والتى تحتوى على كمية هائلة من العقود وصكوك الملكية والإيجارات وغيرها من مظاهر التعاملات الخاصة التى تشير لحجم ملكية الأفراد على حساب المعابد.

أما الأساس الثانى الذى إستند عليه حمورابى فى تحقيق الوحدة فهو المعروف إصطلاحاً «بقانون حمورابى» أو «تشريعات حمورابى». ولسوف نلقى الضوء على المضمون العام لمواد ذلك التشريع ثم نعلق عليه بالتقويم والنقد.

وبادئ ذى بدء، فإن المصادر تشير إلى أن التشريع قد إشتمل على ٢٨٢ مادة عالجت عدة موضوعات متنوعة منها ماهو اقتصادى أو مرتبط بالملكية أو بقواعد تنظيم العبيد ومقدراتهم واسعارهم وأجورهم، فضلا عن الأمور العائلية. ولقد صنف بعض الباحثين هذه المواد إلى عشرة أنواع يتناول الأول منها الإجراءات المتعلقة بالتقاضى وكيفيه تنظيمها. والنوع الثانى يتعلق بالأموال وما يرتبط بها من سرقات وخطف للأطفال والعبيد. أما الثالث فتتعلق مواده بالأراضى الزراعية وما يرتبط بها من مسئوليات الفلاحين أو مشكلات الرى. أما النوع الرابع فيخص التجارة بكافة قضاياها من ديون ورهون وودائع وأماكن التجارة وطرق مواصلاتها. فى حين يتعلق النوعين الخامس والسادس بالأحوال الشخصية والعلاقات الإجتماعية من زواج وطلاق وميراث وقذف ... إلخ.. أما مواد النوع السابع فتتعلق بالقوانين المنظمة لأصحاب المهن كالأطباء والملاحين وصناع السفن وغيرهم. فى حين أختص النوع الثامن بأحكام تتعلق بالأعمال الزراعية ومتعلقاتها من دواب وعمال وآلات. ويرتبط النوع التاسع بسابقيه حيث تعلق بتحديد أجور العمال بأعمالهم المختلفة. فى حين أختص النوع العاشر والأخير بالعبيد.



لوحة رقم (١٩)

الجزء العلوى من لوحة مرسوم تشريعات حمورابى

وإذا ما حاولنا نقد وتقويم التشريع السابق فيمكن القول أن إطلاق لفظ تشريع على هذه المواد بشكل أصطلاحي إنما يرجع لعدم تضمن هذه المواد أيه وحدة موضوعية متكاملة فيما بينها، أى أن الإطلاق مجازى أكثر منه واقعى. لاسيما وأن القانون حاول تقنين الأعراف المعمول بها فى مجتمعات الرافدين بما يتلاءم والأوضاع الاقتصادية والإجتماعية الجديدة. وهذا التقنين جعل تطبيق القانون وتنفيذه فى يد الدولة دون أن يكون للفرد دور فى تنفيذه. فعلى سبيل المثال مسألة العين بالعين أو القصاص بعامه لم يكن من حق الفرد وضعها موضع التنفيذ كما كان يحدث سلفا لأنها كانت من إختصاص الدولة.

بيد أن التشريع قد أشتمل على بعض الأمور الإيجابية لاسيما تلك التى تتعلق بأحكام الزواج والطلاق، وكذا عدم دفع الضرائب طالما أن إنتاج الفرد قد تعرض لقوة قاهرة من مظاهر الطبيعة المدمرة. فضلا عن تشديد العقوبة على الطبقة الحاكمة مقارنة بالمحكومين حتى تكون قدوة لهم.

ولعل ترديد هذه العبارة، كانت هى الهدف من تشريعات حمورابى فقد شرعها... «كى تسود العدل أرجاء البلاد، وكى يقضى على الأشرار والسفلة، وكى لايستطيع الأقوياء ظلم الضعفاء». وهو هدف مثالى كان يأمل حمورابى تحقيقه فى ضوء ذلك التقسيم الطبقى للمجتمع البابلى والذى ألقى التشريع الضوء عليه فى طيات مواده. فقد كان على قمة السلم الطبقى الملك بمفرده الذى له حق التدخل فى كل الأمور، يليه ثلاث طبقات اجتماعية، الأولى طبقة الأحرار (الأويلوم) ثم طبقة (الموشكينوم) وربما تمتع أصحابها باستقلالية محددة ثم أخيرا العبيد (الواردوم). ويبدو أن أعلى الطبقات كانت أكثرها معاناه لكثرة إلتزاماتها من ضرائب وخدمة إلزامية فى التجنيد فضلا عن تقسيم ميراث الفرد فيها بين أولاده بما يؤدى إلى تفتيت الثروة إلى وحدات صغيرة.

وعلى أيه حال، فلقد أمر حمورابى بأن تسجل أحكامه التشريعية على لوحات توضع فى المعابد كشاهد أمام الأرباب على أن جلالته قد قام بمهمته كملك عادل خير قيام، وأن عدله قد وافق رغبات الآلهة. وهو إجراء حفظ لنا تشريعاته جنبا إلى جنب مع تشريعات سابقية من حكام بلاد النهرين، بما يكفل للباحث إجراء المقارنة الموضوعية اللازمة بين كل منها وهو مايستلزم بحثا منفرداً بذاته ليس مجاله هذا المقام بحال من الأحوال.

وبحلول عام ١٧٥٠ ق.م. يسدل الستار على حياة أحد أعظم حكام بلاد الرافدين، وأعظم حكام الممالك البابلية على الأطلاق، ليبدأ الشطر الثالث من تاريخ الدولة البابلية الأولى بوفاته وهو ما ذهبنا إلى تسميته «عصر خلفاء حمورابى».

٣- عصر خلفاء حمورابى (١٧٤٩-١٥٩٥ ق.م. ±)

يبلغ عدد الحكام الذين تعاقبوا على حكم بابل بعد حمورابى خمسة حكام، بلغ مجموع سنى حكمهم حوالى ١٥٥ عاما. وعلى الرغم من طول مدد حكمهم نسبياً إذ كانت أقل مدة حوالى ٢١ سنة، إلا أن أى منهم لم يكن فى مستوى حمورابى. وهو الأمر الذى ربما يرجع إلى حمورابى ذاته الذى شغلته طموحاته عن إعداد خلف له على ذات المستوى الذى وصل إليه وبما يتفق ووضع الإمبراطورية الجديدة. بما يعنى أن عدم توازى مرحلتان تكوين الإمبراطورية مع إعداد من يناسبها فى الحكم قد حمل فى طياته بذرة تفكك أوصال هذه الأمبراطورية.

ليس ذلك فحسب، بل إن السعى إلى خلق حكومة مركزية على حساب إستقلال دويلات المدن كان أحد أهم العوامل التى تنذر بتفكك هذه الوحدة التى أرتبطت دون شك بمقيمها فى المقام الأول، وهو حمورابى. أما ثالث العوامل فهو ظهور نشاط العديد من القوى على الساحة الدولية بحيث

لعب كل منها دوراً متبايناً وفقا لحجمة وطبيعة ظروفه، وكان لزاما إن تحدث العديد من التداخلات بين ملوك بابل وهذه القوى مثل الحيثيين والآشوريين والميتانيين والكاشيين والحوريين فضلا عن مصر.

ومن ثم، فلم يلبث سمسوايلونا أن يعتلى عرش بابل خلفاً لوالده إلا وبدأت حركات التمرد ضد سلطة بابل وفى عدة جبهات. فقد حاول الكاشيون مهاجمة بابل عبر مرتفعات عيلام الغربية لكنهم واجهوا دفاعاً صلداً حال بينهم وبين مبتغاهم فآثروا التغلغل فرادى بشكل سلمى وبهدف العمل. ولقد كانت محاولتهم هذه فى الواقع نذير شؤم على الإمبراطورية البابلية، وفأل حسن بالنسبة لهم حيث تمكنوا بعد ذلك من إعتلاء عرش المنطقة لفترة تزيد عن الأربعة قرون.

ولقد تبعتهم محاولة أخرى على يد أحد حكام لارسا ويدعى ريم سين الثانى، الذى فرض سيطرته على أور والوركاء حتى نجح سمسو ايلونا بعد عامين من تهديداته فى القبض عليه والتنكيل به ذبحا وحرقا. وإن ظلت آثار التمرد مستعرة لفترة بعد ذلك مما استدعى القيام بحمله تالية كانت أشد ضراوة.

وفى ايسين كانت محاولة الإنفصال على يد أيلوما - أيلو وقد ذهب نجاحه مذهبا بعيداً، إذ أسس فى المنطقة الجنوبية دولة أطلق عليها اسم «دولة بابل الثانية» أو «سلالة الإقليم البحرى» ولسوف نفرد لها جزءاً منفرداً فى تتبعنا للدول التى تعاقبت بعد «الدولة البابلية الأولى».

وفى ذات الوقت الذى تمردت فيه المنطقة الجنوبية كان سمسو أيلونا يواجه إنفصالا من المقاطعات الشمالية الشرقية عن جسم الدولة بزعامة آشور. كما تعرضت البلاد لقلاقل من بعض الجماعات الأمورية وجماعات السوتيون الذين إستهدفوا أسر الأفراد وبيعهم كعبيد.

وعلى الرغم من كل هذه القلاقل فقد وجه سمسو أيلونا عنايته خلال مدة حكمه الممتدة لسبع وثلاثين عاما للقيام ببعض المشروعات الإنشائية مثل حفره لقناتين وتجميل المعابد الكبرى خاصة فى بابل وسيبار، كما أعاد ماتهدم من أسوار المدن ودعم قلاع البعض الآخر. كما سيطر على طرق التجارة إلى سورية عبر الفرات.

بيد أنه ما أن إنتهى عهده إلا وكانت حدود مملكته قد تقلصت داخل حدود إقليم أكد بعدما فقدت أقاليمها الجنوبية والشمالية. وكان على خلفه إبى-ايشوح أن يتعامل مع الوضع القائم على هذا الأساس. بمعنى المحافظة على مابقى من الإمبراطورية المتقلصة دون محاولة إسترجاع ماضاع منها. وقد أثبت الواقع التاريخى ذلك بفشله فى إسترجاع الإقليم الجنوبى لسومر رغم إقامته سدا على نهر دجلة. كما نجح الكاشيون فى كسب أراضى جديدة بمنطقة عانة الحالية (حوالى ٢٠٠ ميل عن بابل على نهر الفرات)، رغم سماحة لهم بالإستيطان وأمتهان بعض الأعمال.

ولقد خلفه «أمى ديتانا» ثم إمى-صادوقا وأخيرا شمشو ديتانا. ولقد بذلوا قدر طاقتهم من الجهد فى بناء الأسوار وتشييد الحصون ووقف خطر مملكة الإقليم البحرى. كما رمموا المعابد وشقوا القنوات.

وتعوزنا المصادر المتعلقة بعهودهم بشكل وافر، باستثناء عهد أمى صادوقا الذى ترك لنا لوحتين تضمنت إحداهما مرسوما باسمه حاول فيه نشر العدل بين الناس وتنظيم ديونهم وضرائبهم. أما الثانية فلوحه الفأل الخاص بكوكب الزهرة والتى كانت تشير لحسن الطالع من عدمه. كما أن ما إشتملت عليه من تقاويم إنما يساعد الباحثين فى تحديد سنى الحكم الخاصة بملوك تلك الفترة بدقة.

ويبدو أن هذه اللوحة الأخيرة لم تشر إلى سوء الطالع الذى عجل بنهاية هذه المملكة البابلية الأولى، ونعنى به خطر الحيثيين القادم من الأناضول. إذ

دفع طموح هذه القوة الجديدة إلى إجتياح ماحولها مناطق بالأناضول وشمال سوريا، كما حددت القوى المناوئة لها وهى قبائل اللولوبى غرب والحوريون شرقا توجهها الجنوبى لإجتياح ما تبقى من مملكة بابل، وهو زحف أستمر لحوالى ستين عاما حتى عهد مورسيللى الأول الذى اجتاح كل ما صادفه من مدن وأعمل فيها السلب والنهب حتى وصل إلى بابل فاحتلها ونهبها ونقل ثرواتها كغنائم إلى العاصمة الحيثية خاتو ساس.

وبذلك أفل نجم الدولة البابلية الأولى وأعظم الممالك البابلية قاطبة بعدما إستمرت لثلاثة قرون، وأصبحت بابل مغنما سهل المنال أمام أيه قوة غازية بعدما أنسحب منها الملك الحيثى ربما لظروف تتعلق بأمن عرشه فى عاصمته خاتو ساس. لتقم بخروجه أسرة بابلية جديدة على يد الكاشيون، وهى الأسرة الثالثة. وإن كنا سنعرض أولا لأسرة بابل الثانية التى عاصرت سمسو ايلوما وخلفاؤه.

ثانيا – الدولة البابلية الثانية (دولة الإقليم البحرى)

عاصرت هذه الأسرة البابلية الأولى بعد وفاة حمورابى. إذ كما ذكرنا سلفا، قام مؤسسها إيلوما – ايلو عصا الطاعة على حكم سمسو ايلونا فى بابل وأسس على الشواطئ الشمالية للخليج العربى حكم سلاله جديدة فى لارسا التى أنسلخت عن جسد الدولة البابلية حوالى فى العام الثالث والعشرين من حكم سمسو ايلونا.

وعلى الرغم من إمتداد حكم هذه الأسرة لحوالى ثلاثة قرون ونصف إلا أننا نفتقد للمصادر التاريخية التى تتعلق بإنجازات ملوكها، حيث لانملك منها إلا النذر اليسير. ويمكن القول فى المجمل أن مراجعة قوائم الملوك تشير إلى أسماء عشرة أو أحد عشر ملكا، ويلاحظ فى بعضها الطابع السامى فى حين اتسم البعض الآخر بالطابع السومرى.

وأهم ملوك هذه الأسرة بالطبع هو مؤسسها ايلوما–ايلو، الذى تشير المصادر المعاصرة له من عهد سمسو ايلونا، إن هذا الأخير قد بذل جهوداً جبارة للحيلولة دون أقتطاع هذا الجزء الجنوبى وقيام دولة الإقليم البحرى. ولكن جهوده ذهبت إدراج الرياح بل أن ايلوما – ايلو قد حاول ربما على عهد أوعهد خلفه أبى – أيشوح أن يغزو بابل نفسها. ولرغم جنوح هذا الطموح إلا أن قيام هذه الدولة كان فاتحه سوء على بابل التى خرجت من حظيرة نفوذها المدينة تلو الأخرى حسبما أسلفنا.

ولقد جابه ثالث ملوك هذه الأسرة وهو دامق ايليشو ملك بابل إيمى ديتانا حيث نجح هذا الأخير فى إحراز نصر لم يلبث أن خسرت بابل نتائجة حيث إستعاد حاكم الإقليم البحرى سطوته على ايسين حيث قام بتحصينها وإعادة تسويرها.

ومن أهم ملوك هذه الأسرة أيضا جولكي شار، وهو سادس حاكم لها والمعاصر لأحداث سقوط بابل على يد الحيثيين وظهور قوة الكاشيين. ويبدو أنه حاول السيطرة على بابل فى المرحلة ما بين إنسحاب الحيثيين منها وإستيلاء الكاشيين عليها. حيث أشارت إحدى لوحات قوائم ملوك بابل إلى أسره جولكي شار كأسرة تالية لأسرة حمورابى فى حكم بابل. واللوح ذاته يذكر فى نهايته أنه كتب فى بابل «فى العام الذى أصبح فيه جولكى شار ملكاً. وبالرغم من غموض عهد هذا الملك، إلا أنه مما لاشك فيه أن المائة عام التالية له لعبت فيها أسرة الإقليم البحرى دوراً فعالاً فى أوضاع المنطقة السياسية، كما نجحت فى الحفاظ على إستقلالية المنطقة الجنوبية للرافدين أمام الإجتياح الكاشى الذى أعتلى عرش بابل.

وقد ظل هذا الوضع قائماً حتى عهد آخر حكامها أيا جميل الذى استسلم للكاشين وفر إلى عيلام تاركا من يقود الثورة ضد الكاشيين، ولكنها كانت محاولات فاشلة لإصرار الكاشيين على إنهاء هذا الوضع فى الجنوب. وتم لهم ما أرادوا إذ دخلوا أهم مدن الإقليم البحرى على يد حاكمهم أجوم الثانى (كاكريم)، الذى دمر معبد الإله أيا معبود الإقليم الرئيسى.

وهكذا أتاحت لنا المصادر فى المجمل إلقاء الضوء على بداية هذه الأسماء ونهايتها، وإن كان إستمرارها مستقلة لثلاثة قرون يستوجب المزيد من البحث عن المصادر التى من شأنها كشف الحجب التى تغلف الأحداث التاريخية لهذه الأسرة.

وجدير بالذكر، أنه من الأهمية بمكان التوكيد على أن هذه الأسرة لم تنسب إلى بابل إلا اصطلاحاً إذ أنها لم تكن بابلية بحال من الأحوال، بل أن حكامها حرصوا كل الحرص على الإنتساب لمجد أسرة ايسين البائد، ونستشف من أسمائهم كونهم خليطا بين العناصر السامية والسومرية وليسوا أموريين خلص.

ثالثا ـ الدولة البابلية الثالثة

(العصر الكاشي)

لم تكن الهجمة الحيثية على بابل أكثر من مجرد غارة أعقبها إنسحاب ثم تلاها هجمة أخرى من مملكة الإقليم البحرى لم يكتب لها الدوام. إذ نجح أحد الحكام الكاشيين فى تحقيق المآرب الذى سعوا إليه منذ ظهورهم ضمن الجماعات التى ماجت بهم المنطقة حول المملكة البابلية الأولى والذين ظهرت خطورتهم فى عصر خلفاء حمورابى.

والكاشيون هم إحدى الجماعات الهند وأوربيه التى تدفقت على أطراف منطقة الشرق الأدنى القديم من أواسط آسيا واستقرت فى مناطق مختلفة بما يفسر اختلاف اسماءها فهم الحيثيون فى آسيا الصغرى وهم الهكسوس فى مصر وهم الخوريون فى منطقة شمال غرب الفرات، وهم الكاسيون (الكاشيون) فى مرتفعات بلاد النهرين.

ويبدو أن هؤلاء لأقوام الذين لانعرف شيئا عن موطنهم الأصلى على وجه اليقين، قد سكنوا إيران بداية واستوطنوا الجزء الأوسط من سلسلة جبال زاجروس إلى الجنوب من همذان. ثم إختلطوا بالعناصر الهند واروبية الذى تعلموا منهم فن الجياد وعبادة الألهة الطبيعية، وإن ظلت لغتهم خليطا بين الكتابة الأكدية والتعابير الكيشية. وينسب اسمهم إلى معبودهم كاشو، أو إلى بعض الجماعات الذين إختلطوا بهم والذين أطلق عليهم اسم كوشيانيون Kas-saeans أو الكيشيون Kissians. وربما أكتسبوا أسمهم فى رأى آخر من إقليم كاش شن شمال عيلام.

وعلى الرغم من أن الخلفية التاريخية لهؤلاء الأقوام قبل عهد سمسو ايلونا خليفة حمورابى غير معروفة لا فى أحداثها ولاعدد ملوكها، إلا أن أول

حاكم تعرفنا به المصادر من ذلك العهد هو جندش الذى باءت محاولته للتغلغل داخل مملكة بابل بالفشل. ولكنها كانت مقدمة للتغلغل الكاشى السلمى فى بابل حتى ظهور أجوم الثانى.

يعد أجوم الثانى تاسع ملوك هذه الأسرة وإليه ينسب القضاء على دولة الإقليم البحرى كما يحسب له إعادة تماثيل الآله مردوخ وزوجته وإصلاح مقاصيرها بعد أربعة وعشرين عاما من الغزو الحيثى. وقد أشار نص من عهده إلى هذا الحدث بالقول أن الملوك الكاشيين قادرون على الأخذ بيد الاله مردوخ. وهى إشارة ذات دلالة مجازية تستهدف بعدا سياسياً فى محاولة لكسب مشاعر البابليين نحوهم كحكام تحترم المقدسات والمعبودات، فضلا عن إمكانية دعم شرعية حكمهم بهذا الأمر على أساس أن مجيئهم من خارج منطقة الرافدين كان دائما ما يجعل النظره لهم توجه على أنهم غزاه.

وتجدر الإشارة إلى أنه منذ نجاح الغزو الكاشى حوالى عام ١٤٦٠ ق.م. فى القضاء على دولة الإقليم البحرى، ومنطقة بابل تظهر كوحدة سياسية واحدة. ولقد أتبع الحكام الكاشيون على المدن – الدولة السومرية سياسة سلمية أهتمت بالأعمال الإنشائية وإبتعدت عن أساليب القسر والإجبار تاركة للمدن السومرية حريه الحركة فى إدارة شئونها الداخلية. ولعل هذا التوجه هو الذى دفع بعض الباحثين لاعتباره سببا مباشراً إلى إستمرار حكم الكاشيين قرابة الأربعة قرون. وهى مدة تعدت أى فترة حكم لأسرة محلية.

بيد أنه فى المقابل تصبح المبادأة فى توجيه الأحداث بالمنطقة خارج إطار بلاد الرافدين على عهد الكاشين وفى يد قوى أخرى، وهو الأمر الذى مثل الملمح الرئيسى لتوجيه الأحداث وتوازنات القوى بالمنطقة. فقد مر بنا سلفا الإشارة إلى تنامى قوة الحيثيين. كذلك بدأت قوة الخوريين فى التعاظم أقصى شمال بلاد الرافدين بمنطقة ديار بكر لتمتد مع مرور الوقت وحتى نهاية العصر

البابلى القديم من كردستان وحتى الالاخ فى شمال غربى سوريا. وقد تجمعت هذه العناصر مع الهند واروبيه فى شكل دولة ذات كيان موحد من حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. وهى مملكة ميتانى. وقد إتخذت من مدينة واش شوكانى عاصمة لها، وموقعها يصعب تحديده، وإن إتجه الظن إلى منطقة تل الفخارية الحالية على نهر الخابور شرقى تل حلف وحران. وخلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد اتسع نطاق هذه الدولة ليمتد من ساحل البحر المتوسط وحتى جبال زاجروس. كذلك كانت هناك مملكه آشور التى إقتسمت مع الدولة البابلية الثالثة وادى الرافدين لفترة إمتدت اثار هذا الإنقسام فيها لأكثر من عشرة قرون.

ولسوف نعرض لقائمة بأسماء الملوك الكاشيين وسنى حكمهم التقريبية، قبل إلقاء الضوء على إنجازات بعض المبرزين منهم. ولعل حدوث فجوات فى تناول تاريخ هؤلاء الملوك متسلسلا أنما يرجع لقله المصادر المنشوره عن فترة حكمهم وإكتناف الغموض للعديد من أحداث سنى عهدهم.

أما عن قائمة الملوك من عهد كارا أنداش وحتى عهد انليل نادين إحى، فهى تشتمل على ثلاثة وعشرين إسما إمتدت سنى حكمهم من حوالى عام ١٤١٥ ق.م. وحتى ١١٥٤ ق.م. وعلى النحو التالى :

١- كارا انداش	حوالى ١٤١٥ ق.م.
٢- كانداش جاربى الأول	؟
٣- كاريجالزو الأول	؟
٤- كاداشمان انليل الأول	١٣٧٤-١٣٦٠ ق.م.
٥- بورنا بورياش الثانى	١٣٥٩-١٣٣٣ ق.م.
٦- كارا - حارداش	١٣٣٣ ق.م.
٧- نازى - بوجاش	١٣٣٣ ق.م.

٨- كاريجالزو الثانى	١٣٠٨-١٣٣٢ ق.م.
٩- نازى - ماروتاش	١٢٨٢-١٣٠٧ ق.م.
١٠- كاداشمان تورجو	١٢٦٤-١٢٨١ ق.م.
١١- كاداشمان انليل الثانى	١٢٥٥-١٢٦٣ ق.م.
١٢- كودور - انليل	١٢٤٦-١٢٥٤ ق.م.
١٣- شاجا راكتى شورياش	١٢٣٣-١٢٤٥ ق.م
١٤- كاشتيلياش الرابع	١٢٢٥-١٢٣٢ ق.م.
١٥- تولكولتى نينورتا	١٢١٦-١٢٢٤ ق.م.
١٦- انليل نادين شومى	١٢٢٤- ؟ ق.م. ؟
١٧- كاداشمان حاربى الثانى	١٢٢٢-١٢٢٣ ق.م. ؟
١٨- اداد شوما ايدينا	١٢١٦-١٢٢١ ق.م. ؟
١٩- اداد شوما أوسور	١١٨٦-١٢١٥ ق.م. ؟
٢٠- ميليشيپاك	١١٧١-١١٨٥ ق.م.
٢١- مردوك ابلا ايدينا الأول	١١٥٨-١١٧٠ ق.م.
٢٢- زابابا شوما ايدينا	١١٥٧ ق.م.
٢٣- انليل نادين أحى	١١٥٤-١١٥٦ ق.م.

وتستند معلوماتنا عن تاريخ الكاشيين إما على محتويات رسائل تل العمارنه عن مملكة بابل أو وثيقة التاريخ المعاصر التى دونها كاتب آشورى فى القرن السابع قبل الميلاد.

وعلى الرغم من إبتداء مراسلات العمارنة مع الملوك الكاشيين من حوالى عام ١٤٠٢ ق.م.، إلا أن العلاقة بين مصر وبابل على عهد دولتها الثالثة ترجع إلى عهد كارا انداش ذاته الذى حظى بعلاقة وطيدة من قبل ملك مصر أمنحتب الثانى تم إزاءها تبادل السفارات بين الجانبين وما يستتبعها من هدايا قيمة. ولقد مكنت هذه العلاقة السلمية القوافل التجارية لبابل من إرتياد سوريا ومصر والأناضول بسلام.

ولقد آتت السياسة السلمية لكارانداش وخلفه كاريجالزو الأول ثمارها من خلال حجم الإعمار الإنشائى الذى قاما به فى مدن سومر وبابل. سواء كزخرفه معابد الآلهه الكبرى مثل أنانا فى أوروك أو تعمير مدن جديدة مثل ايشا (عقرقوف الحالية) قرب بغداد.

ولقد حصلت بابل على عهد كاريجا لزو الأول على كميات كبيرة من الذهب من مصر، ساعده على تحقيق خطته الطموح فى تعمير مدن أور وأريدو وأروك. كما حظيت العاصمة بابل بهذا الإهتمام لأهميتها الدينية والسياسية والتجارية للدولة.

ولقد عاصر خلفه وأبنه كدشمان انليل الأول الملك امنحتب الثالث حيث زوجه هذا الأخير أخته، وتناديا فى خطاباتهما المتبادلة بلفظة أخى التى تشير إلى المساواة فى وضع كل منهما للآخر، كما أتسع نطاق تبادل المنتجات الثمينة فيما بينها، فقد كانت ترسل مصر فى طلب الخيل والعربات واللازورد من بابل، مقابل الذهب والفضة والبرونز والعاج والأثاث من خشب الأبنوس وغيره، فضلا عن الأقمشة والعطور. ويبدو أن طلب البابليات كمحظيات لدى الملك المصرى قد نال حظا وفيراً فى سياق هذه المبادلات.

بيد أن العلاقة فى نهاية عهد كدشمان انليل الأول ثم خلفه بورنابورياش قد إعتراها بعض الشوائب التى كان مردها عزوف أخناتون عن الاهتمام بالعلاقات الخارجية وما يتعلق بها من أدق التفاصيل. الأمر الذى أدى لشكوى الملك البابلى من ضعف حجم التعاون من قبل الجانب المصرى والذى تمثل فى قله المرسل من الهدايا والمنتجات مقارنة بمايرسله بل وتعهده بارسال أخته كزوجه للفرعون.

ولقد ألقت العلاقات بين كل من مصر وبابل مع آشور بظلالها على العلاقة بينهما. فمصر كانت على علاقة طيبة بأشور أو باليط ملك أشور على

العكس من بابل. وهو الأمر الذى أدى إلى نوع من الفتور فى العلاقة بينهما فى النصف الثانى من عصر العمارنه. إلا أن العلاقة بين بابل وآشور قد تحسنت فيما بينهما، ربما لامكان مجابهة الأوضاع السياسة الخارجية بالمنطقة، وأثمر هذا التحسن عن زواج سياسى بين ملك بابل وإبنه ملك آشور. وقد أنجبت له إبنا لم يفلح فى الحفاظ على عرش والده فقتل بتمرد داخلى استدعى تدخل جده ملك آشور لينصب أخيه كاريجالزو الثانى على عرش بابل.

وجدير بالذكر، إن بابل قد نجحت خلال هذه المرحلة فى أخضاع دلمون لسطوتها، وإقامة علاقات تجارية مع اليونان، حسبما تشير لذلك الأدلة الأثرية. كما ساعدها سقوط مملكة ميتانى على يد الحيثيين إلى توطيد مكانتها وإقامة علاقات ذات سمه محددة مع آشور أو على شكل من الود مع خاتى (الحيثبين).

ولعل هذا الوضع الجديد فى ميزان القوى لصالح بابل قد دفع بكاريجالزو الثانى إلى دحر العيلاميين بمنطقة ديالى وغزو سوسه. بل تعدى بالأمر إلى محاربة ملك آشور انليل نيرارى جنوب آشور فى موقعه عند منطقة سوجاجو. وهى تحركات تعنى نقل القوة البابلية من موقف المدافع إلى الهجوم خارج حدودها. وإن كان يغلب على الظن أن إقتتال آشور وبابل فى تلك الموقعة لم يغير من حقيقة أرتباط تاريخهما بالعديد من المعاهدات والزيجات السياسية لتدعيم موقفهما إزاء الظروف السياسية الدولية.

وعلى أيه حال، فلقد صاغت العلاقة بين اشور وبابل والحيثيين معالم تاريخ المنطقة منذ عهد عاشر ملوك بابل كاداشمان تورجو (١٢٨١-١٢٦٤ ق.م.)، لاسيما بعد نجاح الحيثيين فى تحديد العلاقة مع مصر بعد موقعه قادش على عهد ملكهم مواتاللى الثانى وملك مصر رعمسيس الثانى.

ولقد عقدت خاتى معاهدة مع بابل، توطدت عراها بزيجة سياسية بين الأسرتين. بل وأمتد أثرها بوفاة ملك بابل وتولى خلفه كاداشمان انليل الثانى

وهو لم يبلغ الحلم بعد، الأمر الذى دفع ملك الحيثيين خاتو سيللى الثالث لأن يأخذ على عاتقه الحفاظ على عرش بابل لوريثه الشرعى. بيد أنه يبدو أنه حاول إستغلال هذا الأمر بتأليب الملك البابلى على آشور، وهو الأمر الذى لم يلق ترحيبا من جانب بابل. بل أنه بوفاة كاداشمان انليل الثانى اعترى العلاقة المتداخلة بين بابل والحيثيين نوع من الفطام السياسى إذا جاز التعبير، ربما بسبب ظهور القبائل الأراميه وتهديدها للمنطقة أو لقوة آشور المتزايدة وهى جميعها أمور استدعت من كل دولة تقييم موقفها على حدة.

وعلى أيه حال، فإن المصادر قد ضمت عن الفترة التالية لوفاة كاداشمان انليل الثانى وحتى عهد ملكها الرابع عشر كاشتليا ش الرابع (١٢٣٢ -١٢٢٥ق.م.)، والذى اجتاح فى عهده الملك الآشورى تجلات نيرارتو العاصمة بابل والحق بها خسائر جمه، معلنا نفسه «ملكا على سومر وأكد ...» ويبدو أن هذا الهجوم راجع لخيانة الملك البابلى لعهودة مع آشور، التى عينت خلفا له حاكما من قبلها.

بيد أن واقع الأمر يشير إلى أن السبب الحقيقى لهذا الهجوم مرجعه ليس فقط سعى آشور لمناطق المواد الخام، بل ماهو أهم من ذلك؛ أدى السيطرةعلى طرق التجارة المتحكمة فى نقل تلك المواد ذاتها.

ولقد أعقب هذا الغزو من الأشورى سلسلة من الأحداث الغامضة المرتبطة بسلسلة من الأسماء الحاكمة الذين لم يكن لهم من حظ فى الملك سوى اللقب فحسب. إذ كان يتعين موافقه آشور وعيلام على توليهم حكم بابل، بل وأحيانا كان يحاول أى من الطرفين تعيين حاكم من قبله بما يستتبعه تمرد داخل بابل يؤدى إلى هجوم خارجى لإقرار الوضع. وهو سيناريو للأحداث تجلى بوضوح عندما حاول ملك عيلام شوتروك ناحونتى إجلاس ولده على عرش بابل، فقوبل بمقاومة كاشيه دفعته إلى مهاجمة بابل عام

١١٦٨ ق.م. وأعمال جرائمه بها ليس بالقتل والسلب والهدم فحسب، بل ونقل المقتنيات الأثرية للحكام الأقدمين من بابل إلى سوسه.

ولقد حاول آخر ملوك الأسرة الكاشية انليل نادين أحى عام ١١٥٦ ق.م. إستعادة سطوة أسرته على حكم بابل من قبضة العيلاميين ولكن محاولته باءت بالفشل. إذ هاجم العيلاميون بابل وأسروا ثانيه تمثال مردوخ، وقضوا على آخر سلالة الحكام الكاشيين فى بابل التى دخلت بدورها مرحلة جديدة من تاريخها وهو مايمكن أن نطلق عليها «عصر الأسرات البابلية المتأخرة».

وإذا بقى من أمر حيال سقوط حاكم الأسرة الكاشية، فهو إنها لم تكن بمفردها التى جابهت هذا المصير إذ شاركتها فيه خاتى (المملكة الحيثية)، وظهرت تهديدات شعوب البحر التى قوضت نفوذ مصر وأضعفت قوتها ودلفت بها إلى عصر الإنتقال الثالث. وأستوطن الفلسطينيون أرض كنعان التى شهدت صراعهم مع بنى إسرائيل، وبدأ إستخدام العالم القديم لمعدن الحديد بدلاً من البرونز ليدخل به مرحلة جديدة فى تاريخه الطويل من عصر البرونز بأقسامه الثلاثة إلى عصر الحديد Iron Age مع بداية الألف الأول قبل الميلاد.

ثالثا - عصر الأسرات البابلية المتأخرة

(عصر الفوضى) أو (العصر المظلم)

يتضمن هذا العصر بقية السلالات البابلية أو بالأحرى التى أرتبطت بهذا العصر البابلى تمييزا لها عن مرحلة الحكم الآشورى التالية. وأيا ما كان الأمر حيال عدد هذه الأسرات الحاكمة، إلا أن جميعها قد تأثرت فى صياغة سياساتها بالقوى الخارجية الموجودة بالمنطقة مثل عيلام وآشور والقبائل الأمورية على النحو الذى سنعرض له.

ولسوف نخصص جزءاً منفرداً لفترة حكم الأسرة الرابعة لتميزه إلى حد كبير عن الفترة التالية التى ضمت بقية الأسرات من الخامسة إلى الثامنة، والتى سنفرد لها مجتمعة الجزء الثانى من هذا العرض.

١ - الدولة البابلية الرابعة (عصر ما بعد الكاشى)

تمثل هذه الأسرة الحاكمة أول تطبيق لشعار «بابل للبابليين» الذى رفعه أبناؤها خلال هذه الفترة و،حتى السيطرة الآشورية. ولقد بدأت بذرة تكوين هذه السلالة الحاكمة فى مدينة ايسين (جنوب غرب نفر)، لذا فقد أطلق عليها المؤرخون سلالة ايسين الثانية. وكان هذا الأمر على يد أحد الشيوخ المحليين ويدعى مردوخ - كابت - أخيشو حوالى عام ١١٥٧ ق.م.

ولقد ساعدت الظروف مؤسسى هذه الأسرة، إذا أضطربت الأمور فى عيلام بالشكل الذى جعل من السهل على حاكم ايسين الإنتفاض على الحامية العيلامية وطردها. ليتعاقب على الحكم سلالته الوطنية ذات الأحد عشر ملكا الذين قاربت مدة حكمهم قرنا من الزمان ويزيد.

ولقد أجمعت جل المراجع عن هذه الفترة على أن رابع ملوك هذه الأسرة، نبوخذ نصر الأول (ومعنى اسمه الاله نبو يحمى ذريته)، هو أعظم

حكام هذه الأسرة بإنجازاته التى أمتدت نحو عيلام وآشور فى الخارج وبإنشاءاته التى أعادت للآلهة هيبتها وللمدن السومرية رونقها.

أمتد حكم نبوخذ نصر الأول زهاء إحدى وعشرين عاما (١١٢٥-١١٠٤ق.م.)، بدأها باعداد العدة للثأر من العيلاميين الذين ساموا بني جلدته سوء العذاب وأهانوا مقدساتهم. ولقد خاض فى هذا الصدد حملتين توغل في الأولى بعض الشئ داخل أرض عيلام التى لم تقو على مناهضتة لولا تفشى الطاعون فى جنوده، وكاد هو ذاته أن يقتل فرجع القهقرى. يجر إذيال الفشل دون اليأس. ذلك أن أحد القادة من عيلام قد إنحاز بجانب نبوخذ نصر بما يسمح بقلب موازين القوى، فضلا عن حماس الملك البابلى ذاته وشعبه لرد اعتبارهم القومى حيال عيلام.

وهكذا تجمعت كل العوامل لنجاح الحملة الثانية التى خاضها الجيش البابلى فى ظروف لم يتوقعها الأعداء. إذ يشير المصدر الرئيسى لتلك الحمله والمعروف «بلوحه نصر» أو «لوحة الحدود» إلى أن الجيش البابلى قد زحف فى أيام الصيف حيث كانت الحرارة شديدة الإرتفاع بدرجة «ألهبت الفئوس كالنار فى أيدى الجنود، وأشعلت سطح الطريق كألسنة اللهب، ونضبت الآبار، وخارت قوى الجياد، واسترخت أقدام أعتى الجنود قوة وصلابة».

والتقى الجمعان عند ضفه نهر الكرخة حيث دان النصر لنبوخذ نصر وهرب ملك عيلام خوتيلوديش انشوشيناك «مختفيا إلى الأبد !!!». وليعود نبوخذ نصر حاملا معه تمثال الإله مردوخ الأسير بل وبعض تماثيل آلهة عيلام، فضلا عن الغنائم والأسلاب العديدة، ليصبح نصره هذا الذى تعطش له البابليون وطويلاً ملحمة يتردد صداها عبر الأجيال.

أما عن علاقته بعيلام، فعلى الرغم من ضعف ما لدينا من معلومات إلا أنها لم تتجاوز بعض الإغارات بين الطرفين على الحدود. وإن كان دراسة وضع آشور - حسبما سنرى فى الفصل القادم - يبين أنها كانت فى وضع لابأس

به من القوة والسطوة لايجعلنا نقبل أسلوب التهديد والوعيد الذى تضمنته بعض المصادر البابلية والتى ربما ترجع لعهد نبوخذنصر. وذلك أن آشور آنذاك على عهد ملكها تجلات بلا سر الأول كانت قد مدت نفوذها بالحرب تارة وبالسلم تارة أخرى نحو العديد من ممالك الشرق الأدنى القديم.

وجدير بالذكر، إن أمور البلاد الداخلية قد حظيت إلى حد كبير باهتمام نبوخذ نصر الأول ولم تشغله عنها أوضاع السياسة الخارجية. لذا فقد خصص على سبيل المثال العديد من المقتنيات الذهبية والفضية لمعبد أور، كما أقام لوحة توضح تنصيبية لابنته ككاهنة كبرى لاله القمر فى أور. وهو فى ذلك يؤكد على التقليد الذى أتبعه ملوك آكد وبابل القدامى فى تنصيب بناتهم فى منصب الكهانة (إنتو) فى أور.

ولقد زاد هذا النشاط الآشورى كقوه مؤثرة على سياسة المنطقة فى الوقت الذى تعرضت بابل على عهد خلفاء نبوخذ نصر الأول إلى سلسلة من الضغوط الأرامية التى تدعمت بقوة آشور، بما عجل بنهاية هذه الأسرة. وتدلل متفرقات الأحداث على هذا التوجه فى مسيرة تاريخ هذه الأسرة، فعلى عهد مردوخ نادين إحى ثانى خلفاء نبوخذ نصر الأول وأخيه الأصغر والذى حكم لحوالى سبعة عشر عاما (١٠٩٩-١٠٨٢ ق.م.)، قام هذا الملك بالهجوم على آشور. ورغم إحرازه لنصر مؤقت إلا أن تجلات بلا سر أعاد الكرَّة بقوة. وهاجم العديد من المدن شمال بابل مثل أوبيس وسيبار بل والقصر الملكى فى بابل نفسها. ومازاد الطين بله على نهاية عهده اجتياح المجاعة مدينة بابل وتوفر أهلها على أكل لحم البشر، أما الملك نفسه فتشير المصادر إلى إختفائه.

وإزداد الوضع سوءاً على عهد الملك البابلى مردوخ شابيك زيرى (١٠٨١-١٠٦٩ ق.م..) الذى قام الأشوريون على عهده بتنصيب أحد شيوخ القبائل الأمورية الحاكمة على ملك بابل فى محاولة لتحويل السيل الأرامى صوب جنوب العراق بعيداً عن آشور. بعد ما نجح الأراميون فى

الإستقرار الفعلى والمؤثر فى المدن الرئيسية لبابل ونيبور وأوروك. بل وتعدى الأمر إلى زواج ملك آشور من إبنة هذا الحاكم الأرامى فى بابل.

وهكذا لعبت آشور على كل الأطراف، فلاهى ساندت الملك البابلى ضد الغزو الأمورى، ولاهى نجحت فى إنقاذ حليفها الأرامى أو ملك بابل الجديد أداد-أبلا-أيدينا (١٠٦٨-١٠٤٧ ق.م.) من غائلة مخاطر القبائل الأرامية الأخرى لاسيما قبائل السوتو التى وإن لم يكن لها وجود سياسى على الساحة إلا أن أغاراتها قد ساهمت فى تهديد طرق التجارة وبالتالى أنهيار اقتصاد بابل لتزيد صعوبات جديدة على الوضع القائم. خاصة وإن هذه الإغارات لم تتعد تخريب المعابد وسلب الممتلكات القيمة فيها.

٢- الدويلات البابلية من الخامسة وحتى الثامنة

لم تترك لنا المصادر كثير معلومات عن آخر ملوك الدولة البابلية الرابعة أو بالأحرى أسرة ايسين الثانية، بل أن أسماء هؤلاء الحكام لاتزال غير مؤكدة فى القوائم الملكية. بيد أنه منذ حوالى عام ١٠٢٥ ق.م. قامت أسرة حاكمة ثانية فى الإقليم البحرى، وقد مثل حكمها عهد الدويلة البابلية الخامسة التى حمل ملوكها أسماء كاشية. ثم تلتها الدويلة البابلية السادسة والتى ينسب حكامها إلى بيت بازى وهى إحدى القبائل الآرامية، التى تبوأ مؤسسها مركزا علياً على عهد مردوخ نادين إحى.

أما الدويلة البابلية السابعة فكان مؤسسها عيلاميا، ومن ثم فقد تعاملت معه القوائم الملكية بالإبعاد. بعكس الحاكم البابلى نبو - موكين أبلى (٩٧٨-٩٤٣ ق.م،) الذى أشارت المصادر إلى فترة حكمه والتى مثلت عهد الدويلة البابلية الثامنة. حيث وصل التدهور فيها حدا فاق الوصف لدرجة عدم قيامها بالإحتفال بعيد رأس السنة والذى لم يكن مجرد عيد للاله مردوخ

فحسب، بل كان المناسبة التى يكتسب فيها القوم البركة من هذا الإله والرحمات التى حرموا منها، ممثلا فى تمثاله بالمعبد. ولعل هذا يفسر حرصهم على إستعادة التمثال من مختطفيه إلى خيتا وعيلام عبر تاريخهم السابق. كما عكس عدم إستمرار هذا الإحتفال إلى إفتقاد الأمان داخل بابل لاسيما مع أزدياد سطوة العناصر الآرامية التى حملت مسميات عدة أطلعتنا عليها المصادر الأشورية والتى إستمر إجتياحها وإستيطانها لوادى دجله الأسفل وحدود بلاد عيلام. من هذه القبائل الليتاو والجمبولو والبوكودو، وإن كان أهمها قاطبة قبيلة الكالدو، (الكلدانيين) التى إجتاحت بلاد سومر وكان استقرارها نواة لعصر بابلى جديد سيلى الحديث عنه بعد العصر الآشورى بالعراق ألا وهو «عصر الإحياء البابلى».

وعلى أيه حال، فقد إنتهى عصر الظلام والدويلات البابلية المتعاقبة بعدما شهدت فيها بابل حكم سبعة ملوك ينتمون لثلاثة سلالات كاشيه وأراميه وعيلاميه، لم تكن فيها بابل بأى حال من الأحوال للبابليين، لتصبح سياسة بابل مرتبطة تماما بقوة اشور شمالا، أو القوة الكلدانية الناشئة جنوبا.

الفصل السابع

عصر الدولة الأشورية



الفصل السابع
عصر الدولة الأشورية

تقديم

عندما بسطت آشور نفوذها على بلاد الرافدين موحدة بين شطريه الشمالى والجنوبى فى شكل دولة واحدة، لم يحسب هذا الأمر سوى إضافه للمحاولات الوحدوية للحكام الوطنيين فى تاريخ العراق أمثال لوجال زاجيزى وسرجون الأكدى وحمورابى. وغيرهم. إذ أن آشور تبرز على سطح دراسة التاريخ الحضارى للرافدين منذ أول صفحة فيه والمنطقة نفسها تحمل اسم المدينة والآله المعبود، رغم غموض المعنى. وإن حمله البعض معنى «الرحمن» الخاص باسم الاله آشور. كما عرفت فى المصادر الآرامية والعربية باسم «آثور» وفى المسمارية باسم «مات آشور» بمعنى بلاد آشور كما أوردت مصادر أخرى أشكالا هجائية متعددة للكلمة مثل، «أش شر» – أو – «آشوار» – أو «أشر».

والفترة مناط العرض هى التى تلت سقوط العصر البابلى القديم بدوله الثمانية، وإن كان هذا لايغمط حق منطقة اشور فى سرد تاريخها الممتد من عصور ماقبل التاريخ. وذلك أن هذه المنطقة الممتدة عبر نهر دجله شمال الموصل مباشرة من الشمال وشمال غرب بغداد جنوبا، قد أستقر بها أهلها منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد وكفرع من الأقوام التى عرفتها بلاد الرافدين فى نسيج تكوينها البشرى والذى يرجع فى منشئة إلى الجزيرة العربية. لذا فلا عجب إذا كانت لهجتهم إحدى لهجاتن اللغة الأكدية وخطهم هو الخط المسمارى، ومناص حياتهم فى مجملها مشابهة لبقية سكان العراق.

وإذا كان عرضنا السلف عن التكوين الحضارى لبلاد الرافدين فى عصور

ما قبل التاريخ قد أكد على السبق الحضارى لمنطقة شمال العراق عن جنوبها، فى لاشك فيه أن حضارات ما قبل التاريخ بمنطقة آشور بمفهومها الجغرافى الإقليمى كانت العلامات الرئيسية لهذا السبق. وهو ما لمسناه فى الحديث عن حضارة حسونه وتل حلف والعبيد. ثم عندما بدأت حركة التاريخ فى المنطقة تتشكل بشكلها الذى عرفناه منذ السيطرة المدن السومرية، كان لآشور موقعها المتميز فى هذه الحركة خضوعاً أو إستقلالاً. وسارات مسيرة تاريخها جنبا إلى جنب مع مسيرة تاريخ الرافدين أو بالأحرى دولة الجنوبية، يتلاقيان مرات ويتوازيان مرات أخر.

ولقد أنتظم هذا التلاقى وذاك التوازى فى مراحل أربع رئيسيه، الأولى منها هى المرحلة السومرية - الأكدية والعصر العتيق. والثانية هى العصر الأشورى القديم، والثالثة هى العصر الآشورى والوسيط والرابعة العصر الأشورى الحديث. وهى مراحل أمتدت منذ بداية الآلف الثالثة قبل الميلاد وحتى نهاية القرن السابع قبل الميلاد، حوالى عام ٦١٢ ق.م.

ولسوف نعرض لكل مرحلة على حدة محاولين قدر الطاقة عدم الوقوع فى مغبة تكرار بعض التفصيلات التى أستدعى المقام ذكرها فى المراحل الأولى للعرض. حتى يتسنى لنا التركيز على مرحلة الأمبراطورية الأشورية والتى تلت سقوط العصر البابلى القديم.

أولا – المرحلة السومرية – الأكدية
(العصر العتيق)

ترجع هذه المرحلة لمرحلة تكوين المدن ونشأة السلالات والتى كان من حظ منطقة آشور أزدهار عدة مدن بها مثل آشور وإربل ونينوى فى مقابل المدن السومرية الجنوبية. والمعلومات التاريخية عن هذه المرحلة جد قليلة. وإن كان البحث الأثرى قد توصل إلى حقيقة أن آشور بمعبدها المخصص للألهة عشتار منذ عام ٢٨٠٠ ق.م. كانت تمثل مركزا دينيا هاما للإقليم، يغلب معه على الظن أنه انعكس على وضعها السياسى وعلى المهام الدينوية التى أضطلع بها حكامها إلى جانب مهامهم الدينية بالطبع. ويرى البعض أن أولئك الحكام كانوا سومرين إستناداً على الأنماط الأثرية لمعابد المنطقة والمشابهة لمثيلاتها السومرية.

ولقد صعب من مهمة تحديد الملوك الحكام لتلك المنطقة أن تجميع أسماء الحكام وترتيبها يعود بنا فقط وبشئ من التجاوز إلى حوالى عام ٢٥٠٠ ق.م. وهى محاولة لطرح قائمة باسماء الملوك المبكرين تحتاج إلى مزيد من التخصص والدراسة لما يكتنفها من صعوبة نقل حدتها مع ظهور اسم شمش أداد الأول (١٨١٣–١٧٨١ق.م.) لتقابل عهده مع عهد حمورابى مما ساعد الباحثين على تحديد النقطة التى ينطلقون منها فى ترتيب الملوك التابعين له على عرش آشوريين غير قليل من الدقة.

أما قبل شمش اداد، فالقائمة الخاصةبأسماء الملوك تحمل أسماء ثمانية وثلاثون ملكا أو ما يفترض أنهم ملوك، حسب تعبير H.SAGGS. وقد قسمت الأسماء إلى مجموعات؛ بالأولى من سبعة عشر اسما أطلق عليهم «الذين يعيشون فى الخيام». أما المجموعة الثانيةن فمن عشرة أسماء وأطلق

عليهم الملوك الأسلاف. ثم مجموعتان كل منهما تحوين ستة أسماء قل اسم شمش اداد.

وقد يبدو ظاهريا أن مجموع الأسماء ٣٩ وليس ٣٨، إلا أن تكرار أحد الأسماء مرتين فى مجموعتين متتاليتين هو الذى أحدث هذا اللب. وهو ليس الخلط الوحيد بالقوائم بل شمش أداد ذاته تشير القوائم إلى كونه ابن لملك يدعى ايلو - كابكابى، إلا أن هذا الأخير لم يسبقه فى القائه مباشرة وكذا تعبيرا «الملوك الأسلاف» وإن لم يتحدد المقصد منه إلا أنه ربما يشير إلى كونهم أسلاف شمش - اداد ذاته.

أما «الملوك الذى يعيشون فى الخيام» فمن عجب أن أثنى عشر اسما من مجموع السبعة عشر اسما اتفقوا على الأسماء التى سبقت حمورابى على حكم بابل. مما دفع البعض إلى اعتبار كل من حمورابى وشمش اداد من أصل أمورى واحد. وبغض النظر عن هذه الجزئية، فالإشارة لأولئك الحكام أن تعنى تلك الفترة التى ساد فيها الحكم القبلى المجموعات الأمورية قبل إنفصالها إلى فروع عدة على أرض الرافدين.

وأيا كان الأمر وحتى لاتستغرقنا قضية مناقشة أصل ملوك آشور وكنه التعبيرات التى أطلعت عليهم فإن الشواهد الأثرية فى آشور ونينوى تؤكد بما لايحتمل الشك أن مدن الإقليم الأشورى قد وقعت تحت سيطرة حكم ملوك أكد مثل نارام سين وسرجون وريموش، بل وأن الغزو الجوتى الذى اجتح حكم مملكة أكد قد أثر بدوره على إقليم آشور الذى تعرض أيضا للتخريب والدمار من جراء الإحتلال الجوتى. وقد أعقب ذلك الإحتلال فترة مظلمة لاندرى هل قامت فيها أسرة حاكمة فى آشور، أم ظلت تحت سيطرة الجوتيين.

وعندما ظهرت أسرة أور الثالثة حوالى عام ٢١٠٠ ق.م. خضعت مدن آشور إلى حكم ملوكها إذ تشير الشواهد الأثرية إلى خضوع آشور لملوك أور

مثل أماراسيين الذى ولى عليها حاكما من قبله كما نجح فانده أوربيلوم فى إخضاع إربيل بإقليم آشور إلى النفوذ السومرى فى أور وقد ظل هذا الوضع حتى سقوط أور حوالى ٢٠٠٦ ق.م. على يد الهجمات العيلاميين شرقاً والأموريين غربا.

وقد أعاد سقوط أور لآشور إستقلالها، إذ تشير مصادر تلك الفترة الحاكم آشورى يدعى كيكيا أعاد بناء أسوارها وتحصيناتها. ويبدو أن فترة حكمه لم تتجاوز عام ٢٠٠٠ ق.م. حيث دخلت آشور المرحلة التاريخية التالية والمعروفة اصطلاحا بالعصر الأشورى القديم.

ثانيا - العصر الأشورى القديم

اتسم هذه العصر بتعدد مراحله التى ماكانت معالمها التاريخية تلبث للظهور إلا ويكتنفها الغموض، وهو غموض سببه ضعف المصادر التاريخية لاتى تتخلل مراحل النقلات بين فترة وأخرى.

وعلى أيه حال، فإن المرحلة التى تلت الحاكم كيكيا فى نهاية المرحلة السابقة لم تصلنا عنها معلومات ذات قيمة حتى تصل إلى عهد أحد ملوك اشور ويدعى ايلوشوما والذى حكم لحوالى عشرين عاما أرسى خلالها دعائم سياسة مسار عليها ولده ايروشوم الأول. وتمثلت فى محاولة تأمين طرق التجارة إلى عيلام والخليج العربى وذلك بتحرير المدن الجنوبية من سطو القبائل الأمورية. وهو الأمر الدفعة لغزو بابل وأور نفر.

ويبدو أن أحكام أشنونا قد أعادوا الكرة على آشور بعد عهد هذين الحاكمين وإن ظلت المصادر السومرية تؤكد على الوجود الأشورى على الأقل فى ميدان العلاقات التجارية مع شرقى الأناضول خلال الربع الأول من الألف

الثانى قبل الميلاد حيث شهدت هذه المراكز الأناضوليه حركة تبادل تجارى مع آشور فى كافة أنواع المتاجر التى تشير إليها كمية العقود والإتفاقيات والقوانين المسجلة من تلك الفترة. بيد أن إحتفاظ هذه المراكز باستقلالها المحلى ليدل على أن آشور لم تكن لتنهض بأعباء السيطرة السياسية على تلك المناطق خلال هذه الفترة من تاريخها. ولقد ظلت الأمور على ماهى عليه حتى تعرضت تلك المناطق بالأناضول للهجمات الهند واروبيه المتتالية التى أثرت على حركة التجارة ومن ثم على اقتصاديات آشور التى وصلت إلى درجة غاية فى التدهور.

بيد أن آشور سرعان ما تنهض من كبوتها على يد حاكمها شمش اداد الأول الذى أسس دولة ذات سيادة على كل المنطقة الشمالية والغربيةن للعراق. فى حين تحالف مع حمورابى فى بابل ضامنا تحييده حتى نجح فى السيطرة على مملكة مارى على عهد زمرى ليم - حسبما أشرنا فى فصل سابق - كما أقام علاقات ودية مع دويلات الشمال السورى مثل قرقميش وقطنه، فضلا عن فرض سيطرته على حلب عدوة فى مارى. وقد نصب أبنه واسمه ياسماح اداد حاكما على هذه المدينة الأخيره. وهى الأحداث التى زخرت بها مدونات أرشيف مارى أكثر من المصادر الآشورية ذاتها.

ويعزى إلى شمش اداد اختيار عاصمة أخرى بجانب آشور إلى الشمال الغربى منها وهى شوبات انليل، حتى يصبح يمكنته الاقتراب من صلب الأحداث فى سوريا. كما عين ابنه الأكبر حاكما على قلعة ايكالاتو المسيطرة على إقليم شرق دجله. ونجح فى نهاية المطاف إلى مد حدود مملكته لأبعد من جبال زاجروس شرقا.

ولقد ساعده عاملان أساسيان على تأسيس هذه المملكة، وهى الكفاءة الإدارية والقدرة السياسية بحيث كان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة بمملكته التى كانت تتحكم فى إدارتها مجموعة من الموظفين والحكام الأكفاء التابعين

له مباشرة. كما عزز مكانته السياسية بالعديد من المعاهدات والزيجات السياسية لاسيما فى سوريا.

وما من شك أن هذه الكفاءة الإدارية والسياسية كانت تقف جنباً إلى جنب مع مقدرته العسكرية التى جعلته يؤسس حاميات عدة فى أرجاء الدولة. حتى أنه كان يحكم فى ستة آلاف شخص، كانوا معينين بكل ما يتعلق بالأمور العسكرية حتى إن بعض الباحثين يعزون كفاءة الجيش الآشورى فى الألف الأول قبل الميلادى إلى تلك الخبرة التى اكتسبها على نطاق واسع على عهدن شمش أداد.

بيد أنه بوفاته، ويتولى ابنه اشمي داجان حكم مملكه آشور لأربعين عاما، تقلص فيها نفوذه تدريجياً ليقتصر على إقليم آشور فحسب أى مدن آشور لأربعين عاما، تقلص فيها نفوذه تدريجياً ليقتصر على إقليم آشور فحسب أى مدن آشور ونينوى وأربل وربما كركوك. وتمكنت عوامل الضعف من مملكته بدرجة كانت مهيأة معها للسقوط أمام أول غازى يدق أبوابها المنيعة، وكان ذلك على يد حمورابى الذى أدخلها ضمن مملكته المعروفة باسم «الدولة البابلية الأولى»

والجدير بالذكر أنه خلال عهد شمش اداد وولده كانت شوكه الحوريين تتزايد بزيادة حجم هجراتهم حتى نجحو فى الإستيلاد الإستيطانى فى مدينة الآلاخ السورية بين حلب وانطاكية منذ حوالى عام ١٨٠٠ ق.م. ونجحوا خلال قرنين من الزمان من إنشاء مملكة عرفت باسم مملكة ميتانى نسبة ألى العنصر الميتانى الذى أمتزج مع الحوريين، وهيمنوا على شمال سوريا والعراق والجزيرة العربية. وكانت آشور بالطبع ضمن مناطق نفوذهم حيث تحولت إلى إمارة ثابتة لهم، وإن نجح أحد حكامها فى الأبقاء على جزء منها مستقل تماما من مملكة ميتانى حوالى عام ١٥٥٠ ق.م. يدعم ذلك إتفاقية الحدود التى

أبرمتها مع بابل على عهد الكاشيين والهدية التى أرسلت إلى مصر كنوع من التحالف معها ضد ميتانى بعد الصدام الذى تم بينهما حوالى عام ١٤٧٢ ق.م. بيد أنه بعد هذا التاريخ بقليل نجح الملك الميتانى سوشتتار فى ضم أشورن كلية.

ثالثا - العصر الآشورى الوسيط

نظرا لتداخل الأحداث السابقة والمتعلقة بميتانى وعلاقاتها مع دول دويلات المنطقة ومنها آشور بالطبع فإنه من الصعب تحديد خط زمنى فاصل بين العصر الأشورى الوسيط وسابقة. ذلك لاستمرار عناصر الأحداث الرئيسية وتداعياتها خلال هذه المرحلة. ونقص بها القوى الكبرى مثل ميتانى وخاتى ومصر وغيرها ومدى تأثير علاقاتها على بلاد الرافدين بعامه وآشور بخاصة.

ومن ثم، فقد أكدت المصادر التى ترجع للقرن الخامس عشر قبل الميلاد على حقيقة أن آشور كانت تابعة لمملكة ميتانى. إذ يتضح ذلك من أسماء كبار موظفى الإدارة بها والذين حملوا أسماء حوريه، وكذا الإشارة إلى أنهم يتبعون ملك (هانيجلبات) وهو الاسم الآخر الذى أطلق على ميتانى. ولقد أكد ملوك آشور هذا الأمر فى نصوص عهده بعد قرنين من خروج آشور من حظيرة التبعية الميتانية.

ومن الجدير بالذكر أيضا أن إقليم آشور تحت سيطرة ميتانى لم يظل على وحدته المعروفه إقليميا، بل أنقسم إلى وحداته الأولى ونفنى بها دويلات المدن فى آشور وكركوك وبنينوى وإربل. ويبدو أن هذا الأمر كان متعمدا من قبلن مملكة ميتانى لسهولة تصريف شئون إقليم آشور الإدارية والسياسية وأحكام سيطرة جنود حامياتها علية.

بيد أنه مع نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أعترت الظروف الدولية

متغيرات عدة أثرت على موازيين القوى. وهو الأمر الذى استثمرة الحاكم الآشورى اريبا - اداد (١٣٩٢-١٣٦٦ق.م.) لصالح مملكته واستقلالها. وهو الأمر الذى لم يحدث فجأة بل سبقته إرهاصات مثل إنقسام مملكة ميتانى على نفسها بسبب إنسلاخ أحد العناصر الحوريه عن المملكة الأم وتأسيس مملكة مستقلة سارعت خيتا إلى مناصرتها ضد ميتانى عدوها التقليدى. كذلك نجحت آشور فى عقد معاهدة حدود مع ميتانى ثم سرعان ما انسلخت من تبعيتها بل وهاجمتها بعد ذلك على عهد خليفه أريبا اداد وهو الملك آشورا وباليط.

ولقد نجحت آشور على عهد آشور أوباليط (١٣٦٣-١٣٢٨ ق.م.) من عقد سياسة متوازنه مع مصر أبان عصر العمارنه مع الكاشيين، وهى العلاقة التى أشرنا إليها فى الفصل السابق، والتى دعمتها زيجه سياسية استبعها تدخل أشور فى أقرار أمور العرش فى بابل بيد أن هذه الأخيرة قد وقعت فريسة للهجوم العيلامى.

أما آشور فقد خلف آشور أو باليط سلسلة من الملوك الفطام الذى نواة الإمبراطورية الآشورية التى بدأها آشور أو باليط والتى تجاوزت المناطق السهلية إلى الجبلية، بما ضمن لآشور السيطرة أيضا على مصادر المواد الخام المعدنية والخشبية والأحجار الكريمة، فضلا عن إستجلاب الخيول المدربة. كما أرتفع شأن الأله آشور خلال هذه الفترة من مراحل تكوين الإمبراطورية.

ولقد خلفت لنا نصوص خليفة آشور أو باليط وأبنه المدعو أنليل نيرارى الأول ثم حفيده أريك دن ايلى ما يؤكد هذا التوسع خلال فترة آشور وباليط ثم فترة حكمها التى أمتدت لحوالى إحدى وعشرين عاماً ولقد حاول ملوك آشور آنذاك أن يطاولوا أقرانهم فى مصر فأطلقوا على أنفسهم لقب «ملك آشور، الملك العظيم رغم أن واقع الأمر يؤكد توسعهم لم يؤثر إلا فى المنطقة الشمالية،

في حين كان صراعهم مع بابل جنوبا صراعاً تقليدياً غير توسعى ولتثبيت الحدود.

بيد أن هذا التوجه قد تغير كلية على يد أداد نيرارى الأول (١٣٠٥-١٢٧٤ ق.م.) الذى دخل فى صراع مع بابل وحكامها من بقايا الكاشيين، ومع قبائل الجوتيين والسوبارو، فضلا عن ميتانى التى حمل عليها حملة لا هوادة فيها لاسيما بعد ضمانه حياد الحيثيين حيال هذا الصراع. وليبسط هذا الملك نفوذه على المنطقة الممتدة من شمال إلى الجنوب والمحصورة بين دجلة والفرات ومسيطرا على جل الطرق الممتدة غرب الفرات وحتى ساحل البحر المتوسط فضلاعن علاقاته السلمية مع آسيا الصغرى. وهو توسع كفل له أن يطلق على نفسه لقب «ملك كل العالم».

ولقد خلفه على العرش ولده شلمنصر الأول والذى أمتد حكمه من (١٢٧٣-١٢٤٤ ق.م.) أى لحوالى ثلاثة عقود. ولقد أشار فى نصوص عهده إلى هجمومه على قبائل أورارتو (أمينيا) ليحفظ حدود مملكته من توجهاتها صوبها جنوباً، وأنه استعمل بعض رحلات هذه القبائل فى خدمته، وهو توجه سياسى يستلفت النظر، إذ يدلل على قيام الملك الآشورى بمحاولة استقطاب هؤلاء الأقوام منعاً لأية مشاكل محتملة فى المستقبل ولقد فعل نفس الأمر مع ميتانى التى ضم إلى حظيرة مملكة أجزاء كبيرة من مملكتها السابقة، كما استجلب معه ١٤٤٠٠ فرداً من هناك للعمل فى مشروعاته الزراعية وأعماله العمرانية والتى بلغت حد بناء عاصمة جديدة لمملكة بدلاً من آشور وهى مدينة كلخو (نمرود) الشهيرة. وتمثل هذه السياس فى نقل البشر من مواطنهم الأصلية إلى أماكن أخرى بمملكته آشور أسلوباً جديداً لم يطرقه - فيما نعلم - أى حكم من سابقية.

وعلى الرغم من أن عهده قد شهد زحف إحدى الموجات السامية

الجديدة التى أختطلت مع الأراميين وهم قبائل الأوخلامو، إلا أنه نجح فى الحفاظ على حدود مملكته من تهديداتهم بذات القدر الذى حافظ فيه على علاقته الودية أيضا بمملكة الحيثيين. وهى علاقة سجلها مراسلاتهم التى دائما ما كانوا يفتتحوها بخاطبة كل ملك للأخر بلقب «الأخ»، بمدلوله السياسى الذى يعنى المساواة بين الطرفين. والجدير بالذكر، أن نظرة شلمنصر الأول للملكية قد قدرت سابقية ليس بمزيد من الألقاب التى إنتحلها، لكنه بتصوير نفسه جريا على عادة أسلافه الأقدميين فى بلاد الفرات - كملك مؤله ينوب عن الآلهه فى حكم الأرض كمبعوث الهى للبشرية وراعيها الحقيقى.

ولقد أعتلى عرش آشور خلفا لشلمنصر الأول أبنه توكولتى نينورتا الأول (١٢٤٣-١٢٠٧ ق.م.) الذى لم يقل عنه عظمه وإنجازات، لم تستهدف التوسع فى مناطق جديدة بل والنجاح فى إستغلال هذه المناطق لما يعود بالنفع على مصلحة الدولة جمعاء. ومن ثم فلم يكتف بالسيطرة على المنطقة الجبلية الشمالية ومملكة قومانى بها بل نجح فى تنظيم أمورها وتثبيت ملك من عنده على عرشها بعدما يضمن ولاءه بالقسم أمامه فحسب.

كما مد سيطرته على غابات شرقى جبال طوروس ضمانا للأخشاب اللازمة لمشروعاته العمرانية داخل البلاد. بحيث أصبح إطار نفوذه فى المجمل ممتدا فى شكل نصف دائرة الزاب الأدنى إلى الفرات.

أما علاقته ببابل فقد حسمها بشكل وظفافيه معطيات القصيدة لصالح مطامعه السياسية إذ جعل غروها بناء على رغبه الآلهة فى ذلك ضد كاشتلياش، لاسيما الآله مردوخ. وقد أشرنا إلى حملته فى الفصل السابق والتى كان آخر نشاطاته العسكرية الخارجية على عهده، والتى مكنته من حمل لقب «ملك سومرَ وآكد».

كما إستمر فى تبنى سياسة تهجير السكان من بلدانهم إذ تشير نصوصه

إل نقل ٢٨٨٠٠ حيثى من شمال سوريا وهو الأمر الذى لم يضمنه نصوصه المبكرة، ربما حرصا على العلاقة مع مملكة خاى التى وإن ظهرت العديد من مظاهر الود فى العلاقة، إلا أن هناك من الشواهد المادية والنصية مايدل على حدوث عدة مصادمات بينها وبين آشور. ولكنها مصادمات لايمكن أن يكون أحد نتائجها وذلك العدد الضخم من الأسرى، الأمر الذى حمل البعض على الاعتقادات فى مغالاة ومبالغة نصوص هذا الملك فى عدد أسراه من الحيثيين.

ولقد غير توكولتى نينورتا هو الآخر عاصمته، وهو الأمر الذى درج عليه عدد من الملوك الأشوريين لعاملين أساسيين، أولهما إفتقاد العاصمة القديمة آشور للموقع الإستراتيجى المتوافق مع وضع الإمبراطورية الجديد. وثانيهما، إحتمال حدوث كم من التوترات بين مواطنى المدن والمهجرين إليها وبين الحكومة المركزية فى آشور وأيا ما كان الأمر فقد بنى هو الآخر عامته فى أخريات عهده أطلق عليها اسم كار – توكولتى – نينورتا على الطرف الاخر من نهر دجلةفى قبالة آشور.

ويبدو أن العامل الثانى كان سببا فى حدوث تمرد ضده إنتهى إلى إغتياله على يد ابنه آشور ناصر بال وحلفاءه من نبلاء آشور. وهو الأمر الذى أحدث أضطرابا داخليا، إذ لم يهنأ المغتصب بعرشه إلا قليلا، حتى نال جزاءه على يد الوريث الشرعى أشور – نادين – أبلى (١٢٠٦–١٢٠٣).

ولقد حملت الفترة المتعلقة بحكم هذا الملك وثلاثة من بعده حوالى ثمانيه وعشرين عاما، أكتنف الغموض فيها ظروف آشور، وسمح لبابل فى شق عصا الطاعة عليها بل والتدخل فى شئونها لدرجة تعيين الملك الرابع فى هذه المجموعة نينورتا – أبيل – كار (١١٩١–١١٧٩ ق.م.) من بابل ذاتها.

بيد أن سقوط بابل على يد العيلاميين الذين مدوا نفوذهم حتى الخراب الأدنى، قد أثر على آشور ذاتها سياسيا واقتصاديا. ولم ترحمها أقدارها فى

الداخل كما فى الخارج إذ تعرضت لتمرد العديد من الأمراء وتنافسهم بين بعضهم البعض بل بلغ التنافس حداً غير مسبوق لدرجة إعتلاء اخين العرش فى ان واحد، مثلما حدث مع ابنى اشور - دان الأول وإن حسم الأمر لصالح ثالث لهما وهو آشور - رش ايشى الأول على رأى أو لصالح تجلات بلاسر عل رأى اخر على اعتبار أن يكون هو الذى سبقه الأخين المتنافسين ومن ثم يصبحا ابنين لآشور رش ايشى وليس لآشور دان.

وايا ما كان الأمر، فبإعتلاء تجلات بلاسر الأول عرش آشور عام ١١١٤ ق.م. ولحوالى ثمانية وثلاثين عاما، نجحت آشور فى استعادة بعض أزدهارها وقوتها السالفة. ولقد قامت سياسته الخارجية على أساسين رئيسين، الأول وشغل به فى بداية عهده ورمى إلى تأمين حدود آشور الفعلية مع تدعيم هذا الوضع بتبنى سياسة التهجير التى كانت حصيلتها حوالى ١٢٠٠ فرداً من آسيا الصغرى وسواحل البحر المتوسط. أما الأساس الثانى فكان مهاجمة أماكن الخطر على الدولة والتى بدأها بمنطقة كادموخ شمال غرب آشور، حيث قبائل الموشكى الذين استوطنوها وقاموا بتهديد الإقليم لآشورى ذاته. فما كان منه إلا مهاجمتهم واسر ستة ألاف من مجموعهم البالغ عشرون ألفا، ثم إستخدامهم فى مشروعاته الزراعية وقيادة عجلاته الحربية.

ولقد شجعه هذا النصر على قبائل الموشكى لإحراز المزيد من التقدم غرب الفرات لصد الغارات القبائل الآرامية، كما أخضع مجموعة المدن السورية بزعامة عن الدولة البابلية القديمة، والتى لم تعد كونها حملة تأديبية ولم تكن أبداً تستهدف إحتلال بابل.

وتشير حوليات عهده إلى ولعه بإستقدام وصيد الحيوانات من المناطق التى وصل إليها حتى غدت الحياه الحيوانية فى آشور غنيه بتنوعها، ولم يغب عنه إنشاء حديقة للحيوان بعاصمته ضمت أنواعا مختلفة من القردة والتماسيح

والدببة والأسود والضباع والنمود والفهود والغزلان والوعول البرية. كما أشارت إحدى لوحاته إلى إستقدامه جملين بسنامين أرسلا له خصيصا على يد تجار الجمال من المنطقة خلف جبال زاجروس، أى إيران.

والواقع فقد كان تجلات بلاسر من ذلك النوع الحكام أصحاب النشاط الملحوظ والمتنوع المشارب. ويرجع إلى عهده مجموعة من التشريعات الآشورية والتى غلب عليها الطابع الإشاردى المستقى من التشريعات المبكرة ببلاد الرافدين. وقد تعلقت فى مجملها بقواعد تنظيم ملكية الأراضى والأحوال الشخصية. ولقد كانت شخصيته القيادية الطاغية مثالا أحتذاه العديد من حكام اشور، الذين إتخذوا اسمه كاسم من أسماء العرش لهم.

وبوفاته عام ١٠٧٦ ق.م. خلفه ولديه اللذان حملا اسما واحداً هو آشور بل كالا ويعنى «الاله آشور سيد الجميع». وهو لقب يشير إلى ماحققه والدهما أكثر مما حققاه، إذ الثابت أن أنهياراً سريعاً قد لحق بآشور عقب وفاة تجلات بلا سر الأول دخلت على أثره فى فترة ضعف وإرتباك سياسى واقتصادى استمرت لحوالى قرن ونصف. إذ تعرضت البلاد خلال هذه الفترة للهجمات الأرامية سواء فى آشور أو بابل، الأمر الذى أوجد مجموعة من التداخلات فى علاقة كل منهما وأسلوب مواجهه هذا الخطر المشترك سواء بإقامة معاهدات أو بتدخل آشور فى شئون بابل.

ولقد تعدى الأمر فى دبلوماسية آشورإلى الحد الذى قام فيه ملكها بتغيير سياسته جيال القبائل الأرامية وقام بعقد زيجه سياسية على أبنه أحد الحكام الأراميين، مما قوى وضع آشور فى المنطقة نسبياً، وخفق من حدة التهديد الأرامى حيالها.

وعلى أيه حال، فقد إنتهى عهد آشور بل كالا الثانى باغتصاب عمه السلطة ويدعى شمش آداد الرابع فى الوقت الذى ناوءه فيه ابن اخيه بمساعدة

بابل. وهكذا ظلت الأضطرابات السياسية مستمرة، وعبرت عن نفسها بهجر الإحتفال بعيد رأس السنة والذى أشرنا لأهميتة ومغزاه السياسى من قبل. فى الوقت الذى ظلت فيه الأمور تستتب أكثر لصالح الدويلات الآرامية وعلى حساب آشور. وأن كان يستلفت النظر فى هذا الأمر تمكين دوله اسرائيل لنفسها فى ذلك الوقت على يد داود وسليمان ومحاولة اتساعها على حساب آشور، وبموافقة الأراميين أنفسهم !!!.

والواقع، فإنه من الصعوبة بمكان إستجلاب طبيعة العلاقات بين كافة أطراف المنطقة واستعراضها كلها فى آن واحد، بيد أنه ما يمكن أن نركز عليه فى معرضه تناولنا للتسلسل التاريخى لآشور أن ما أشرنا اليد من أنهيار وتدهور لم يكن بالشكل الحاد أو الفجائي. فالمعروف أن الوحدات الحضارية الكبرى لاتظهر وتختفى فجاءة، بل تتبع فى ذلك سنة التدرج. وبالنسبة لآشور تحديدا فان عصورها التى تسلم بعضها البعض قد جملت فى طياتها جذوة حفظتها لفترة الزوال بل كانت عاملاً من عوامل إبتعاث النهضة فيها.

ومن ثم، فعلى الرغم من الظروف الدولية التى أحاطت بآشور فى هذه المرحلة والتى ظهرت فيها ممالك جديدة من حولها، إلا أن أستقرار أوضاع هذه الممالك قد أنعكس على آشور ذاتها حتى أن آخر ملوك هذه المرحلة وهو آشور دان الثانى (٩٣٤-٩١٢ ق.م.) قد أشارت مصادر عهده إلى نوع من الرخاء والوقت التى عرفتها البلاد، وكانت خاتمة خير على المرحلة الجديدة فى عصور الإمبراطورية الأشورية.

٤- العصر الآشورى الحديث
(العصر الإمبراطورى)

يتفق المؤرخون على إعتبار عهد اداد نيرارى الثانى (٩١١-٨٩١ ق.م.) فاتحه عصر جديد للدولة الأشوريه، تعاظمت فيها قوتها السياسية وإتسعت حدود دولتهم كما تنامت حضارتهم وتأثيراتها على المنطقة. ويمكن تقسيم هذا العصر إلى مرحلتين تبدأ أولاهما بعهد أداد نيرارى تنتهى على عهد شمش الداد الخامس، ثم المرحلة التالية لها والتى تمتد بعد مرحلة النقلة والتدهور السياسى بين المرحلتين وتنتهى بالسيادة البابلية فيما يعزى بعض الإحياء البابلى.

وبادئ ذى بدء، فإنه يمكن القول أن عهد اداد نيرارى الثانى لم يكن ليعد علامة من علامات بداية أزدهار آشور لولا جهود والده آشور دان، بحيث تهيأ لعهده كل عوامل الإنطلاق التى استغلها اداد يزارى خيرا استقلال فنراه يفك حدود دولته من أسرها متجها إلى الشمال الغربى صوب المرتفعات الشمالية حيث شعب القومانى الذى نجح فى تأديبه والقضاء على تهديده.

أما موقفه من بابل على عهد شمش - ميدامق فعلى الرغم من تجريده لحمله تأديبيه صوب الجنوب تستهدف على الأقل من الحد الجنوبى نحو نهر ديالى، إلا أن الأمر انتهى بعقد معاهدة تثبيت حدود بين الطرفين، غززتها زيجة سياسة تقليديه بين الأسرتين الحاكمتين. وتجدر الإشارة إلى أهمية هذه المعاهدة تحديداً لما تضمنته من موجز لتاريخ الصراع العسكرى بين بابل وآشور.

وفيما يتعلق بالآراميين فقد نجح فى ضم مدنهم الواحدة تلو الأخرى بعد ست حملات قام فيها بدفعهم بعيداً عند وادى دجله وجبال كاشيارى التى كانوا يهددون منها نينوى وعن منطقة الجزيرة حيث تم تحصينها من جديد

ومن كردستان التى تم دفعهم لما وراءها. ويذكر أنه استخدام أسلوب التجويع أو الحصار الاقتصادى إذا جاز التعبير فى إحدى حملاته ضدهم عن تضييق. وقد أثمرت سياسية حتى أن إحدى الإمارات الأمورية البعيدة عند ثنية الفرات جنوب قرقميش قد أرسل حاكمها من بيت أيديني (تل أحمد الحالية)، الهدايا خاطبا ود أداد نيراري.

وبعد وفاته أعتلى إبنه توكلوت نينورتا الثانى العرش حيث لم تمهله مدة حكمه القصيرة لست سنوات أن يوسع نطاق حكمه، وإن نجح فى السير على نهاج سابقة إذ سعى للتأكيد على سيطرة آشور على مناطق الجبال الشرقية والشمالية، كما حد حدوده الجنوبية على حساب بابل حتى أوصلها لبغداد الحالية. كما سعت القبائل الأرامية المستقرة على ضفاف أنهار الفرات ودجله والخابور فى تقديم الهدايا والجنوبى تعبيرا عن خضوعها ل. ولعل طبيعة هذه الهدايا والجزء تدلل على حجم ثروة هذه القبائل الآرامية ونجاحها فى النشاط التمارس مع مناطق أخرى من جيرانها مثل بلاد العرب وفينيقيا وكليكيا. ومن ثم فقد صوت هذه العطايا الذهب والفضة والبرونز والقصدير والصمغ والأثاث العاجى المطعم بالأحجار الكريمة، والحديد والمنسوجات فضلا عن قطعان الأبقار والأغنام والحمير وكميات الغلال. أما الخيول فلم يتأكد أنها كانت ضمن عطاياهم على هذا العهد، وإن كان توكلات نينورتا لم يعدم الحصول عليها على نطاق واسع بلغ الآلاف من المناطق الشمالية مما ساعد آشور على إستخدام العجلات الحربية بشكل كبير.

وعلى أيه حال، فقد ورث أبنه اشور ناصر بال الثانى (٨٨٣-٨٥٩ ق.م.) دولة ممتدة فى شمال العراق لتشمل بدورها المنطقة من زاجروس إلى الخابور ومن نصيبين حتى تكريت أو ربما سامراء. وكانا على الملك الجديد عبء مهمة توسع حدود الإمبراطورية، وهى المهمة التى شغلت النصف الأول من عهده الممتد لحوالى ربع قرن.

ومن ثم فقد اتجه بقواته نحو منطقة المرتفعات الممتدة من شرق أربل إلى شمال غرب نينوى، أى شمال كردستان الحامية. أما حكام بيت أدينى، فقد حاولو شق عصا الطاعة عليه، مما دفعه لدحر تمردهم وتعيين حاكم آشورى عليهم. ولم يفته أن يكسب ولاء المدن الممتدة جنوبا عبر نهار الخابور. ويبدو أن قد جنى الكثير من إخضاع بيت أدينى حتى أنه وصف غنائمها بأنها «كنجوم السماء، تستعصى على الحصر».

ولقد ساعده هذا المد العسكرى عبد الخابور إلى الإستيلاء على منطقة كاشيارى ومناطق شمال دجله، لاسيما بعد هجوم أحد المتمردين على إحدى الحاميات الآشورية بالمنطقة. وقد أعمل فيهم القتل والنهب والتعذيب الجسدى، كما بنى حامية عسكرية لضمان السيطرة على المنطقة بعد تركها، ولقد كانت هذه الحافة بمثابة قاعدة عسكرية لانطلاقه ومخزن لمن قواته بالمؤن والعتاد اللازمة لها.

كما مد سلطانه إلى المنطقة الشرقية عبر جنوب كردستان لتشمل المنطقة شرق شمال وشرق كركوك. وهو الأمر الذى مكن الآشوريين من توسيع المنطقة الدفاعية حولها عبر زاجروس من أعالى ديالى حيث الحدود مع بابل إلى أعالى الزاب الأدنى.

أما توسعه غربا نحو ساحل البحر المتوسط، فكان بمثابة أحياء لسياسة سلاله عبر هذه الدروب التى لم يطأها واحد منهم مند عهد تجلات بلا سر الأول، أى لقرنين من الزمان. وقد نجح بجيشه إختراق المنطقة عابراً الفرات حيث إقليم قرقميش، حتى وصل إلى مدينة صور عبر سهل الأورنت وجبال لبنان.

وبالرغم من فرضه الجزية على المدن الآشورية عبر مسيرته الطويلة بالمنطقة

وحتى جنوب صور، إلا أنه تحوطا للأمر كان يأسر بعض أبناء حكام تلك المنطقة كضمان لأمنه وسلامته عبر أراضيهم.

وهكذا نجح آشور ناصر بال فى تأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف، بعد نشاط عسكرى متميز أعقبه بعده حملات تأديبية خلال النصف الثانى من عهده لتوكيد سطوته وتأمين حدود إمبراطوريته. وتجدر الإشارة إلى ماذهب اليه G.Roux من أن تأسيس الإمبراطورية الآشورية لم يكن وفق خطة منظمة ولكنها نتيجة استتبعت السياسة الدفاعية التى بدأ بها حكام آشور عهودهم. كما أنهم أهدروا القيم الإنسانية بما أنتهجوه من تعذيب وقتل وتشريد ضد المدن التى غزوها. وإن كانت غزواتهم قد توافقت مع التوجه الدينى الذى يرى أن مملكة آشور على الأرض توازيها مملكة المقدسة فى السماء، وإن التوسع كان يعنى تحقيق هذه الغاية المقدسة على الأرض بما يتفق ومكانه الآله السامية فى السماء.

بيد أنه إذا ما كان لنا من تعليق حيال هذا الرأى، فيمكن القول أنن السياسة الدفاعية الوقائية كانت مسألة أساسية قبل الشروع فى أيه توسع، لأنها أساس الإنطلاق فيه. فمن غير المتصور أن يبدأ أى حاكم مهما أوتى من براعه عسكرية هجومه قبل تأمين حدوده. كذلك فإن التوسع جاء متواكبا مع طبيعة الظروف السياسية بالمنطقة والتى شجعت آشور على تقوية وضعها طالما أن ماحولها من ممالك كان يتعرض لصعوبات تحول دون مناوءتها.

أما المعاملة اللاإنسانية حيال معارضيهم، فلم تشملها النصوص المعاصرة إلا فى حملة واحدة من حملاته رغم حرص المؤرخين المحدثين على صبغ كل حملاته بها محاولين توكيد ماجاء به العهد القديم حيال آشور وبابل لقيام كلتا الدولتين بالقضاء على مملكتى بنى اسرائيل بالمنطقة وهى دولة إسرائيل

ودولة يهوذا على التوالى. أما من الناحية الدينية، فهو أمر كان يمثل سمة كل أعمال ملوك التاريخ القديم، الذين كانوا دائما ما يخرجون على رأس حملاتهم باسم الههم المعبود ويعزون النصر المحقق إلى مباركته أياهم. ومن ثم، فلم يشذ حكام آشور فى ذلك عن أقرانهم حيال معبودهم الأله اشور

وعلى أيه حال، فلقد كان لآشور ناصر بال أسهامات العمرانية الرائعة، والتى تمثل عاصمته الجديدة من أهم تلك الإسهامات. فقد إقتضت إحتياجات الدولة الجديدة وجود عاصمة شمالية الأمر الذى حدا به لإختيار موقع كالخو (مزود الحالية، ٢٢ ميلا جنوب الموصل) لبناء مدينة جديدة، على أطلال المدينة القديمة التى أقامها شلمنصر الأول فى ذات المكان. وهذا الموقع يتمتع بميزات استراتيجية لاتقتصر على كونه فى الشمال، بل أيضا لوقوعه فى الزواية التى يتلاقى عندها الزاب الأعلى من الجنوب بنهر دجله من الغرب ولقد أمدها بالمياه عبر قناه تصلها بالزاب الأعلى شقت خصيصاً لهذا الغرض، فضلا عما أضافته من حماية للمدينة. ولقد أقام فيها العديد من الأبراج والقصور والمعابد إلى جانب الزقورة الرئيسية، كما كشفت الحفائر عن العديد من اللوحات الجدارية التى سجلت جلائل أعماله كجانب دعائى يتفق مع ولعه بالعمران والذى تبدى واضحاً فى آثارهذهن المدينة

وجدير بالذكر، أنه قد توفر على بناء هذه العاصمة آلاف من العمال والحرفيين والفنانيين من كل أرجاء الإمبراطورية لاسيما سوريا. كما أن إفتتاحها عام ٨٧٩ ق.م. كان مظاهرة دعائية لآشور ناصر بال جمع قيامها ما يقرب من سبعين آلف شخص من مختلف الأقاليم حوله ولمدة عشرة أيام كاملة، أو ربما أسبوع على رأى آخرش.

ولقد أقام شلمنصر الثالث فى ذات القصر الذى بناه والده بالعاصمة وذلك خلف له عام ٨٥٩ ق.م.، واقتضت سياسته العسكرية التركيز على

الجبهتين الغربية والشمالية الغربية بشكل أساس. حقيقة أنه تلقى بداية العديد من العطايا من صور حملتها إليه سفنها، إلا أنه عندما حاول من سطوته فى الأقاليم السورية الجنوبية جابه تحالف شديد المراسى عند قرقر على نهر العاصى من ملك إسرائيل آهاب وطدت السورية والفلسطينية بزعامة هداد - أزار حاكم دمشق ولم تكن هذه هى الجولة الأولى والأخيرة فى هذا الاتجاه، بل أن الصدام تجدد مرة أخرى نتيجة لعدم إحراز شلمنصر نصراً مبرحاً من ناحية، وكذلك لسيطرته على مدن المنطقة الشمالية الغربية فى قرقميش وبيت أدينى وضمها لحظيرة النفوذ الآشورى بما كفل له السيطرة على طرق التجارة لآسيا الصغرى وهو الأمر الذى هدد مصالح المدن السورية من ناحية أخرى.

ولقد تخلل جولتيه الغربيتين حملتان تأديبيتان من نحو بابل وجنوبها حتى مداخل الخليج العربى. ثم اتجه بعد ذلك لدحر التحالف السورى ونجح فى هزيمة دمشق، وهو الأمر الذى دفع ملوك بقية مدن المنطقتان كصور وصيدا إلى دفع الجزية وسار على منوالهم فى أرسال الهدايا ملكا إسرائيل ومصر.

كما جابه شلمنصر سلسلة من التهديدات عبر جبهته الشرقية والشمالية الشرقية ممثله فى الميديين والفرس وكذا مملكة أورارتو الواقعة وسط جبال أرمينيا عبر الأمانوس وطوروس. ولقد بدأ بهذه الأخيرة التى تعرف عنها من المصادر الأشورية على عهد شلمنصر الثالث أنه دحر مدنها على عهد ملكها أرامو، وإن خلفه ساردورى الأول قد خلف بعض النقوش من عهده فى عاصمته الجديدة توشبا.

أما حملته ضد القبائل الإيرانية من الميديين والفرس الذين استوطنوا آنذاك المنطقة المحيطة ببحيرة أورميا، فقد نجك فى تأديبها وترويضها لصالح الإمبراطورية الآشورية حيث لقبت دوراً رئيسيا فى جلب اللازورد من أفغانستان للعرق ولقد كان تركهم فى الواقع مثلما الحال مع أورارتو فرصة لتقوية شوكتهم التى باتت تهدد آشور ذاتها بعد حين.

ولقد خيمت ظلال الحرب الأهلية والتمرد على آخر سنى عهد شلمنصر الثالث الذى تمردت عليه عدة مدن رئيسيه مثل آشور ونينوى وكركوك وأربل من بين ٢٧ مدينة، فضلا عن محاوله أحد أبنيه اغتصاب العرش. بيد أنه أوكل مهمة إنهاء هذا التمرد وذلك الصراع لوريثه شمش آداد الخامس (٨٢٣-٨١١ ق.م.). وقد نجح بالفعل فى ضرب مظاهر التمرد بل وتعداها إلى بعض النشاطات العسكرية على الحدود الشمالية الشرقية، ومع بابل التى حاولت استغلال الظروف فى آشور والتدخل فى شئونها متحالفة مع عيلام والقبائل الكلدانية والأرامية فى المناطق الجنوبية فكانت حملة عليهم فى اخر سنى حكمه التى قضت على التحالف وأن لم تقض على القوة الكلدانية والوليدة.

* * *

وبوفاته تبدأ مرحلة النقلة بين مرحلتى الأزدهار فى العصر الأشورى الحديث، وذلك بإعتلاء أبنه وخلفه اداد نيرارى الثالث عرش البلاد لسبع وعشرين عاما (من ٨١٠-٧٨٣ ق.م.). ولقد قضى منها خمس سنوات تحت وصايه أمه الملكة شامورامات. تلك الشخصية الأسطورية التى نسجها هيرودوت باسم سميراميس، ثم سار على نهجة ديودور الصقلى فى كتابه التاريخى فى القرن الأول قبل الميلاد. إذ يعزون لها صفات خارقة على المستوى الشخصى والإدارى (والعسكرى). وهو الأمر الذى فسره الباحثون فى ضوء المصدر الذى استقى منه هيرودوت معلوماته وهم كهنه بابل الذين كانوا متشيعين للملكة بابلية الأصل التى عملت على نشر كل ماهو بابلى فى مملكتها. ومن ثم فلا عجب أن تنسب إليها الكثير من جلائل الأعمال التى قام بها ملوك آشور بشكل بولغ فى تصويره حدا لايمكن تصديقه.

ومما لاشك فيه أن مثل هذه الشخصية المتسلطة كانت أحد أسباب ضعف الملكية فى آشور خلال تصريفها للأمور، وفرصه للمدن التابعة لها أن

تشق عصا الطاعة فى تمرد استهدف فى المقام الأول كسر حدة النظام الصارم الذى فرضته آشور على شعوب المناطق التابعة لها.

وعلى أيه حال، فلقد خاض اداد نيرارى الثالث عدة حملات ضد أولئك الأقوام المتمردين فى مدنهم، لاسيما المدن السورية التى أعاد فرض سيطرته عليها وجمع جزيتها لاسيما دمشق والمدن الفلسطينية وكذلك الفينيقين، وبنى اسرائيل. أما خيتا وقرقميش فيبدو أنهما تمتعا بشئ من تصريف الأمور بحرية بعيدا منه وإن دفعا له الجزية. كما اتبع نفس السياسة مع الفرس والميديين وكذا الكلدانيين جنوبا. بيد أنه من الأنصاف أن نؤكد على أن هذه الحملات كانت بمثابة حملات تأديبية أكثر منها توسعية بهدف إعادة توكيد سيطرة آشور على المناطق التابعة لها.

ولقد أعقب حكم اداد نيرارى فترة أربعون سنة تعاقب فيها على عرش أشور ثلاثة حكام لم تظهر خلالها آشور أية مبادأة حيال التوسع الإمبراطور، وإن كان هذا لايعنى بالطبع أنها كانت لقمة سائغة لمن حولها. بمعنى أن سمه هذه المرحلة التى صيغت أحداثها من خلال التعارض بين توجهات ملوك ضعاف أمام حكام أقاليم أقوياء ومن ثم كانت كل محاولات هؤلاء الملوك فى الجانب العسكرى ذات صيغة دفاعية أكثر منها هجومية، وهى سياسة اتت تجارها فى الحفاظ على حدود آشور داخل المنطقة مابين الفرات وشمالى دجله.

أما الملوك الذين أحرزت سياستهم هذا الوضع فهم على التوالى شلمنصر الرابع (٧٨٢-٧٧٣ ق.م.)، ومن عهده حمله قام بها أحد قادته لتأديب الأوراتيين ونسبها لنفسه دون ذكر لمليكه فى أول سابق من نوعها.

أما الثانى فهو آشور دان الثالث (٧٧٢-٧٥٥ ق.م.) والذى فشلت محاولاته والذى فشلت محاولاته حيال سوريا التى سيطرت على المقدرات الاقتصادية لتحارة المنطقة، كما أندلعت فى عهده الثورات فى بعض مدن الدولة.

أما الثالث آشور نيرازى الخامس (٧٥٣ – ٧٤٥ ق.م.) فقد تعرضت العاصمة كالخو لحرب أهليه وتمرد تزعمه حاكم المدينة ولاقى فيه الملك حتفه ليعتلى هو من بعده عرش آشور.

وجدير بالذكر أن هذا المغتصب كان يدعى بول حسبما أوردت اسمه النقوش المعاصرة وكتابات العهد القديم، إلا أنه أنتحل اسما للعرش هو تجلات بلا سر إشارة إلى السياسة التوسعية الذى ينتوى أنتهاجها. متمثلا فى ذلك أول حاكم حمل هذا الاسم.

بيد أن هناك رأى آخر ينسب هذا الحاكم الجديد إلى تسلسل الأسرة المالكة على أساس كونه الأخ الأصغر لآشور نيرارى، وإن هذا الأخير هو الذى اختاره لخلافته وهو مشرف على الهلاك. وعلى أيه حال، فأيا ما كان الأمر، فلقد أجمعت كل الآراء على كونه تجلات بلا سر من أفراد الأسرة الحاكمة وأنه باعتلائه العرش يدخل العصر الآشورى الإمبراطورية مرحلة الثانية، والتى شهدت أزدهارا على كافة المستويات، وهى مرحلة يمكن أن نميزها باطلاق مسمى «العصر الأشورى المتأخر» عليها كاصطلاح، وإن لم يستقر بعد بين الباحثين الذين يميز بعضهم هذه الفترة باسم «الأمبراطورية الآشورية الثانية».

* * *

امتدت فترة حكم تجلات بلاسر الثالث سبعة عشر عاماً من ٧٤٤–٧٢٧ ق.م.، نجح خلالها فى أن يقر سياسة جديدة لها صفه الثبات بدلاً من الأسراع فى شن الهجمات التقليدية على الأعداء التقليدية لآشور فى هذه المرحلة.

ذلك أن الوضع المتردى الذى وجد عليه البلاد فضلا عن غرسه الإدارى والعسكرى، قد شجعا. على القيام باصلاح إدارى استهدف منه تقوية السلطة الميمكن أظافر حكام الأقاليم الذى قويت شوكتهم إبان مرحلة النقلة.

وبالفعل عمد تجلات بلاسر إلى تقوية جيشه حتى يصبح بمكنته أقرار اصلاحاته الإدارية فاستعمل الآراميين كمرتزقه فى القوات الراجلة فى حين اقتصرت مجموعات الفرسان والعجلات الحربية فى معظمها على الأشوريين. ولقد كان قادة الفرسان يحملون لقب «راب شارثيى» وقد استخدمهم تجلات بلا سر لدحر نفوذ الحكام الإقليميين فى أقاليمهم. بل وقام بتعيين بعضهم على تلك الأقاليم بعدما قلل من مساحاتها بمضاعفة عددها، وكان فى ذلك ضمانا لولائهم له، على أساس أن هؤلاء الفرسان القادة كانوا صنيعة ولم يكونوا سليلى بيوتات الحكام المحليين.

ولقد حمل هؤلاء الحكام الجدد لقب «شاكنو» أى المُعين ولقب «بعل بيخاتى» أى سيد الإقليم، وكانت مهامه تضطلع أساساً بالإنابة عن الملك فى إدارة كل أمور الأقليم متخذا عاصمته مقراً له. ويعاونه مجموعة من الموظفين المدنيين والعسكريين على رأسهم نائبه، فضلا عن رؤساء المدن «القنو». أما المناطق التى تعذر دمجها فى الإمبراطورية فظلت تحكم بواسطة حكوماتها المحلية وبإشراف مشرفين يتبعون الملك يحملون لقب «قيبو». وكان للملك مجموعة من الرسل «القربوتو»، الذين يحملون أوامره لأقاليمه أو يعودون بتقارير حكام الأقاليم لسيد هم فيما يعرف بنظام البريد السريع الذى عرفته الممالك الجنوبية من قبل. وقد انسحب ذات الأمر على المدن ذات الطبيعة الدينية مثل آشور التى ترك حكمها لمجلس شيوخ برئاسه «الخزانو» (المحافظ)، فضلا عن وجود مشرف ملكى يحمل لقب معناه «الرجل المشرف على المدينة»، والذى كانت مهمته الأساسية هى مراقبة حسن سير العمل الإدارى بها، وبالطبع فلقد كفل له هذا النظام إلى جانب حسن تسيير وإدارة المقاطعات مركزيا، تدفقا منظما للجزى والضرائب أمكنه من الإنفاق على مشروعاته التوسعية.

ويبدو أن هذه المشروعات كانت من الفخامة والنجاح بدرجة جعلته يتبنى

سياسة التهجير لهؤلاء الأقوام وبأعداد هائلة بلغت ٦٥ ألف من الميديين و١٥٥ ألف من الكلدانيين و ٢٠ ألف من سوريا و ٨ آلاف أرامي. ولقد حاول أن يجعل من بعضهم قواما ثابتاً لجيشة، ليتفرغ المزارعون والعبيد للأعمال المدنية من ناحية ويحفظ أرواح أبناء الدولة الآشوريين من الضياع. فكان لهذا النظام الأشبه بنظام الجند المرتزقة أثرا بالغ السوء على الجيش الاشورى لتعدد عناصره وافتقارها للولاء والأنضباط، بما أنعكس بالسلب على كفاءة الجيش ذاته بعد ذلك.

أما عن نشاطه العسكرى فقد استهله جنوبا حيث المشكلة الحدوديه. الدائمة بين آشور وبابل، إذ نجح فى تثبيت حده الجنوبى لأبعد نقطة ممكنه مستغلا مشاكل بابل الداخلية، عبر ديالى ومن زاجروس إلى دجله. كما قام بمهاجمة الكلدانيين لأبعد من حدود بابل جنوبا، بعدما أطمأن إلى مساندة حاكم بابل ومؤسس أسرتها التاسعة نبو - ناصر الذى أعلن تبعيته لحاميه الآشورى الملك تجلات بلا سر.

أما ثانى نشاط عسكرى له فقد وجهه إلى شمال سوريا حيث نجح الأورارتو فى التقدم والإستيلاء على بعض المدن السورية الهامة مثل قرقميش وأرواد. ومن ثم، فلقد هاجم عام ٧٤٣ ق.م. أرواد وحاصرها لمدة عامين حتى سقطت فى يديه وتم ضمها لحظيرة النفوذ النفوذ الآشورى. ونظراً لأن أرواد كانت حلقة فى سلسلة التحالف الآرامى والحيثى ضده، فلقد قدمت له مدن دمشق وإسرائيل وشمال الجزيرة العربية فروض الولاء والطاعة ودانت له منطقة الساحل السورى وغرب سوريا بأكملها. حيث بنى قصرا فى أرواد وإتخذ منها عام ٧٤٠ ق.م. قاعدة لإحكام سيطرته على هذه المنطقة الهامة فى الجناح الغربى للأمبراطورية. وقد نجح فى ذلك بالفعل عندما عاودت ممالك منطقة جنوب سوريا التمرد فى حلف بزعامة المدن الفلسطينية فى غزة وعسقلان.

وقد دحر هذا الحلف عام ٧٣٤ ق.م. وأجبر أفراده على دفع الجزية، ثم تدخل بعد عامين لصالح مملكه يهوذا ضد دمشق وأجبر إسرائيل. وقد نجح فى تحويل دمشق وجزء من إسرائيل إلى مقاطعات آشورية، فى حين عين على بقية اسرائيل حاكما من قبله يدعى هوشيا.

ويبدو أن بابل قد صادفت صعوبات بوفاه نبوخذ نصر على يد أحد الحكام الأراميين الذى أعتلى عرشها ويدعى أوكين - زير، وقد حاولت آشور آستثارة شعبة عليه بوسائل عدة دون جدوى. الأمر الذى استلزم تدخل تجلات بلا سر العسكرى بعد فشل المحاولات السياسية لثلاث سنوات، حسبما أظهرت الرسائل المتبادلة بين العاصمة وموظفى آشور فى تلك الجهات. ولقد نجح تجلات بلا سر فى «الأخذ بيد مردوخ» تعبيراً عن نصره الذى فر على أثره أوكين زير إلى القبائل الجنوبية لبنى جلدته الذين آثروا مسالمة أشور، واعترفوا به ملكا على بابل. وبعد هذه الحملة بعامين أى عام ٧٢٧ ق.م.، مات تجلات بلا سر تاركا إمبراطورية ممتدة من تاريخ الخليج العربى إلى حدود مصر جنوبا وممتدة شمالا عبر سوريا إلى كليكيا والأناضول. وهو إمتداد بقدر ما عاد بمردود اقتصادى على الأمبراطوريه لسيطرتها على طرق التجارة بالمنطقة، إلا أنه تعارض مع مصالح مصر المباشرة بها فى دفع هذه الأخيرة لتأديب المدن الفلسطينية وجنوب سوريا ضد آشور. وهو صراع تحكم فى طبيعة العلاقات وتداعيات الأحداث فى المرحلة القادمة.

وعلى أيه حال فقد إعتلى العرش لأربع سنوات الملك شلمنصر الخامس. ويكتنف عهده بعض الأضطرابات المتمثله فى تمرد داخل مقاطعات الأمبراطورية ربما يرجع لفرضة أعمالا إجبارية على غير عادة أسلافه. كما أعترفت له بابل بالتبعية والملك كوالده سواء بسواء. ويبدو أن آثار ذلك الأضطراب قد دفع تابع أشور فى أسرائيل هوشيا إلى التمرد. الأمر الذى دفع

شلمنصر لمحاصرتها، وإن كانت فترة الحصار ونتيجتها غير مؤكدة. تماما مثل نهايته التى حدثت فى ظروف غامضه وكذلك طبيعة أرتباط من تلاه على عرش آشور بالأسرة المالكة.

على أيه حال، فبوفاه شلمنصر الخامس عام ٧٢٢ ق.م.، تولى الحكم سرجون الثانى لحوالى سبع عشرة عاماً (٧٢١-٧٠٥ ق.م.) وعلى الرغم من دعواه بأنه ابن تجلات بلا سر الثالث، ألا أن المصادر لاتميل إلى توكيد ذلك. ومن ثم فربما كان أحد قادة شلمنصر الخامس الذى انقلب عليه مستغلا ظروف البلاد الداخلية، ويصبح بالتالى مؤسسا لسلالة آشوريه جديدة حكمت أمبراطوريتها حتى نهاية وجودها السياسى.

وايا ما كان الأمر، فقد كان على سرجون مواجهة تحالفات مختلفة وعلى عدة محاور كنتاج طبيعى لسياسة التوسع التى خاضها تجلات بلاسر والتى قوضت المصالح الاقتصادية لكثير من دول المنطقة. وأهمها بالطبع مصر وعيلام واورارتو والكلدانيين فضلا عن المدن السورية. بيد أن سرجون لم يشرع فى بدء حملاته إلا بعد ما رفع عن كاهل شعبه أسباب التمرد على عهد سلفه، فعفاهم من بعض الضرائب والخدمات الإجبارية حتى ولو كان ذلك على حساب خزانه الدولة.

وبعدما فرغ من المشكلات الداخلية تفرغ للوضع الخارجى والذى بدأ، بالتوجه نحو بابل لأقصاء مردوخ بالادان مغتصب عرشها وبمساعدة عيلام عام ٧٢١ ق.م. ورغم محاولةسرجون القضاء على هذا الوضع إلا أن الأمر استلزم عشر سنوات كاملة حتى ينهيه على الوجه الأكمل بإعادة الكرة مرة أخرى عام ٧١٠ ق.م. ويبدو أن خلال هذه المدة أدعى كل طرف سحقه للطرف الآخر، بيد أن المواجهه الأخيرة التى حسمت لصالح سرجون دفعته إلى محاولة تغيير كل النصوص الخاصة بغريمة والتى تشير إلى نصره على الأشوريين حتى يضمن لأساليبه الدعائية السالفة مصداقية سياسية.

أما الدويلات السورية، فقد أزكت مصر تمردها الواحدة تلو الآخرى ضد آشور، بيد أن سرجون نجح فى القضاء على زعماء التمرد وإسترجاع الوضع فى فلسطين تحت سيطرته، ساعده فى ذلك تغير الظروف فى مصر بتولى الأسرة الخامسة والعشرين النوبية حكم البلاد، والتى أستهلته بتسليم أحد زعماء سوريا الهاربين فى مصر إلى الملك الآشورى كعربون لصداقة بين البلدين لن تدوم طويلاً.

أما مشكلته مع أورارتو فقد حسمها بحملته الشهيرة عام ٧١٤ ق.م. والتى عبر فيها الزابين الأعلى والأدنى بعدما يمم وجهه شرقا ومنهما إلى جبال زاجروس.حيث هاجم شرقها دولة المانائيين التى كانت تمثل منطقة عازلة بين الدولتين المتعاديتين؛ أورارتو وآشور،ودان حاكم المانائيين بالولاء لسرجون. وقد استمر سرجون فى زحفه شرق بحيرة أورميا بدلا من غربها حيث إحدى الحاميات الأورارتيه، وهناك دخل فى مواجهة مع إحدى فرق الأعداء التى تحمى المنطقة الجبلية جنوب تبريز. وقد كلفه هذا الزحف بعداً عن قاعدته الأساسية فى كالخو لمئات الأميال فى مناطق ذات طبيعة وعره، وهو الأمر الذى ألب عليه بعض جنوده وكاد يحدث فرقه بين صفوفه. ولقد حاولت أورارتو استغلال الموقف وبث الفتنه ين صفوف جيش سرجون، بل ومحاولة اقتحام صفوفه إلا أن جيوشها وحلفاؤها منوا بهزيمة شتتهم فى الجبال. الأمر الذى شجع سرجون للتقدم والدوران حول شمال بحيرة أورميا، ثم غربا نحو زاجروس ليخترق أرض أورارتو مباشرة. ولقد أزعج هذا الأمر الملك الأوروتى ويدعى روسا، ففر هاربا من العاصمة توروشبا لائذا بالجبال حتى لقى حتفه.

وعلى الرغم من عدم تحديد طريق العودة الذى إتخذته جيوش آشور، إلا أنه أيا كان الطريق فإن جيش آشور قد تتبع فيه فلول الأورارتيون، وأعمل فيهم

وفي مدنهم القتل والحرق والأسر والتعذيب، بحيث جعلوا المناطق التى وطئوها آثراً بعد عين، بعدما خربوا الدور وأهلكوا الزرع والنسل. وكانت أهم المدن التى نفذوا فيها هذه السياسة هى مدينة موصاصير المقدسة، حيث مستقر عبادة الاله هالديا معبود اورارتا الوطنى. الأمر الذى كفل له الحصول على غنائم ثمينة لاسيما من الآنية المعدنية فضلا عن تمثال الآله ذاته، كعلامة لضياع مملكته.

ولقد كان رد فعل إنتصاره على أورارتا، وجود نوع من العلاقة الدبلوماسية بين آشور ودولة موشكى التى ساعدها وموقعها فى تكوين ثروة من تجارة الترانزيت لقوافل التجارة بالمنطقة الغربية. وقد نجح سرجون الثانى فى تحييدها ليتفرغ لضرب منطقة شمال سوريا بزعامة قرقميش، بحيث لم يبق أمامه من مشكلات سوى بابل.

ذلك أن مردوخ بالاداان حاكم بابل كان قد أشاع الذعر وأغتصب الأراضى من حوله، وألب المدن على آشور الأمر الذى دفع سرجون الثانى لإتخاذ موقف حاسم حياله هو الأخر، لاسيما بعدما أستراح من تهديدات اورارتو والتزام المصريين والعيلاميين والميديين بعدم مناوءته وإيثار المسالمة. وبالفعل هاجم بابل عام ٧٠٧ ق.م. وفر حاكمها للجنوب وعندما وجد أصراراً من سرجون على تتبعة، دفع له جزية كبيرة مقابل بقاءه حيا، حيث استقر فى عيلام.

ولقد كانت لانتصاراته الحاسمة أصداءها التى جعلت منه ملئ السمع والبصر، حيث دان له بالولاء والطاعة حكام فريجيا ودلمون وقبرص.

أما أهم أعماله الإنشائية الخالدة فهى عاصمته الجديدة التى أطلق عليها اسم «دور سرجون» أى حصن سرجون. وقام بوضع الأساس لها عام ٧١٧ ق.م. وتبعد ١٢ ميلا شمال شرق نينوى عند منطقة خورسباد. وقد استغرق

بناؤها عشر سنوات. ومما لاشك فيه أن انتقاله من كالخو العاصمة الإدارية والعسكرية السابقة كان دلاله على نظرته السياسية الثاقبة. ذلك أن بقاء كالخو كعاصمة زهاء قرن ونصف قد أوجد طبقة من الإقطاعيين ذوى الإمتيازات والنفوذ من ناحية فضلا عن أن سرجون ذاته كان ينتمى لتلك الطبقة، إذا ما رفضنا كونه إبنا لتجلات بلاسر الثالث. وهو الأمر الذى كان سيجعل نفوذه قلقا حيال أطماع معاصرية بما سيؤثر حتما بالسلب على عرشه. كذلك فإن جبال طوروس لاتبعد عن نينوى إلا بحوالى ثلاثين ميلا، وخلفها يقبع الخطر المحدق من قبل دولة الأورارتو والذى نجح سرجون فى قمعه عام ٧١٤ ق.م. حسبما أسلفنا.

وعلى أيه حال، فلم يمهل القدر سرجون الثانى ليهنأ بعاصمته الجديده. إذ قام عام ٧٠٥ ق.م. لدفع خطر جديد قادم من الشمال عبارة عن موجة جديدة هندواوربية عرفت باسم السيميريون Cimmerians (جومر فى العهد القديم) حيث إجتاز جبال القوقاز والأناضول حتى الجانب الشرقى من البحر الأسود، والحقوا الهزيمة بالأورارتيين، وهددوا حدود آشور. وبالرغم من غموض المعلومات حول حملة سرجون على هؤلاء الأقوام، إلا أنه يبدو أن سرجون الثانى قد لاقى حتفه خلال هذه المعارك. لاسيما وأن هؤلاء السيميريون قد نجحوا فى التوغل داخل آسيا الصغرى بعد ذلك.

وعلى أيه حال، فقد خلفه إبنه سنحريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م.) ومعنى اسمه «الاله سن عوض موت الأشقاء» بما يوحى أنه لم يكن الأبن الأكبر لأبيه، ولكنه كان ذا موهبه عسكرية وإدارية تفوق أقرانه ولم يضع الوقت فور توليته العرش إذ أنفذ أربع حملات ضد السيميريين الذين كانوا قد تفرعوا إلى فرعين فى الشمال والغرب مختلطين مع الفريجيين والمينائيين والميديين والليديين. ولقد نجحت حملاته فى إطار المستهدف منها وهو عملية التأديب فحسب.

أما توجهه الرئيسى فكان حيال مدن الساحل الفينيقى وإسرائيل وفلسطين الذى أنشقوا عن التبعية لآشور فور وفاة سرجون الثانى. وقد وجه سنحريب حملة هزمت هذه المدن وكذا الجيش المصرى الذى كان يساندها. ثم إتجه إلى مملكة يهوذا فدخلها ثم حاصر أورشليم التى تفاوضت معه على فك الحصار مقابل دفع جزية كبيرة له. ويبدو أنه أراد أن يهاجم مصر فى داخل حدودها لولا أن فتك الطاعون بجنوده وهم معسكرين عند الفرما (بلوزيوم) لحوالى ٣٠ ميلا شرق قناة السويس.



لوحة رقم (٢٠)

جزء من منظر بقصر نينوى يصور سنحريب فى فلسطين

أما بابل وعيلام فقد عاودا نزعة التمرد ضد سنحريب لاسيما بعد عودة مردوخ بالادان ثانية، ليقود القبائل الكلدانية ضد آشور. فما كان من سنحريب إلا أن حمل على بابل حملة شعواء عام ٧٠٣ ق.م. ولم يترك عليها من

الأعداء ديَّاراً، وعاد بحوالي ٢٠٨٠٠٠ أسير إلى آشور، بعدما نصب على بابل حاكما من قبله. إلا أن التمرد الكلداني لم يهدأ وعاود الكرة مرة أخرى فعاد إليه سنحريب وتكرر نفس الأمر بطرده، لينصب هذه المرة إبن سنحريب على عرش بابل. بيد أن الأمر استلزم من سنحريب أن يتوغل لأبعد من بابل فى محاولة لدحر عيلام وتأمين سواحل الخليج العربى من تهديدات إحدى أسر الإقليم البحرى الحاكمة.

فكانت حملته على عيلام براً وبحراً عام ٦٩٥ ق.م. التى كللت بالنجاح، لولا أن العيلاميين هاجموه فى بابل فما كان منه إلا أن حاصرهم داخلها لتسعة أشهر، ثم فتحها ودمرها كلية بعد ماتأكد من موالاتها لاعدائه وخربها باطلاق مياه الفرات عليها، وذلك عام ٦٨٩ ق.م. أى أن صراعه مع عيلام قد استغرق سبع سنوات كاملة.

ويبدو أن إنتهاك حرمه آلهه سومر وأكد وتدمير بابل قد حق على سنحريب عقاب الآلهة، إذ تعرض عام ٦٨١ ق.م.، للاغتيال بعد أزمه سياسية من جراء الصراع على العرش بين أبنائه. إلا أن الجدير بالذكر أنه هذا الملك المحارب قد ترك بصمة حضارية تحسب لعهده بما قام به من توسعات بمدينة نينوى، التى شهدت كافة جنباتها اسهامات فنية رائعة لم تخل بالطبع من تمثيل هذا الملك العظيم وتخليد أعماله. وتدلل أيضا على مدى استفادته من الفنيين السورين. كما قام بإقامة مشروع كامل للرى لتوفير المياه لحدائقها الشاسعة. ولم يقتصر الأمر على نينوى، بل أمتد إهتمامه إلى إربل وغيرها، بحيث لم تخل مدينة أشورية من إسهام سنحريب المعمارى.

وعلى أية حال، فلقد تجاوز أبنه أسرجدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م.) الأزمة السياسية، وتخلص من صراع أخوته عل العرش وإعدام من والاهم. ثم استهل أعماله بترضية بابل فأعاد إعمارها وبناء أسوارها وقلد حكامها فى حمل السلة

وأدوات البناء دلالة على التشييد. كما أعاد الفارين منها وأعفاهم من الضرائب. كما إسترضى إلهها المعبود مردوك، بأن وسع رقعة المدينة على الأرض بما يتوافق بالطبع مع منزلته فى السماء.

ولقد إتبع ذات السياسة السلمية فى المنطقة الشمالية الغربية والشمالية رغبة منه فى كسب حلفاء جدد وكسر حدة عداوتهم لآشور، وأثمرت سياسته معاهدة صداقة مع ميديا، وأخرى مع صور. فى حين التزمت سوريا وفلسطين جانب السلم. فضلا عن تبعية دويلات شمال الجزيرة العربية وشرق الأردن لآشور، وهو الأمر الذى مكن لاسر حدون من السيطرة على طرق تجارة البخور والتوابل القادمة من جنوب الجزيرة العربية

بيد أنه لم يشذ عن هذا الوضع السلمى فى سياسة اسرحدون سوى علاقته مع عيلام التى حاربها ونصب عليها حاكما من قبله، والسميريين ومدينة صيدا، حيث جنح لتأديب محاولاتهم للخروج عن طاعته. أما مصر، فقد دفعته رغبته فى تأمين طرق التجارة بين الجزيرة العربية والساحل الفنيقى إلى مهاجمة مصر عام ٦٧١ ق.م. على عهد طهارقا حيث حاصر منف وفتحها، وفر طهارقا إلى طيبه. وعاد سيرته الأولى فى مناوئة النفوذ الأشورى، فعاود أسرحدون بدوره الكره عام ٦٦٩ ق.م. مجهزا حملة عسكرية إلا أن القدر لم يمهله.

ويبدو أن أسرحدون أراد أن يتلافى أبناءه ما وقع فيه وأخوته من صراع على العرش، لذا فقد أختار ولده آشور بانيبال وليا للعهد وأشهد على ذلك كبار رجالات الدولة، ونصب إبنه الثانى شمش - شوم - أوكين ملكا على بابل. وأخذ على ذلك القسم والعهد أمام الالهة، وحدد عقوبة لمن يحيد عن هذا الإتفاق.

وبالفعل إعتلى آشوربانيبال عرش البلاد خلفا لوالده عام ٦٦٨ ق.م. وقد أخذ على عاتقه إنهاء الزحف على مصر الذى لم يكتمل على عهد والده. وبالفعل جهز جيشا جراراً من المدن السورية وزحف عام ٦٦٧ ق.م. على منف واستولى عليها بعدما أخضع أمراء الدلتا بزعامة نخاو أمير سايس، الذى إستماله إلى جانبه ودعاه إلى نينوى حيث عاد محملاً بالهدايا ومتعهداً بالتبعية لآشور هو من والاه.

أما طهارقا فقد فر إلى طيبة، وحاول إعادة الكرة ضد سيطرة آشور على شمال مصر، لولا أن قضى نحبة فأكمل الأمر زوج ابنته تانوت أمون (تاندمان بالأشورية). إذ إستولى على منف وهدد سطوة آشور على مصر الأمر الذى دفع آشور بانيبال هذه المرة إلى تعقبه ليس عند منف فقط بل إلى طيبة حيث دخلها وخربها تخريبا لم تفق منه المدينة بعد ذلك، فى حين هرب هذا الحاكم إلى حيث مستقر أجداده الأول فى النوبة. لتخضع مصر لآشور عام ٦٦٣ ق.م.

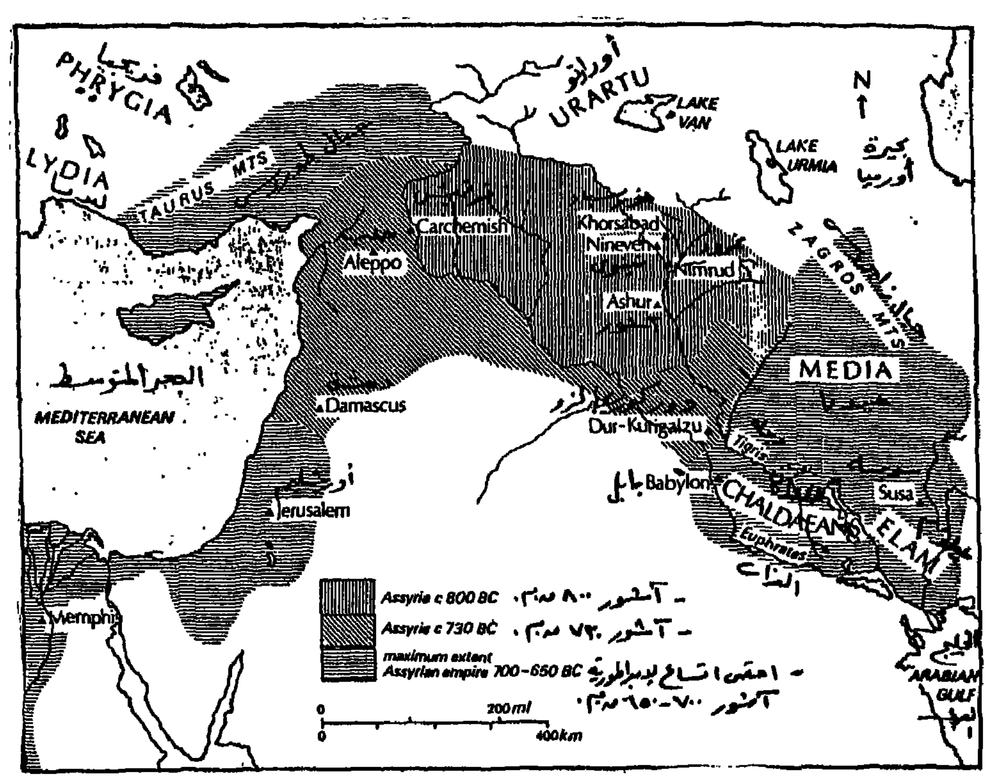
أما السميريون فقد أستعان آشوربانيبال عليهم بحليفه حاكم ليديا الذى تهدد ملكه من غزوات هؤلاء الأقوام. وقد نجح بالفعل فى دحرهم وإرسال جريتهم لمليكه فى نينوى والتى تضمنت أثنين من حكامهم إلا أن حاكم ليديا سرعان ماتحول لمناصرة مصر على عهد ابسماتيك الحاكم الوطنى للأسرة السادسة والعشرين المصرية لاسيما وأن هذا الأخير قد عزم على طرد الحامية الآشوريه من مصر إشارة لاستقلالها. كما أن مصالحة قد أقتضت استعانته بالمرتزقة من اليونان وآسيا الصغرى مما قرب فرص التحالف مع الحاكم الليدى. إلا أن هذا الوضع الجديد قد أثار حفيظة أشور بانيبال فترك حليفه ملك ليديا نهبا لهجمات السميريين الذين قضوا عليه على مملكته، فى الوقت الذى طهرت مصر من الإحتلال الأشورى إلى غير رجعة عام ٦٥١ ق.م.

أما علاقته مع عيلام، بؤره الإضطرابات فى جنوب غرب إيران، فقد

بدأت سلمية ووصلت إلى حد إرساله مساعدات لأهلها نتيجة لتعرضها لبعض الأزمات الاقتصادية التى هددت حياة أهليها. إلا أن حاكمها استغل إنشغال آشور بانيبال فى حملاته ضد مصر، وتحالف مع القبائل الكلدانيه والآراميه المناوئة لآشور. مما إستدعى إرسال الجيش الآشورى لدحر هذا الخطر العيلامى وحلفاءه فى جنوب العراق. بيد أن هذا الأمر قد أثار حفيظة حاكم بابل والأخ الأصغر لأشور بانيبال واعتبره تدخلا من أخيه فى شئون منطقة نفوذه.

والواقع، فإن ترتيب أحداث الصراع بين آشور بانيبال وأخيه وعيلام لاتزال أحداثه المتشابكة محل دراسة بين الباحثين لترتيبها ترتيباً تاريخيا. وإن كان الأمر فى المجمل قد إنتهى بهزيمة بابل وإنتحار الأخ الأصغر لآشور بانيبال بعد صراع دام ثلاث سنوات، وتم تعيين أحد أمراء الكلدانيين حاكما على بابل، كما جابهت جيوش آشور الجيش العيلامى فى عدة مواقع، حتى حسموا أمر عيلام عام ٦٣٩ ق.م. باجتياح سوسة وتخريبها كعمل انتقامى يتفق وحجم ما سببته من إرهاق لآشور حتى أنه نقل منها وحدات عسكرية كاملة إلى قواته. وتتخلل هذه الحروب مجابهات أخرى مع القبائل العربية التى كانت تناوئ نفوذ آشور بانيبال غرباً وكانت تساند أخيه ضده.

وهكذا نعم آشور بانيبال بثمار حملاته التى خاضها باسم آشور العظيم الذى إمتد إجلاله من سواحل بحر إيجه حتى صحراء الجزيرة العربية، وعادت على نينوى بخير عميم من غنائم مصر وعيلام وسوريا وغيرها. ويبدو أن آشور بانيبال قد أراد أن يحسن من صورته العسكرية الصارمه، إذ يعزى إليه الفضل فى جمع ونسخ كل الألواح ذات المدونات القيمة ليضمها إلى مكتبة نينوى. وقد كان هذا العمل خير مصدر للتعرف على ثقافة بابل وآشور، خلفه لنا ذلك الحاكم الذى حمل القاب «العظيم، الجبار، ملك الكون، حاكم بلاد اشور جمعاء».



لوحة رقم (٢١)

الإمبراطورية الأشورية فى أقصى إتساع لها

وقد إعتلى العرش خلفا لآشور بانيبال حاكم يدعى **اشور-ايتيل- ايلانى** ومعنى اسمه آشور بطل الآلهه (٦٢٧-٦٢٤ ق.م.)، والذى يكتنف عهده بعض الغموض. وإن كان خروج بابل من سيطرته أضحى لايحتمل الشك على يد حاكمها نبوبيلاسر الذى بدأ حربه ضد الأشوريون بجمع الحلفاء إلى جانبه. فأرسل إلى سوسة الهة عيلام الذين أسرهم الأشوريون من قبل، وتحالف مع ملك ميديا. بحيث بدأ زحفه حوالى عام ٦١٦ ق.م. أى خلال فترة حكم آخر حكام أشور ويدعى **سين-شار-اشكون** (أى الاله سين ثبت الملك) وحكم من ٦٢٣-٦١٢ ق.م.

ويبدو أن هذا الحاكم الأخير لم يكن مقبولاً كحاكم فى الداخل فى الوقت الذى كانت فيه الأحوال على حدودها الشمالية والشمالية الغربية مستقرة على ماهى عليه ولأول مرة منذ أمد بعيد. إلا أن طموحات وأستعدادات نبوبيلا سر حاكم بابل كان هى ناقوس الخطر الذى بدأ يدق بقوة مهدداً الكيان الآشورى الذى آل إلى الضعف والهوان.

ولقد استمر الصراع بين بابل وآشور إحدى عشرة سنه أى خلال عهدى آخر ملكين على عرش آشور. ولقد حاولت آشور أن تستعين بمساعدة مصر التى تحالفت معها من جديد فضلا عن بعض القبائل الآرامية على نهر الفرات. ولكن السيف كان قد سبق العزل، ولم تستطيع مصر تقديم عونا فعالا لآشور، كما أن الجيوش الآشورية بذلت أقصى ما فى وسعها لايقاف المد البابلى المتحالف مع الميديين ليجتاح الطرفان آشور عام ٦١٤ ق.م. ثم نينوى بعدها بعامين لتلقى بعد ثلاثة أشهر من الحصار مصير العديد من العواصم التى هاجمها ملوك آشور فى عنفوانهم، إذ أضرمت فيها النيران وسلبت ونهبت، لتسقط بعدها نمرود. أى أنه تم القضاء على العواصم الثلاث الدينية والإدارية والعسكرية. ولقيت بقية مدن آشور ما لقيته المدن الرئيسيه من دمار.

ولقد جاهد أحد أفراد الأسرة المالكة الآشوريه ويدعى آشور أوباليط الثانى فى الحفاظ على كيان دولته الزائله ولو إسميا، إذ أتخذ من منطقة حران بسوريا موئلا وأعلن مع عدد من قواته استمرار دولة آشور. إلا أن الإجتياح البابلى كان أقوى من مجابهته حيث خسرت آشور عند قرقميش آخر أمل لبقاء دولتها التى سقطت لتقوم على أنقاضها الدولة البابلية الجديدة.

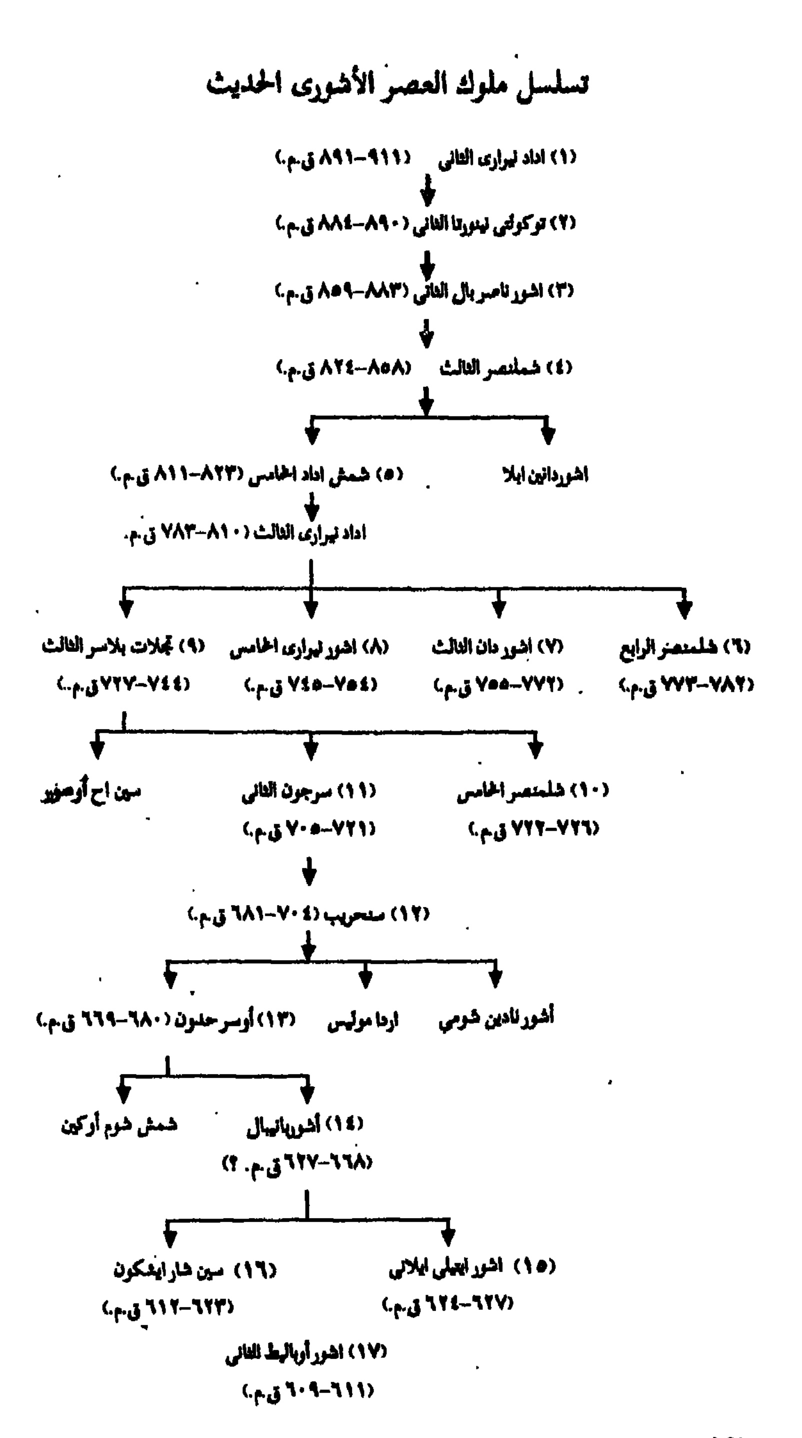
* * *

وهكذا تبادلت بابل وآشور الأدوار، بيد أنه إذاكان من أمر يجب الإشارة إليه فهو أن سطوة كل منهما ونجاحها في توسيع دائرة نفوذها لم يحد عن القاعدة التي بني عليها الكيان السياسي القديم للعراق وهو نظام الدولة المدينة. كذلك فإنهما كانتا تمثلان أمه وليس جنسا من الأجناس الذين ماجت بهم المنطقة، بما يعني أن أيه إنجاز حضاري لأي وحدة منهما كان يحسب في النهاية بالإيجاب في رصيد العطاء الحضاري لبلاد الرافدين.

تسلسل ملوك العصر الأشوري الوسيط

الملك	الفترة
١- آشور أو باليط الأول	١٣٢٨-١٣٦٣ ق.م.
٢- إنليل نيراري	١٣١٨-١٣٢٧ ق.م.
٣- أريك دن إيلي	١٣٠٦-١٣١٧ ق.م.
٤- اداد نيراري الأول	١٢٧٤-١٣٠٥ ق.م.
٥- شلمنصر الأول	١٢٤٤-١٢٧٣ ق.م.
٦- تكولتي نينورتا الأول	١٢٠٧-١٢٤٣ ق.م.
٧- آشور نادين أبلي	١٢٠٣-١٢٠٦ ق.م.
٨- اشور نيراري الثالث	١١٩٧-١٢٠٢ ق.م.
٩- انليل كودوري أوشور	١١٩٢-١١٩٦ ق.م.
١٠- نينورتا ابيل اكور	١١٧٩-١١٩١ ق.م.
١١- اشوردان الأول	١١٣٣-١١٧٨ ق.م.
١٢- اشور رش ايش	١١١٥-١١٣٢ ق.م.
١٣- نينورتا تكولتي اشور	؟؟ -١١١٥ ق.م.
١٤- موتا كيل نوسكو	؟؟ -١١١٥ ق.م.
١٥- تجلات بلاسر الأول	١٠٧٦-١١١٤ ق.م.
١٦- اشور بل كالا	؟؟ -١٠٧٦ ق.م
١٧- شمش اداد الرابع	٥٩٣- ؟؟ ق.م.
١٨- اشور دان الثاني	٩١٢-٩٣٤ ق.م.

تسلسل ملوك العصر الأشورى الحديث



الفصل الثامن

العصر البابلي الحديث



الفصل الثامن

العصر البابلى الحديث

تقديم

يميل البعض الى اعتبار الدولة البابلية التى اسسها ملوك السلالة الكلدانية بمثابة السلالة العاشرة لملوك بابل – او ربما الحادية عشرة فى سلسلة الدول البابلية منذ عصرها القديم. والجدير بالذكر أن هذه السلالات انما تشير الى عناصر بشرية متباينة تعاقبت على حكم بابل، واصبح المسمى الذى يجمعها مستندا على المدلول الجغرافى. بعكس الدولة الاشورية التى حافظت على كيانها كامة رغم تباين اوضاعها ككيان سياسى عبر مسيرتها التاريخية.

ولقد مر علينا اسم الكلدانيون فى الفصول السابقة لاسيما مع بداية القرن التاسع قبل الميلاد. وعرفنا ان مستقرهم كان فى جنوب العراق، وان يرى البعض أن اصولهم الأولى ترجع الى القبائل الارامية التى نزحت من جزيرة العرب واستقرت فى جنوب العراق. ورغم أتفاق معظم الآراء على موطن الاستقرار، الا ان منطقة الهجرة تظل محل جدل، فمن قائل انها كانت من جنوب الجزيرة العربية، ومن قائل بل من شمالها. فى حين يرى رأى ثالث أنهم هاجروا من عُمان اى من جنوب شرق الجزيرة العربية.

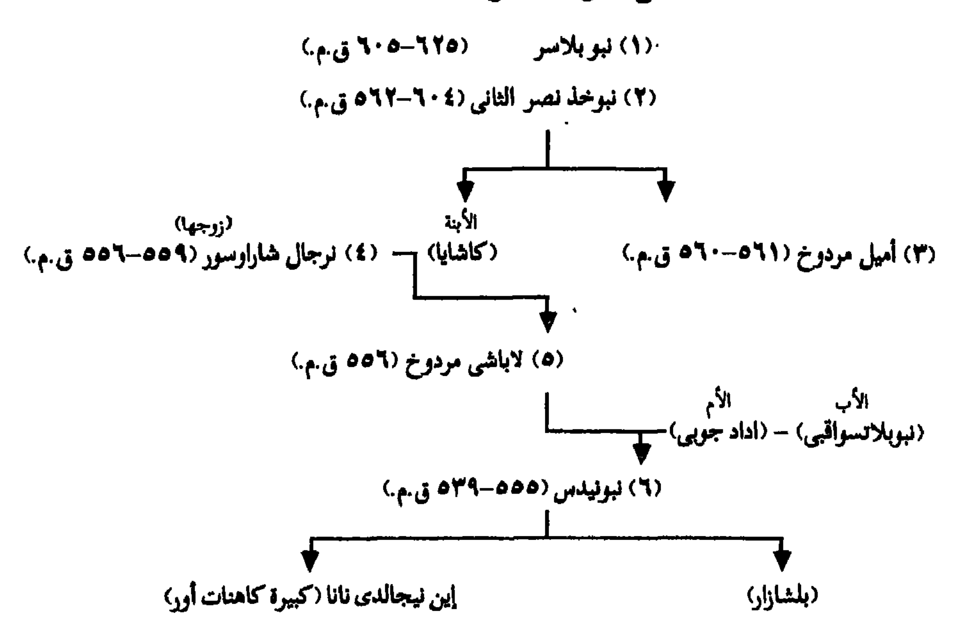
وعلى أية حال فان التعامل مع اقوام الكلدو (الكلدانيين) يرجع منذ بروزهم ككيان سياسى ابان العصر الاشورى وتحديداً من عصر آشور ناصر بال الثانى. حيث ظلوا يمثلون احدى القوى الأساسية التى عملت لها اشور الف حساب لاسيما عند تهديدها لبابل او تحالفها مع العيلاميين والاراميين، حسبما ذكرنا سلفا

وقد تأرجحت هذه العلاقة بين قتال ومعاهدات وبين صراع ومساندة وفقا لتغير الاوضاع الساسية حيث انتهى الأمر بظهور قوة نبو بلاسر الذى جمع قوة من حوله من الاراميين والميديين وغيرهم ممن ناصبوا اشور العداء، ونجح فى الاستيلاء على بابل، ثم اسقاط العواصم الآشورية تباعا فى عام ٦١٢ ق.م محققا سطوة جديدة بالمنطقة فى غضون الاربعة عشر عاما الأولى من حكمه والتى تلاها بصراع ضد النفوذ المصرى فى سوريا والمساند لفلول الاشوريين فى الأعوام الثلاثة التالية.

ولقد كان نجاح نبو بيلاسر فى تحركة العسكرى الطويل من بابل وحتى عواصم، آشور وسواحل البحر المتوسط، مؤذنا بقيام عصر جديد فى تاريخ العراق القديم تبوأت فيه بابل الصدارة السياسية مرة أخرى لما يربو عن قرن من الزمان، عرف باسم «العصر البابلى الحديث أو الدولة البابلية الجديدة».

العصر البابلى الحديث (الكلدانى)

تسلسل ملوك الدولة البابلية الجديدة



بعد ماحقق نبوبلاسر مراده لم يقم باحتلال اشور كما لم يقم بإعمار خرائبها، موجها اهتمامه لجنوب العراق فضلا عن بعض العمليات العسكرية اللازمة لتأمين انتصاراته، اما حلفاؤه الميديون، فقد قنعوا بما تحصلوا عليه من الغنائم والاسلاب ميممين وجههم شطر ارمينيا واسيا الصغرى، أى انهم لم يشاركوا بنوبلاسر السيطرة على الامبراطورية الاشورية البائدة.

ولقد ركز نبوبلاسر على توطيد نفوذه العسكرى على الاقليم السورى الذى كان يعلم تماما – فيما يرى احد الباحثين– ان الحفاظ على السيطرة عليه غاية فى الصعوبة مقارنة بالسيطرة عليه التى لم تكن يوما يسيره ابدا، ولقد عهد بهذه العمليات الجديدة الى ابنه وقائد جيشه نبوخذ نصر، قانعا بالبقاء فى بابل منذ العام التاسع لحكمه.

ولقد جرد ابنه حملة للاستيلاء على قرقميش ووقف الزحف المصرى على عهد نيكا والثاني – حسبما ذكرنا سلفا – نجحت فى ضم قرقميش وعدد من المدن الواقعة على الضفة اليسرى للفرات حوالى عام ٦٠٥ ق.م. الا أن الجيش المصرى أعاد الكرة واستعاد مناطقه المسلوبة فى سوريا لاسيما قرقميش بمعاونة فرق المرتزقة اليونان. فما كان من نبوخذ نصر الا أن هاجم الحامية المصرية بها واعمل فى افرادها القتل والفتك، وفرت فلول القوات المصرية عائدة الى مصر تتبعها القوات البابلية التى دانت لها السيطرة على كل سوريا وفلسطين حتى وصلت الى منطقة بلوزيوم على الحدود المصرية، او توغلت حتى دلتا النيل فى رأي آخر. الا أن وصول اخبار وفاة نبوبيلاسر دفعت نبوخذ نصر الى العودة قافلا نحو بابل ليصلها بعد ثلاثة وعشرين يوما حيث توج ملكا فى ذات العام ٦٠٥ ق.م.

ومما لاشك فيه ان عهد نبوخذ نصر (٦٠٤ – ٥٦٢ق.م) كان عهدا متفردا بذاته فى هذا العصر البابلى الجديد. ونظرا لتعدد المصادر التى تناولت اعماله، فقد حملت هذه المصادر صيغا مختلفة لاسمه، ففى العهد القديم يدعى (نبوخذ نصر) و(نبوخذ واصر) بمعنى (ليحمى الاله نبو التاج). اما المؤرخ اليهودى يوسيفوس فيطلق عليه (نبوكود دروسوروس) و(نبوخذ دونوسور). أما المصادر اليونانية فتطلق عليه (نبوكودورسوروس)، و(بنو خودروسورس) ونبوكوللاسسار) دون اشارة الى مدلول أو معنى. أما المصادر العربية فتطلق عليه اسم (بختنصر) بمعنى أبن الصنم. و(بخت نرسى) اى كثير البكاء و(نبوخذ نصار) بمعنى عطارد ينطق. اما الطبرى فيذكره باسم (بخترشه) دون الاشارة لمعناه.

اما المصادر السومرية فتعطيه إسمين؛ الأول (نبوكودورى اوصر) بمعنى نبوحامى الحدود، والثانى (نبوخذ نصر) بمعنى الوريث الشرعى او الابن البكر، وهو اقرب الاسماء الى الرجحان فضلا عن قربه من اسم والده.

وعلى اية حال فلم تتوقف مجهودات نبوخذ نصر العسكرية عما كانت عليه إبان عهد والده لاسيما فى الجبهة الغربية بعد ماضمن تأمين الجبهة الشمالية الشرقية على يد الخلفاء الميديين الذى عقد معهم تحالفا مكنه من التفرغ للجبهة الأخرى. ولقد كانت صلاته على الجبهة الغربية تستهدف وضع حد للتدخل المصرى المتكرر فيها، وتأمين طرق التجارة بين المنطقة السورية وأجزاء المنطقة الأخرى بما يعود بالنفع الاقتصادى على بابل. فضلا عن تأمين العمق الاستراتيجى لدولته بالسيطرة على سوريا وضمها للمملكة البابلية.

وهكذا وفى العام التالى لوفاة والده مباشرة كان نبوخذ نصر ينفذ الحملات ذات الطابع الوقائى الى سوريا والتى هدفت إلى استعراض من قوته وجمع جزى مدن الساحل السورى ومملكة يهوذا والمدن الفلسطينية. وقد نجحت هذه الحملات فى تحقيق المرجو منها باستثناء مدينة عسقلان التى عارضت الوجود البابلى، فما كان من نبوخذ نصر الا أن اتخذ من الاجراءات كتدمير المدينه واسر حاكمها ماجعلها عبرة لغيرها من المدن التى كان لزاما على حكامها التفكير عدة مرات قبل مناوءة بابل العداء او طلب العون من مصر، مثلما فعل حاكم عسقلان. كما حمل عددا ممن الاسرى اليهود ضمانا لخضوع ملكهم يواقيم.

ولقد ظلت هذه الحملات التأديبية سمة الزحف العسكرى البابلى على

المنطقة الغربية حتى عام ٦٠١ق.م. حيث زحف لمقابلة الجيش المصرى قرب الحدود المصرية، حيث لقى الجانبان خسائر فادحة جعلت نبوخذ نصر ينسحب عائداً إلى بلاده فى حين لم يكن بمكنة نيكاو الثانى التحرك نحو سوريا. ويبدو أن خروج هذه المعركة على هذا النحو قد شجع يواقيم ملك يهوذا، على شق الطاعة عن بابل وعدم دفع الجزية وتجديد التحالف مع مصر.

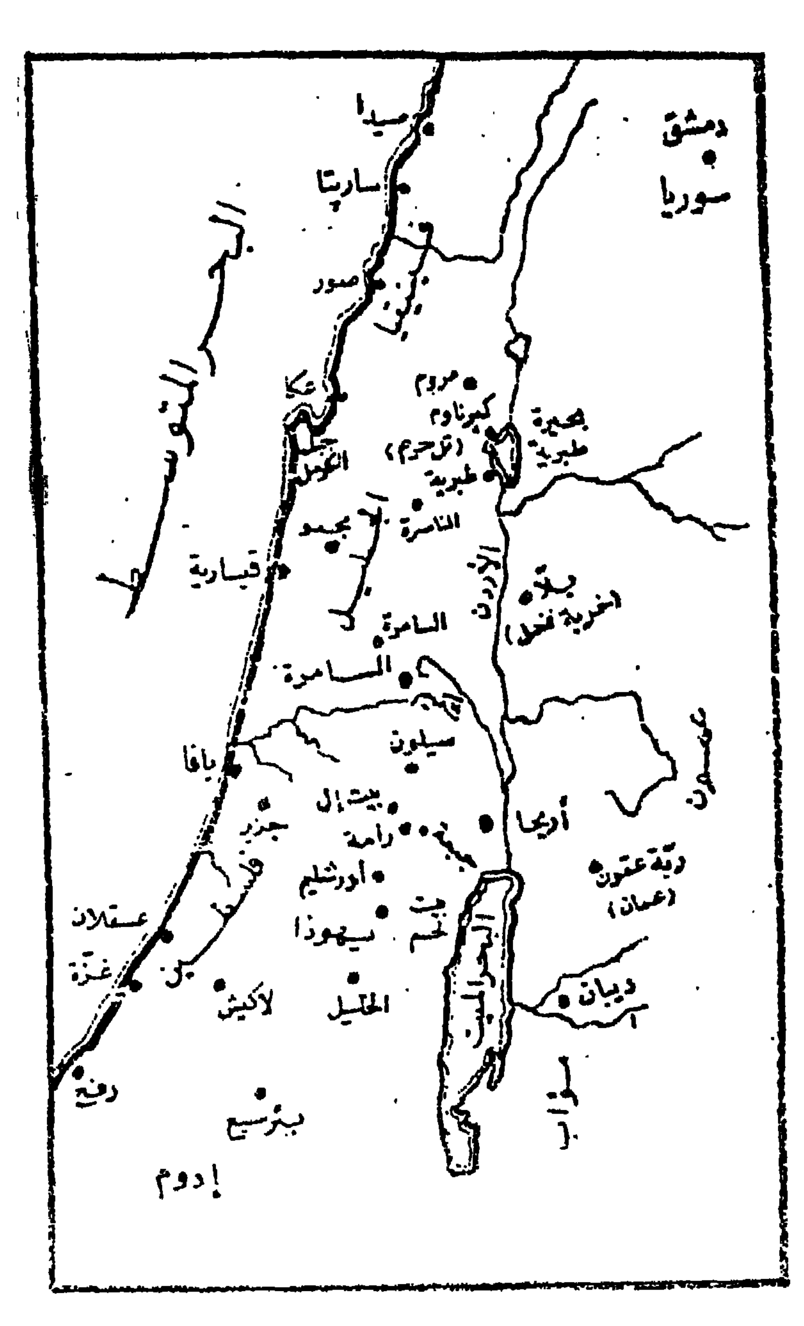
ولقد حفز هذا التمرد نبوخذ نصر عام ٥٩٧ ق.م على دفعه وإعادة الأمور الى نصابها، فاتجه صوب اورشليم واحتلها واستلب مقدراتها. ولم يكتف باسر الاسرة الحاكمة، بل قاد عددا من الاسرى بلغ حسب ذكر سفر الملوك الثانى عشرة الاف اسير فيما يعرف بالسبى البابلى الثانى. وعين على الحكم حاكما من قبله يدعى صدقيا، احد اعمام يواقين ابن يواقيم صاحب شرارة التمرد الذى مات قبل الحصار البابلى، وتحمل ابنه تبعه تمرده.

وخلال العامين التاليين يبدو أن صمت المصادر عن الاحداث كان يرجع الى بعض القلاقل الداخليه فى بابل من قبل بعض العناصر الكلدانية بمساعدة عيلام ضد نبوخذ نصر، حتى أن عامة العاشر للحكم (٥٩٥ق.م) قد شهد سلسلة من الثورات التى جابهها نبوخذ نصر بقوة وأعمل فى المتمردين سفكا وقتلا. وفى ذات الوقت كان النشاط المصرى على عهد ابسماتيك الثانى فى فلسطين تتصاعد حدته، ونجح بالفعل فى ضم صدقيا الى الجانب المصرى. ولم يكتف هذا الأخير بذلك بل جمع الى صفه صور وصيدا ومؤاب وعمون وايدوم.

ويبدو أن التحالف لم يؤت ثمارة على النحو المرجو اذ انسحب ملك ايدوم، فى حين كان ضرب صدقيا كفيلا بدحر المدن الأخرى، وبالفعل جهز نبوخذ نصر جيشه عام ٥٨٩ق.م وحاصر اورشليم التى كان كبار

رجالاتها منقسمين على انفسهم مابين مؤيد لنبوخذ نصر أو مؤيد لأبسماتيك الثاني، وظلت محاصرة ثمانية عشرة شهرا تعرضت خلالها لمجاعة قاسية ولم يكن هناك بد من التسليم لاسيما بعد ضرب ماحولها من مدن واقتحام اسوارها وفشل التدخل المصرى الى جانب صدقيا.

وبالفعل دخل نبوخذ نصر اورشليم عام ٥٨٧ق..م منتصرا، وهرب صدقيا الا أنه قبض عليه فى آريحا، وتم احضاره امام نبوخذ نصر فى مقره على نهر الاورنت حيث نكل بأبنائه أمامه ثم سمل عينيه وتم نقله اسيرا الى بابل. واعمل رجال نبوخذ نصر التدمير فى المدينة ونقلوا ابراجها وانتهكوا مقدساتها، وسبوا من بقى من اهلها الى بابل بغير رجعة لتصبح اورشليم منذ ذلك الحين اثرا بعد عين، بعد فشل اخر محاولات بنوخذ نصر فى الابقاء عليها جسدا بلاروح وتعيين جدليا حاكما من قبله الا أنه اغتيل ليسدل الستار نهائيا عن علاقة يهوذا ببابل وذلك حوالى عام ٥٨٢ ق.م.



شكل رقم (٢٢)

خـريطة فلســـطين

اما علاقته بميديا فقد شكلت جزءا هاما من عهده، اذ نجح حلفاء الأمس على عهد ملكهم كى إخسار من السيطرة على منطقة الاورارتو والزحف غربا نحو آسيا الصغرى. حيث مملكة ليديا التى ازدهرت مقدراتها الاقتصادية بعد زوال سيطرة اشور على طرق التجارة بالمنطقة. وكانت النتيجة الحتمية لتعارض مصالح المملكتين هو صراع لم يحسم لصالح إحداهما وانتهى الى عقد هدنة بوساطة نبوخذ نصر الذى ارسل احد قادته لهذا الغرض. وعلى الرغم من نجاح المهمة وتثبيت الحدود بين الدولتين. الا أن نبوخذ نصر قد إنتابه الشك من توجهات ميديا لاسيما على اخريات عهده، الأمر الذى دفعه كاجراء وقائى الى بناء حائط دفاعى شمال بابل، يمتد من سيبار الى اوبيس، كما قام بتحصين عدة مدن على امتداد حدود أورارتو فضلا عن السيطرة على كليكيا. كل ذلك ضمانا لمنع اية هجوم محتمل على ممتلكته من ناحية الشمال.

بيد أنه من سوء الطالع أن الجزء الأخير من عهد نبوخذ نصر لم يترك لنا أية معلومات يعتد بها، الأمر الذى دفع الباحثين الى الاعتماد على مدونات العهد القديم. اذ يذكر كتاب الملوك الواقعة الخاصة بمقتل حاكم اورشليم السالف ذكرها، والاشارة الى غزو مصر دون اعطاء تفاصيل كافية لذلك. اما وثائق الاخبار البابلية، فرغم اهميتها كمصدر لعهد هذا الملك الا أن احداثها تحتاج الى مزيد من الدراسة والتنقيح حتى يمكن ترتيبها ترتيبا معتمدا.

وان كان من الجدير بالذكر ان نعقب على مسألة السبى البابلى التى قام بها نبوخذ نصر فى ضوء عدة اعتبارات منها اولا، ان سياسة السبى بعامة قد جرى فيها نبوخذ نصر على عادة أسلافه حكام آشور، وإن اختلف عنهم أنه نقلهم الى بابل دون تفريقهم او تهجير اقوام غيرهم مكانهم. ومنها ثانيا أنها لم تقتصر على اليهود دون الشعوب الأخرى، وان نجحوا هم دون غيرهم فى استغلالها لصالح وجودهم بالمنطقة كالعادة. بل واتخذوها ذريعة لتفسير

مساندتهم للفرس عند غزوهم للعراق، علما بان سبيهم كان فى
ذلك العصر وضعا طبيعيا لأناس ناصبوا حكامهم العداء لدولة
لهم وهى بابل. ولعل مغالاتهم فى استغلال الحدث هو الذ
التضارب فى عدد مراته واساليب معاملتهم وغير ذلك من تفاص
شأنها ان تعطى صورة متكاملة عن الوضع برمته حسبما ور
الدراسات المستقلة عن هذا الملك.

وعلى أية حال، فقد كان لنبوخذ نصر اسهاماته المعمارية واثا
زخرت بها بابل وغيرها من المدن مثل سيبار ولارسا والوركاء وأ
قصرين أحدهما القصر الجنوبى واطلق عليه اسم «قصر حياة
والذى مائل فى تخطيطه القصر الجنوبى وان قلت مساحته عنه.

ويرى الباحثون ان نمط العمارة البابلية التى خلفتها لنا اثا
يمثل نموذجا فريدا للجمع بين اساليب العمارة السومرية الق
معالم البناء الأشورية فى شكل متميز بذاته ينسب للنمط البابلى.

ولقد توفى نبوخذ نصر عام ٥٦٢ ق.م تاركا خلفه اربع
واحدة بشكل مؤكد هى كاشايا واخرى غير مقطوع بصحة نس
ضرب خلفاؤه فى علاقتهم وصراعهم على العرش الذى اعطى
من قوى فرصة لضرب الدولة بشكل ساعد على سرعة انهيا
نتناول عهود هؤلاء الخلفاء فى وحدة واحدة.

* * *

خلفاء نبوخذ نصر

كان اول هؤلاء الخلفاء هو ابنه اميل-مردوخ الذى اس
لحوالى عامين، وقد اشارت اليه نصوص ذلك العصر بحسن معام

اليهود وعلى رأسهم ملكهم يواقين الذى قضى بقيه عمره نديما على مائدة اميل – مدروخ. الا أن هذا الأخير قد اغتيل فى ظروف غامضة ذهب فيها الباحثون مذاهب شتى.

اذ يرى البعض أنه كان لاهيا بدرجة جعلت زوج أخته القائد نرجال شارأوسور الى الانقلاب عليه واغتياله. أو ان هذا الأخير قد انقلب عليه لعدم اقتناعه بشخصه وقدرتة على ملىء فراغ والده.وان ذهب البعض الاخر الى أن احد اخوته قد قتله فى محاولة لاغتصاب العرش، فما كان امام القائد وزوج الأخت من سبيل الا التدخل لاقرار الأمور التى انتهت بتوليه العرش.

وعلى أية حال، فقد اعتلى نرجال اشار أوسور (نريجلاسر) العرش لمدة ثلاث سنوات (٥٥٩ – ٥٥٦ ق.م) وقد ساعدته خلفيته العسكرية كاحد الذين شاركوا فى حصار اورشليم، على القيام بحملة الى كليكيا. الا أنه اشتهر ايضا ببعض الأعمال العمرانية فى معابد بابل وبورسيبا، ومادون ذلك فحكمه يكتنفه الغموض حتى وفاته. اذا امتدت المعارضة لحكم ابنه لباشى مردوخ، الذى استمر فى الحكم مدة لاقل من عام جابه خلالها رغم صغر سنه معارضه قوية اودت بحياته فى النهاية على يد كبار القادة فى الجيش. وقد اختار هؤلاء من بينهم واحدا هو نبونيدس الذى ربما كان زوجا للابنه الثانية نبوخذ نصر إذا صح نسبها له.

وقد إعتلى نبونيدس (نبوناثيدس) العرش عام ٥٥٥ ق.م. حيث إعتبره بعض الباحثين مؤسساً لسلالة بابلية جديدة، وهو أمر لانميل إليه لأن ظروف توليه الحكم جاءت فى سياق تداعيات أحداث متعلقة بذات الملوك الذين ظهر فى كتفهم، حتى وإن صح عدم إنتسابه بالمصاهرة للأسرة المالكة

وعلى أية حال، فقد امتد عهده لستة عشر عاما (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م) وواكب حكمه متغيرات جدية على الساحة الدولية. ويبدو أن ظروفه السنية واهتماماته الدينية قد باعدت بينه وبين مواكبة الاوضاع السياسية الجديدة. ذلك أنه كان ابنا لأبوين شغلا منصب الكهانة لاسيما أمه التى قضت فيه عمراً طويلا لكونها عاشت لاكثر من مائة عام، لذا فلاعجب ان يتولى الحكم وقد ناهز العقد السادس من عمره. ويبدو أن اهتمامه بإله القمر بشكل لم يتوقعه عباد مردوخ قد جعلهم يرمونه بالتجديف فى حق هذا الاله رغم أنه نال منه اهتماما بالغا يشهد به إعماره لمعبده فى بابل.

بيد أن الظروف الاقتصادية فى الداخل قد أثرت على اوضاع بابل بعامه على عهده، ذلك أن نشاطات اسلافه العسكرية والعمرانية قد استنزفت خزانة البلاد. الا أن الاوضاع السياسية فى المنطقة الغربية قد استدعت تدخله الفورى مما زاد الطين بله فى الداخل.

حقيقة أنه عين ابنه بل شار اوسور (بلشازار) كحاكم مشارك حتى يصرف الأمور فى غيابه، الا أن حملته على المدن السورية عام ٥٥٣ق.م. والتى وصل فيها حتى تيماء فى شمال الجزيرة العربية لم تكن من وجهة نظر بعض الباحثين اكثر من تصرف تطوعى لم يكن يستلزم تحركه السريع. كما أن بقاءه هناك لعشر سنوات بعيدا عن بابل لمجرد ضمان السيطرة على طرق التجارة من هنا ك زاد من سوء تقييم الموقف الداخلى والخارجى. لاسيما وأن البعض فى غمرة اتهامهم لنبونيدس بالتحيز للاله سين قد فسروا بقاءه هناك فى تيماء إلى عباده اله القمر فى هذه المنطقة، الأمر الذى شجعه على البقاء للإشراف على عبادة إله القمر هناك بحكم تأثير أمه كاهنة إله القمر عليه.

وعلى أية حال. فيبدو أنه كان مكرها على البقاء بسبب ظروف بابل نفسها وتفشى المجاعة بها وأن أعداءه انفسهم لم يمكنوه من العودة.

ويبدو أن السبب فى تحامل بعض الكتابات قديما وحديثا على تصرفات هذا الملك، انما ترجع لتنامى قوة فارس حتى بلغت مبلغا لايستهان به على يد احد حكامها الطموحين؛ قورش الثانى. فقد نجح هذا الملك فى غضون عشر سنوات فى تكوين امبراطورية؛ بدأها بالسيطرة على الميديين من بنى جلدته ثم مملكة ليديا. ثم سار باتجاه جبال طوروس عابرا نهر دجلة. وقد احتل فى خلال زحفه نحو الغرب منطقة كليكيا التابعة لمملكة بابل. وهكذا تبدى الخطر الفارسى الجديد على المنطقة.

وهكذا كان لزاما على بابل ان تنفض تحالفها مع الفرس وتبحث عن حليف جديد، فلم تجد امامها سوى مصر التى عانت هى الأخرى من تهديد طموحات قورش لمصالحها. وكان نبونيدس قد عاد راجعا الى بابل الا أن القدر لم يمهله اذ قام قورش بغزو بابل عام ٥٣٩ ق.م، وانضم له احد القادة البابليين بمنطقة الجوتى شمال شرق العراق. ويبدو أن هذه الحالة من الخيانة لم تكن الوحيدة التى تمت ضد بنونيدس وابنه قائد جيشه بيلشازار الذى قتل فى هذه المعارك فقد انضمت عناصر اخرى لجانب الملك الفارسى من بينها بالطبع الاسرى اليهود الذين اعتبروا قورش بطلا ومخلصا لهم لاسيما بعد سماحه لهم بالعودة الى فلسطين.

اما بابل فقد حافظ الملك الفارسى عليها لتحقيق سياسة متوازنة لاتسمح بتأليب اهلها عليه، كما حافظ على المعبودات ومقدساتها لاسيما الاله مردوخ. وبالنسبة لنبونيدس فهناك من يذهب الى أنه لاقى نفس مصير ابنه،

وهناك من يذهب الى الزعم بان قورش قد استبقاه وعينه حاكما على مقاطعة كرمان في وسط ايران. وهو الامر الذى لايمكن قبوله لأنه لايتوافق مع قواعد الصراع ولا مع سنى عمر نبونيدس، ويبدو أن سوقها كان فى المصادر المساندة لقورش والتى حاولت تجميل وجه هذا الغزو وقائده حتى انها ذهبت الى الزعم بان البابليين قد استقبلوه بترحاب وأنهم «قبلوا أقدامه بسعداء باستلامه الملكية، حيث اشرقت وجوهم بالسعادة، وحيوه كسيد نقلهم من الموت الى الحياة، وانه جنبهم الأذى والكوارث فعبدوا اسمه».

وبالطبع فان هذا النوع من الدعاية كان معروفا آنذاك لاهداف سياسية، وبالتالى فان التعامل معها فى البحث التاريخى لابد أن يتوخى الحذر.

والواقع فانه لايجب ان تغفل احد الجوانب الايجابية فى عهد نبونيدس ونحن نسدل الستار على عهده. ذلك أنه اشتهر الى جانب تعمير المعابد بالبحث والتنقيب عن اثار الاسبقين وجمعها وإعادة نسخها لاسيما قوائم الملوك.

كذلك فقد بلغ اهتمامة بالاشراف على عبادة الإله سين وضمان استمراريتها بنفس الدرجة التى حظيت به على عهده، ان قام بتعين ابنته كاهنة كبرى للاله سين.

وعلى أية حال، فبسقوط بابل على يد قورش الفارسى عام ٥٣٩ ق.م تزوى آخر حواضر حضارة الرافدين، ولتسيطر على المنطقة قوة جديدة هى الامبراطورية الفارسية والتى قامت على ارض ايران وهيمنت على كل العالم القديم.

ولسوف نتناول تطورها الحضارى والتاريخى منذ عصور ماقبل التاريخ فى فصول الباب الثانى من هذا الكتاب.



لوحة رقم (٢٣)

الطرق الإمبراطورية بين وادى الرافدين وآسيا الصغرى



الباب الثانى

إيـــران



الفصل الأول

الأسس البيئية والتكوين الحضاري



الفصل الأول

الأسس البيئية والتكوين الحضارى

اولا: الأسس البيئية

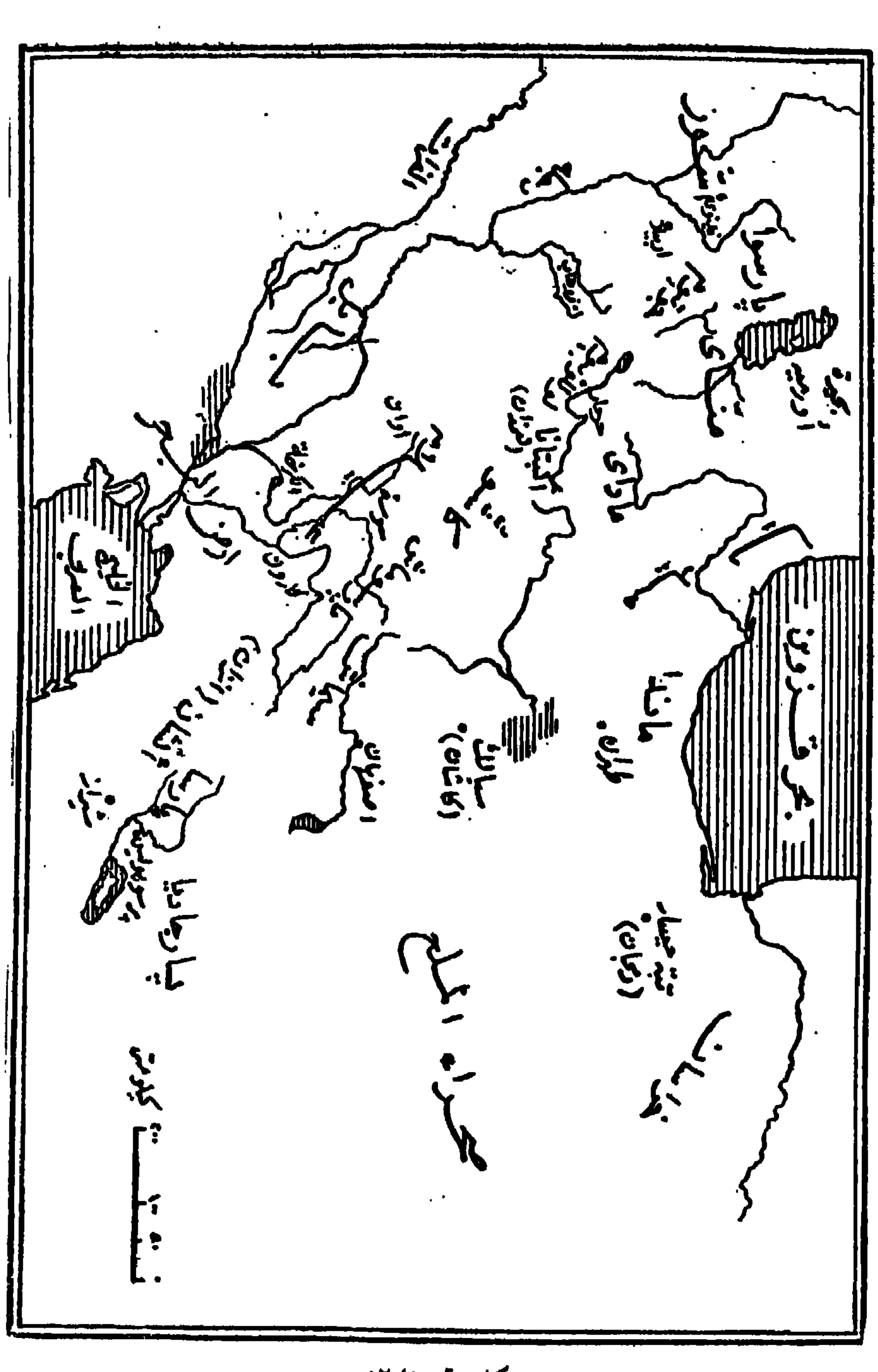
تنظم البيئة الطبيعية لايران فى عدة مظاهر تنحصر فيما بين الخليج العربى وخليج عمان جنوبا، وبحر قزوين وسهل التركمان شمالاً. وهى عبارة عن هضبة يتوسطها منخفض صحراوى كبير تحوطه السلاسل الجبلية لجبال زاجروس وكردستان فضلا عن وجبال البورز وخراسان ومكران.

واذا ماحاولنا أن نستجلى معالم المنخفض الصحراوى فسنجده مغطى فى معظمه بسلسلة من الاودية الجافة (حوالى ٧٨٠ الف كيلوم متر مربع) ويتراوح ارتفاعها من ٩٨٠ الى ٤٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. وينقسم المنخفض الصحراوى الى قسمين تفصلهما سلسلة من المرتفعات الداخلية. وهما دثتى كافير او صحراء المحلة الكبرى شمالا، ودشتى لوط أو صحراء لوط جنوبا. ويعد هذان القسمان مع مثيليهما فى افغانستان وباكستان (دشتى مرجو) (ودشتى تحلب) من اكثر مناطق العالم جدبا وجفافا، الأمر الذى حال دون ارتيادها حتى الان. ولقد مثلت هذه المنطقة الصحراوية حائلا امام طرق المواصلات بين الشرق والغرب، الأمر الذى فرض على تلك المناطق تحويل طرق تجارتها إلى الشمال والجنوب. كما تحكمت فى توجه الهجرات الجماعية اما شرقا للهند أو غربا الى بلاد الرافدين.

اما السلاسل الجبلية المحيطة بهذا المنخفض الصحراوى فهناك سلسلة

جبال زاجورس وكردستان تمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى فاصلة المنخفض الصحراوى عن سهل دجلة والفرات. وتتكون هذه السلاسل من ثنيات متوازية يتراوح ارتفاعها من ٦٥٠٠ الى ١٣٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر، وتمتد لمسافة ١٦٠٠ كم. وتتخلل هذه الجبال عدة اودية وسهول، كما تتضمن عددا من التكوينات المتشابكة والقمم العالية التى لامثيل لها فى الشرق الأوسط، وتمثل جبال زاجروس المانع الدفاعى الذى يمكن منه عمليا التحكم فى الطرق السهلية التى تتخللها والتى تربط بين كرمنشان وهمذان «بوابة اسيا» من ناحية وبين سهول الخليج العربى عبر شيراز الى برسيوليس القديمة (البوابة الفارسية). وهذه الأخيرة كانت معبـرا تجاه الغرب لقوات دارا الأول، كما أن جيوش الاسكندر والجيوش العربية قد عبروها فى اتجاه الشرق.

كما يخرج من وسط سلسلة جبال زاجروس نتوء جبلى يتجه غربا نحو سهل دجلة والفرات حيث يحدث ثنيه نهر دجلة فى منطقة اقترابها من الفرات. ويعتقد أن الكاشيين قد اغاروا على بابل من هذا النتوء.



شكل رقم (٢٤)

فارس (إيـــران)

ويرتبط ايضا بوسط سلسلة جبال زاجروس سهل خوزستان والذى عرف قديما باسم سوسيانا، حيث يجرى نهر كارون من عند هذه السلسلة الجبلية وفى الخليج العربى هذه المنطقة الفيضية كانت تمثل إمتداداً لمنطقة الرافدين وكذلك كانت تمثل الإمتداد الوحيد المتسع للأراضى المنخفضة داخل حدود ايران. حيث المنطقة المعروفة قديما باسم عيلام وعاصمتها سوسة. ولقد كانت عيلام اقدم مركز للمدينة والادارة السياسية فى فارس، كذا فقد لعبت سوسة دورا هاما كمركز رئيسى للإدارة والاتصالات ابان عصر الامبراطورية الاخمينية.

تمتد هذه السلاسل الجبلية تجاه الجنوب الشرقى لخوزستان مكونة المنطقة المرتفعة لفارس. حيث تتجه مجموعة من الجبال والاودية فى الاتجاه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى يفصلها عن الخليج العربى شريط ساحلى ضيق وغير مأهول حيث يصعب ارتياده للنشاط البحرى او للاقامه به.

ولقد أقام الاخمينيون فى الجزء الداخلى لهذه المنطقة، لاسيما فى شمالها الغربى حيث همدان وطهران واصفهان وامتداداها فى تبريز وادربيجان. وقد كانت هذه المنطقة معبراً لطرق التجارة كما كانت بوابة مفتوحة لأية غزو من تركستان والقوقاز، حيث يعتبرها الباحثون المنطقة التى شهدت معظم فترات الاضطراب التاريخية وفيها استقر الميديون والفرس.

اما سلاسل جبال البرز، فتحد المنخفض الصحراوى شمالا ممتدة بينه وبين المنطقة الساحلية بمحاذاة الشاطىء الجنوبى لبحر قزوين. وهى تصل فى نهايتها الغربية الى اذربيجان الايرانية حيث بحيرة اورين الواقعة فى وسطها، ويعد هذا الاقليم اكثر اقاليم ايران خصوبة لوفرة الوديان فيه كما ان سهولة ارتياده وكونه عامل جذب للاستيطان البشرى، فقد كان بمثابة بوابه عبرت

منها جحافل الميديين والفرس والاكراد على مدار التاريخ، ومن ثم فلاعجب أن شيد الفرس عنده العديد من التحصينات التى لاتزال اثارها ماثلة حتى الآن.

وتشبه طبيعة هذه المنطقة فى الخصوبة وسهولة العبور، سلسلة جبال خراسان التى تنتهى عندها سلسلة جبال البرز من ناحية الشرق وان كانت اقل منها ارتفاعا.

والواقع فقد طبعت المعالم الجغرافية لايران بطابع متميز اثر على النشاط البشرى بها، وصبغ تاريخها بسمة عدم الوحدة التى غلبت على اقوامها الا فى حالة وجود شخصية حاكمة قوية. اذ فرضت الطبيعة المنغلقة لجغرافية المنطقة مشاكل وتحديات على المستوطنين فيها الذين كانت استجابتهم لتلك التحديات تتطور من الرعى وعدم الاستقرار الى مرحلة الاستقرار. كما ان البلاد قد صبغت عبر تاريخها بتفاوت واضح التأثير فيما يتعلق بالصراع بين مناطق البداوة ذات الطبيعة المتغيرة وبين مناطق المدنية ذات الطبيعة المستقرة وهو صراع - حسبما يرى برايان ديكس B.Dicks - ظهر على كافة المستويات المحلية والاقليمية والوطنية ليميز منطقة فارس ظهورا وتطورا حتى عصر الامبراطورية.

اما عن النشاط البشرى للسكان فيمكن القول أن طبيعة موقع الهضبة الايرانية التى تتوسط بين منطقة احراش الاستبس فى اواسط آسيا وسهول غربيها، وارتباط هذه الاحراش بجبال زاجروس بحكم كون الهضبة ذات شكل يشبه المثلث الذى تقع رأسه عند جبال زاجروس والذى يربط احراش وسط اسيا وهضبة آسيا الصغرى، فضلا عن وقوع الهضبة الايرانية بين منخفضى بحر قزوين شمالا والخليج العربى جنوبا كل ذلك اوجد تنوعاً فى طبيعة النشاط البشرى لسكانها.

ومن ثم، فقد قامت الزراعة فى السهول مثل سهل سوسيانا (فى عيلام) والسهل الواقع بين جبال البرز وساحل بحر قزوين وان كان هذا الأخير لم يكن مثل سهل سوسيانا من حيث التأثير على التكوين الحضارى بالبلاد. اذ ساعد تكوين الوحدات عند الاطراف الداخلية للجبال المحيطة بالهضبة الايرانية الى تركز المواقع الحضارية حول مجارى الانهار واماكن تجميع مياه الامطار وتوزيعها بشق القنوات. واستقر الانسان هناك فى تجمعات زراعية، ساعد فى ذلك بالطبع المناخ المعتدل. مما امكنه من زراعة الفواكه والموالح والحبوب وغيرها من المحاصيل.

كما مارس الانسان الرعى لتوفر المراعى التى عوضت افتقار بعض الجهات بالهضبة الايرانية للزراعة بسبب قلة المياه اللازمة للزراعة فيها. حيث ساعد على ممارسة تلك الحرفة توافق السكان مع الطبيعة الجبلية حول الهضبة فضلا عن انتشار الغابات الكثيفة على جوانب الجبال وكذلك نطاق منطقة الاستبس. كما مارس بعض سكان الشواطئ. لاسيما شرقا على شاطئ مكران نشاط صيد الاسماك.

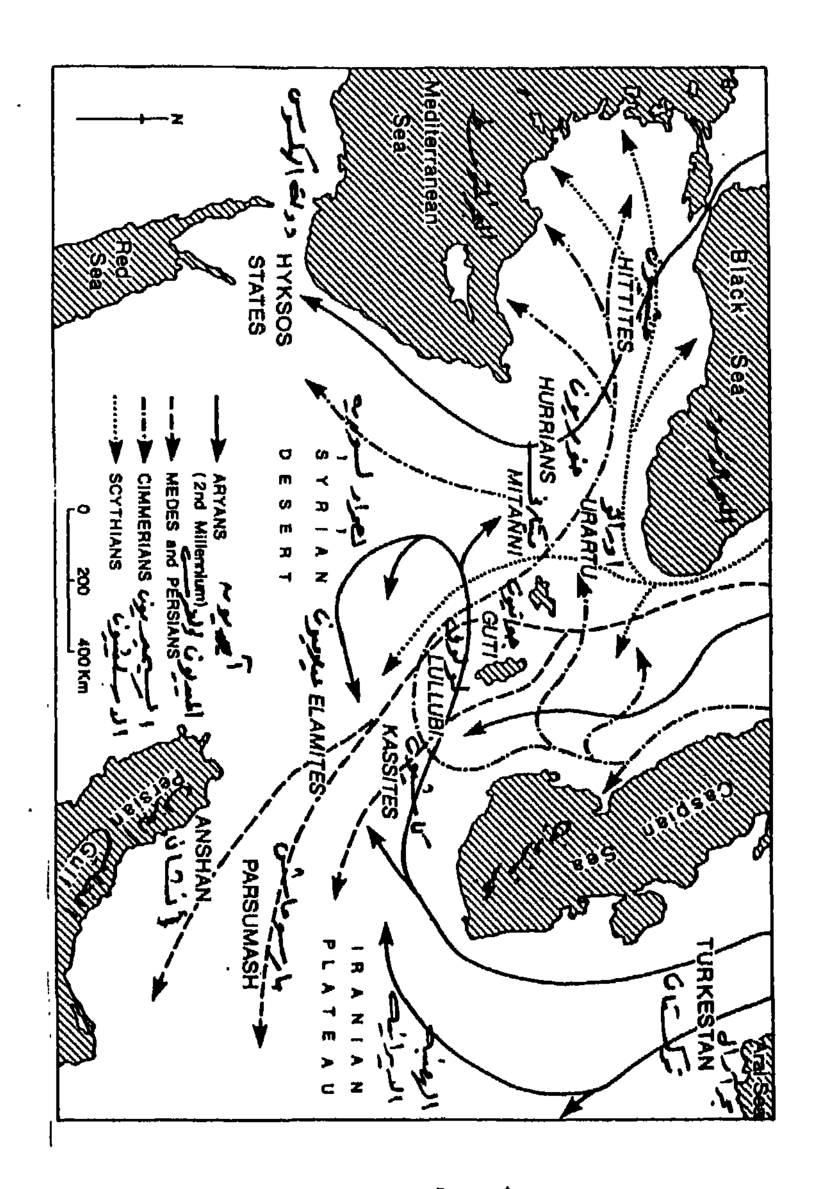
والواقع، فان أهم المواقع الحضرية التى قامت بايران كانت تواجه الصحراء وعلى أحد الطريقين الرئيسيين. سواء المتاخم لسلسلتى زاجروس والمتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى مثل اصفهان وشيراز، او المتاخم لجبال البرز مثل همذان وطهران على سبيل المثال لا الحصر. وتشير الأدلة الاثرية تعزيزا لذلك، الى ان اقدم مناطق الاستقرار البشرى فى العصر الحجرى الحديث ترجع الى مناطق تتوسط هذين الطريقين مثل تبه سيالك وتل جيشار شمالا، او تبه جيان وتل باكون غربا.

ومما لاشك فيه ان موقع الهضبة الايرانية قد اتاح لها نوعا من القدرة على الاتصال التجارى بين جيرانها، وعلى الأخص العراق والهند. بمعنى أن طرق

المواصلات لم تكن مجرد معابير لهجرة الأقوام من وإلى ايران، ولكنها ساهمت فى إنعاش الوضع الاقتصادى لهذه المنطقة بجلب المتاجر من حولها او نقلها مثلما الحال فى نقل اللازورد من شمال افغانستان عبر الطريق الجنوبى لجبال البرز. او بتصدير المنتجات الايرانية التى انتجها النشاط البشرى او وفرتها البيئة الطبيعة الغنية لاسيما الثروة المعدنية من نحاس وحديد وقصدير ورصاص، فضلا عن انتاج المحاجر من الرخام والمرمر والعقيق والفيروز الى جانب الثروة الخشبية التى كان يتحصل عليها من نطاق الغابات على اطراف الجبال.

وهكذا تضافرت العوامل الطبيعية والبشرية على قيام حضارة بالهضبة الإيرانية منذ اقدم العصور اذ اكدت لحفائر الاثرية على وجود مراكز حضارية منذ الالف الرابع قبل الميلاد تطورت بفضل العناصر البشرية المتعددة والمختلفة المشارب، حتى نجحت فى نهاية الأمر الى تأسيس امبراطورية مترامية الاطراف. كما وصلت تأثيراتها الحضارية من خلال عصور التاريخية الى شاطىء البحر المتوسط والتركستان وبلوخستان وشمال غربى شبه الجزيرة الهندية.

اما عن العنصر البشرى فيمكن القول أنه نظرا لان تاريخ ايران القديم كان تاريخ شعوب اكثر منه تاريخ أمه، فاننا يمكن ان نميز بين اسماء عدة استوطن اصحابها المنطقة. ينتمى معظمها الى الجنس الاسيوى او الاسبانى Asianic الذى يراه البعض اصل حضارة غربى اسيا كلها، وله ينتسب العيلاميون والكاشيون والاورارتيون والحيثيون والميتانيون، وغيرهم من الجماعات التى كانت تتكلم لغة واحدة وتدين بمعتقدات واحدة قوامها عبادة الامومة وتجسيدها فى تماثيل مقدسة.



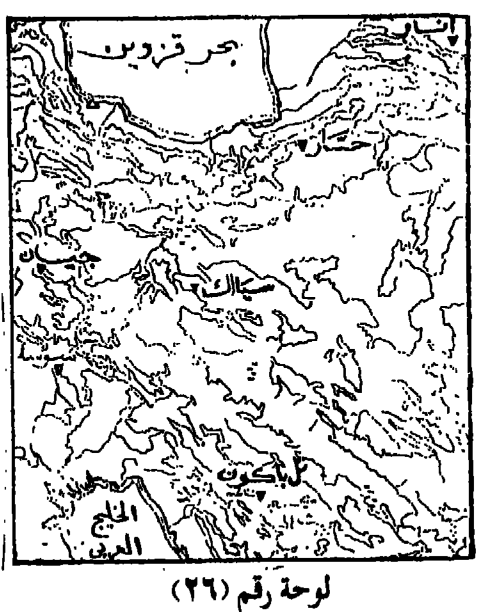
لوحة رقم (٢٥)

خريطة توضح حركة هجرات الشعوب بالمنطقة

أما الفرس فأول ذكر لهم بالمنطقة يرجع لعهد شلمنصر الثالث الذى ارسل حملة لمنطقة بجبال كردستان لقتال قبائل هنداورية يطلق عليها اسم الميديون (امادى). وكان لهم خلال الربع الأول من الالف الأول قبل الميلاد كيانا سياسيا وعاصمة. وان كانوا يمثلون فيما بينهم عدة قبائل تختلف فى نشاطها وطبيعة افرادها بل ومسمياتها، وهو الأمر الذى يفسر كثرة صراعاتها واغاراتها على بعضها البعض.

ثانيا: التكوين الحضارى (عصور ماقبل التاريخ)

تنتظم عصور ماقبل التاريخ فى ايران وفق الترتيب المصطلح عليه بين الباحثين في التاريخ الحضارى. وقد اشرنا فى حديثنا عن العراق لطبيعة تلك العصور والمواد الأساسية التى صنفت على أساسها وتتاجها البشرى. فضلا عن مسمياتها واسباب تسمياتها. ولسوف نستعرض هذه العصور ومواقعها التى تمثلها فى الهضبة الايرانية وفقا للمادة الاثرية المتاحة للباحثين فى بواكير هذه الحضارة.



لوحة رقم (٢٦)

بعض المواقع الرئيسية فى عصور ما قبل التاريخ فى الهضبة الإيرانية

١- العصر الحجرى القديم

أ- العصر الحجرى القديم الأسفل

على الرغم من قلة المتوفر من المادة الاثرية التى ترجع لهذا العصر فى جنوب غرب اسيا بخاصة وايران بعامة، الا أنه قد عثر على نماذج للفئوس الحجرية فى احد كهوف جبال بختيارى (غرب ايران) وهو كهف تنجى بابدا. وان كان نسبتها الى آخر هذا العصر وبداية التالى له هو الذى دفع البعض الى الاعتقاد بعدم وجود أدلة أثرية تعزى الى هذه المرحلة من العصر الحجرى القديم.

ب- العصر الحجرى القديم الأوسط

احرز فيه الانسان تقدما ملموسا فى تطويع الحجر واستخدام الشطية بدلا من الكتلة ولقد عثر على العديد من المواقع بايران التى احتوت مخلفات ذلك العصر، والتى تركزت معظمها على سفوح السلسلة الوسطى لجبال زاجروس وجنوب كردستان وشمال جبال البرز فضلا عن جبال هندوكوش الايرانية. ومن اشهر هذه المواقع، كهف بيهستون الواقع لثمان واربعين كيلومترا شرف كرمنشاه. وكهف غارى خار ويقع فى مواجهة سابقة. وكهف تامتامة بمنطقة شيكاك كورد، غرب بحيرة اورمية بحوالى ٢١ كيلومتر. وقد عثر فى هذه المواقع على بقايا عظيمة تدل على ارتياد الانسان لها وقدرته على انتاج بعض الادوات الحجرية لاسيما القواطع، وان اختلفت فى درجة اتقانها.

جـ- العصر الحجرى القديم الأعلى:

امتازت صناعة الانسان فيه بإنتاج الادوات القزمية والتى تمتاز قواطعها بحدة نضالها. ومن اشهر مواقع هذا العصر منطقة كهف هوتو، وكهف كوبجى.

٢- العصر الحجرى الوسيط

يمثل انتا جه في مجموعه إشارة الى بداية اتجاه الانسان لانتاج طعامه. حيث عرف المناجل والاجران فضلا عن رؤوس السهام والفؤوس. وهى ادوات استخدمت في الزراعة البدائية التي عرفوها الى جانب صيد الغزلان وعجول البحر والاصداف ويدلل على هذا النشاط المتعلق بالصيد الأسلحة الخاصة بذلك واستئناسهم الكلاب. كما شهدت هذه المرحلة تجاربهم الأولى في صناعة الآنية الفخارية التي تشير الى تخزين الطعام، كما تتضح فيه عبادة الأمومه التي اشرنا اليها سلفا. وهى جميعها ارهاصات تشير إلى بداية اتجاه الانسان نحو مرحلة الاستقرار المعتمد على الزراعة.

ومن أشهر المواقع التي تمثل هذا العصر كهف بلط الواقع غرب مدينة بهشاشار. بحوالى ثمانية كيلومترات وتبه جانجى داره الواقعة جنوب بهستون باربعة عشر كيلومترا وكذا تبه اسباب المجاورة لها والمطلة على نهر كاراسو شرق كرمنشاه بحوالى ستة كيلومترات. فضلا عن العديد من المواقع التي تمتد من شمال غرب سلاسل جبال زاجروس وفي سواحل بحر قزوين ومنها الى المنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش.

٣- العصر الحجرى الحديث وعصر استخدام الحجر والنحاس (المراحل الحضارية الثلاث من ٦٠٠٠ - ٣٠٠٠ق.م)

اصطلح العلماء على تمييز المرحلة الأخيرة في عصور ماقبل التاريخ بمسمى المرحلة الحضارية حيث قسموها الى ثلاثة اقسام. شهدت بداية أولهما عصر الجفاف نتيجة التغيرات المناخية واتجاه الانسان للتجمع والاستقرار حول المجارى المائية ووديان الانهار.

وتعد منطقة سيالك الى الجنوب من طهران وجنوب غرب كاشان بثلاثة كيلومترات بمستوياتها الثلاثة أقدم مناطق الاستقرار المعروفة حتى الان فى هذه المرحلة، فضلا عن مواقع اخرى ارتبطت كل واحدة منها بأحد هذه المستويات وعلى النحو التالى:

أ- المرحلة الحضارية الأولى (سيالك الأولى):

تقابل العصر الحجرى الحديث، حيث نزع الانسان الى الاستقرار وانتاج الطعام بعد نجاحه فى ممارسة الزراعة كنشاط اساسى له الى جانب الصيد وما ارتبط بها من استئناس للحيوان خاصة الاغنام والثيران والماعز. بيد أن أهم مايميز هذه المرحلة هو نجاح الانسان فى بناء المنازل حيث بدأها كبناء على هيئة كوخ من الاغصان المغطاة بطبقة طينية. ثم قام بعد ذلك ببناء جدران من الطين ايضا بعدما توصل الى القالب الطينى الذى ساعده فى تطوير اسلوب البناء، بل ان بعض هذه البيوت كانت ذات اساس حجرى.

كما امتلك انسان هذه المرحلة ادوات واساليب صناعة الفخار وزخرفته بخطوط متقاطعة تحاكى فكرة الجرار داخل السلال، وقد عرف منه نوعين الاحمر والأسود. وتعد أدوات الزينة ايضا من مظاهر تقدم الوسائل التقنية لهذه المرحلة أو عرف فيها الانسان العقود ذات الأصداف والخواتم والأساور. كما تنوعت ادواته الحجرية كالنصال والفئوس والمناجل والمكاشط التى كان يزين بعضها بمقابض من العظم المنحوت.

وقد عرف انسان هذه المرحلة عادة تغطية المتوفى بطبقة من التراب الأحمر، وهى ذات العادة التى اشرنا الى مغزاها فى حضارة الرافدين ابان عصور ماقبل التاريخ بها. وقد كان الدفن يتم اسفل ارضيات المنازل. وهى امور تشير الى ايمان انسان هذا العصر فى ايران مثل اقرانه فى الحضارات المجاورة بالحياة مرة أخرى.

وربما كان انسان حضارة سيالك الأولى على صلات تجارية بمناطق تبعد عنه بحوالى ٦٠٠ ميلاً، وذلك للعثور على أصداف من مواقع على ذات البعد، كما يعتقد البعض أنه استخدم النحاس فى هذه المرحلة على نطاق ضيق لصناعة الدبابيس وهى أمور لم تحسم بعد على أية حال.

وجدير بالذكر ان اختيارنا لموقع سيالك كنموذج لهذه المرحلة الحضارية انما فقط لتسهيل الدراسة ذلك ان تغطية طبقات الموقع للمراحل الحضارية الثلاث هو الذى حدا بنا لاتخاذه كنموذج يمكن من خلاله تتبع التطور الحضارى لكل مرحلة وفى ذات الموقع. وان كنا بالطبع لن نغفل الاشارة لمواقع أخرى تنتمى لذات المرحلة الحضارية مناط الدراسة.

ومن ثم فيما يتعلق بالمرحلة الحضارية الأولى فان حضارة سيالك الأولى تأتى فى الترتيب الزمنى اخر مواقع هذه المرحلة، اذ يسبقها من الاقدم للأحدث مواقع أخرى مثل تبة جوران جنوب كرمنشاه بحوالى ٦٧ كيلومترا. وتبه ساراب شمال شرق كرمنشاه بحوالى سبعة كيلومترات. ومنطقة ربوة على كوش جنوب تبة جوران بحوالى كيلومتر ونصف، وثم موقع سيالك الأولى، واخيراً تبه جيان المطلة على آخر الأودية المتاخمة للجزء الشمالى لجبال لورستان.

ب- المرحلة الحضارية الثانية (سيالك الثانية)

تقابل عصر استخدام الحجر والنحاس والذى تمثله حضارة حلف فى العراق. ومما لاشك فيه ان إمتلاك الانسان لادواته فى البناء والصناعة كانت اكثر حذقا. كما اتسع نطاق تعامله مع النحاس فضلا عن تجويد مظاهر انتاجه الزراعى وتطويرها.

ومن ثم فقد عرب البناء بالطوب اللبن (الاجر) وان كانت قوالبه قد

غلبت عليها خشونة الصنعة نظرا لتشكيلها باليد بدلا من الصب فى قوالب، الامر الذى جعل المنزل يتخذ شكلا بيضاويا شديد السمك من الاطراف. وقد ميز منازل هذه المرحلة طلاؤها بطلاء احمر مكون اساسا من اكسيد الحديد المتوفر على مرتفعات الهضبة الايرانية بكثرة. كما تميزت المنازل باتساعها وبوجود ابواب او منافذ ذات سواتر بها. كما استخدمت ارضياتها كسابقتها لدفن الموتى.

اما التميز الاخر لهذه المرحلة فيكمن فى استخدام النحاس على نطاق لابأس به فى صناعة الدبابيس والخارز وبعض الأوانى وذلك بنظام الطرق اليدوى وليس الصب. كما استخدمت أحجار الفيروز والعقيق فى تطعيم الحلى بانواعها المختلفة.

اما الفخار فى هذه المرحلة فقد تميز بصغر حجمه دلالة على تمكن صانعه من التحكم فيه، فضلاً عن العناية فى صنعه وحرقه وطلاءه باللون القاتم على الارضية الحمراء مع زخرفته باشكال الحيوانات والطيور المنتظمة فى صفوف والتى تعكس الحركة والواقعية فى اسلوب زخرفتها.

وبالنسبة للزراعة، فقد سارعت قرى هذه المرحلة فى مراحل نموها التى تعكسها بعض المظاهر مثل انتاج الشعير البرى immer والقمح البرى Dinkel واستخدام المحراث البدائى واستمرار استئناس الحيوان سواء ماعرف منها قبلا من الماشية والاغنام وكلاب الصيد والخيل صغيرة الحجم. وقد ساعدت كثيرا انسان هذه الرحلة فى انجاز عمله الزراعى ونقله او القيام بعمليات الصيد التى تشهد عليها ادواته من هذه المرحلة مثل السهام وغيرها.

ومما لاشك فيه ان وفرة الانتاج فى هذه المرحلة والقدرة على التنقل والحركة قد عكسا مظهر جديدا للنشاط الاقتصادى البدائى فى هذه المرحلة وهو التجارة على اعتمدت على نظام المقايضة بين المراكز الحضارية المختلفة.

وعلى الرغم من الاشارة الى موقع سيالك الثانية كأبرز نموذج لهذه المرحلة، الا أن هناك العديد من المواقع الخاصة بالمرحلة الحضارية الاولى قد شاركت المرحلة الثانية بعد مظاهر نموها وتطورها مثل تبه جيان وربوة على كوش على سبيل المثال لا الحصر.

جـ- المرحلة الحضارية الثالثة (سيالك الثالثة):

مثلت مظاهر العطاء الحضارى لهذه المرحلة نوعا من التمكن الفائض فى تطوير الانتاج الحضارى الذى استقر عليه الانسان خلال مرحلته الممتدة من حوالى ٧٠٠٠ ق.م وحتى ٣٠٠٠ ق.م وتقابل هذه المرحلة الحضارية الثالثة مثيلتها فى منطقة العبيد وبداية الوركا فى العراق القديم.

وأهم مايميز نتاجها ان البيوت اصحبت اكثر انتظاما فى شكلها نتيجة لاستخدام قوالب اللبن المصبوب وان احتفظت بالابواب والنوافذ، فضلا عن استخدام ارضياتها فى دفن الموتى فى وضع القرفصاء مع زيادة الاثاث الجنزى، وزاد على طلائها اللون الابيض الى جانب الاحمر الذى عرف فى المرحلة السابقة.

كما نمت القرى واتسعت مساحتها وكثرت شوارعها وان تميزت بالضيق والتعرج. ويبدو أن النمو لم يكن بسبب التقدم الزراعى فحسب بل ايضا بسب التوسع التجارى الذى يدعمه تمييز الصناعات وادوات الملكية الخاصة بالافراد بختمها باختمام ذات شكال هندسية تطبع بالحجر على مخروط طينى فوق فوهات الآنية.

اما الفخار فقد تميز باتقان بالغ ساعد عليه اختراع عجلة الفخار مما ادى الى تنوع الاشكال والاحجام المنتجة والتى كانت تصقل بوضعها فى الافران وتلون بالوان مختلفة كالرمادى والوردى الى جانب الاخضر والاحمر. كما

حفلت بالرسوم التى تفيض بالحيوية والواقعية الى جانب الاشكال الهندسية من المثلثات والمربعات التى شكلتها الخطوط المتقاطعة.

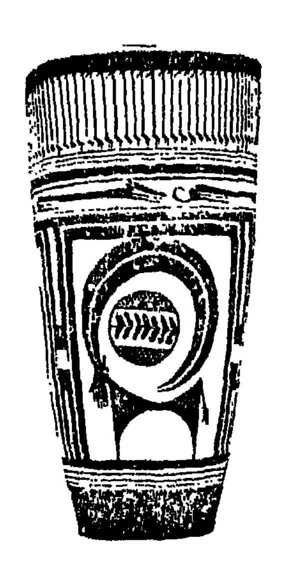
وقد عبر التصوير الفنى عن بعض المناظر الواقعية مثل مناظر الصيد أو الرقص الجماعى، وكان امتلاك الانسان آنذاك لادواته الفنية سبيلا ممهدا لانتقال لمرحلة الكتابة الصورية فى ايران والتى تعرف باسم حضارة ماقبل العيلامية Proto Elamite Culture.

كما استخدم الفخار ايضا فى صناعة التماثيل باشكال حيوانية او تلك التى تعبر عن مغزى عقيدى مثل تماثيل الامومة والتى تشير الى الاخصاب. والتى وجدت مقطوعة الرأس ربما بهدف عدم اتاحة الفرصة لاى شخص لان يستخدمها بعد وفاة صاحبها. وهذا فضلا عن صناعة التما ثيل النذرية او الحامية للممتلكات من عاديات الزمان.

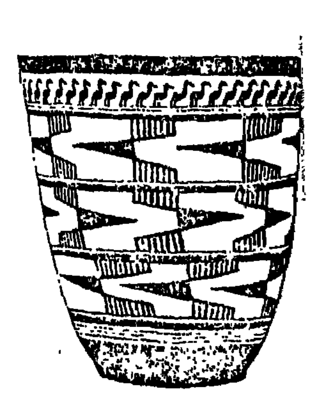
اما المعادن فقد اتسع نطاق استخدامها لاسيما النحاس الذى توصل انسان هذه الحضارة الى التقنية الخاصة بصهره وصبه فى قوالب او تشكيله لصناعة ادواته. لاسيما ادوات الزينة من مرايا وحلى مطعم الاحجار الكريمة ونصف الكريمة. فضلا عن ادوات العمل كالخناجر والسكاكين التى استخدمها فى الاعمال المنزلية وان احتفظ الى جانبها بالادوات الحجرية التى اعتاد عليها .

ومما لاشك فيه ان المراكز الحضارية التى عرفتها هذه الحضارة الى جانب سيالك الثالثة كانت مهد قيام المدنيات المبكرة بالهضبة الايرانية لاسيما تلك التى انتظمت فى العيش بها جماعات منتظمة مثل سوسة وقد أشرنا اليها سلفا كمركز وعاصمة ادارية لعيلام فى عصورها التاريخية حسبما سنرى فيما بعد. اما تبه حسار وبرسبوليس فربما يرجع تأخرها عن ركب المدينة المبكرة اسوة بسوسة، ورغم انتمائها لهذه المرحلة الحضارية الى قلة عدد السكان وتفرقهم فى اماكن متباعدة.

* * *







لوحة رقم (٢٧)

أمثلة من الأوانى الفخارية فى سوسة (السوس)

ولعل من نافلة القول أن نشير الى المسمى الذى اطلق على منطقة الهضبة الايرانية والذى اشتمل على اسم «فارس» واسم «ايران» حيث استخدما بالتبادل لتعيين ذات المنطقة جغرافيا دون ان يكون هناك اية صلة فى الأصول التى استقى منها كل مسمى.

وبالنسبة لفارس فهو تعبير استخدمه شلمنصر الثالث فى احدى نصوصه للاشارة الى الميديين وموطنهم فى اقليم Parsa (Parsauas) والذى نطقه الاغريق Persis والعرب فارس، وشعبها الفرس الذى يساوى العجم. وقد اكتسب هذا الاقليم شهرة ميزته عن بقية اقاليم الامبراطورية لكونه مسقط رأس الاسرة الاخمينية الحاكمة، ثم استخدم بعد ذلك للإشارة الى الامبراطورية ككل من باب اطلاق الجزء على الكل.

اما ايران والتى يراها البعض اقدم من سابقتها فقد استحدث من ايريانا فيجا

اى موطن الآريين او الايرانيين، وظل مسمى اريانا يستخدم كاشارة لبلاد ايران كموضع وليس لسكانها فحسب. ويرى د. طه باقر ان الارى ومعناها، النبيل او السيد انما تشير لاولئك الاقوام المتحدثين باللغة الهنداوربية الشرقية والذين وفدوا على المنطقة الواقعة بين نهرى الجانج والفرات منذ نهاية الالف الثانى وبداية الالف الأول قبل الميلاد.

اما سكان المنطقة فقد استخدموا مسمى ايران كاشارة الى بلادهم وباشكال مختلفة فارضهم ايران، والدولة ايران شهر، وارض ايران هى ايران زامين.

ومن الطريف ان تمسك اهل البلاد بمسمى ايران ظل حتى العصر الحديث فى حين كانت تطلق عليه الدول الغربية إسم فارس. مما استدعى الحكومة الايرانية الى توجيه طلبها للدول الأجنبية عام ١٩٣٥ لمراعاة اطلاق اسم ايران على الدولة دون فارس، توحيد لمسماها الرسمى فى المحافل الدولية.

الفصل الثاني

الإطار التاريخي وأهم معالمه

(منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتي مجئ الاسكندر)



الفصل الثانى

الإطار التاريخى وأهم معالمه

(منذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى مجئ الإسكندر)

تقديم

لم تنسحب بداية العصر التاريخى فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد على بلاد الرافدين فحسب، بل امتدت إلى المنطقة الشرقية لها والتى تمثل جزءاً مرتبطاً بالهضبة الايرانية خضع لذات التأثيرات الحضارية التى خضعت لها الهضبة ولقد اكتنف الغموض هذه المنطقة التى عاشت فيها أقوام صاغت علاقتهم ببلاد الرافدين جزءا اساسيا من تاريخه. حقيقة أن الجهات الداخلية لهذه المنطقة تعوزنا المصادر عن طبيعة اقوامها وظروفهم التاريخية، الا أن المناطق الواقعة على الحدود حيث جبال زاجروس قد عاشت فيها قبائل جبلية تعرفنا على اسمائهم سلفا مثل الجوتيون واللولوبيون والعيلاميون والكاشيون.

ولقد كانت القبائل العيلامية اشهر هذه الأقوام وأعرقها حضارة اذ ساعد استيعاب مركزها الحضارى فى سوسة للمعطيات الحضارية للمنطقة فى عصور ماقبل التاريخ على ازدهارها وتميز نتاجها الحضارى منذ النصف الثانى من الالف الرابع قبل الميلاد.

وقد وضح هذا التميز جلياً فى تأثر فخارها بحضارة الرافدين فى اللون والشكل، فضلا عن بدايات الكتابة المتطورة عن الصورية التى اشرنا لها فى المرحلة الحضارية الثالثة التى زخرت بها الاختام والألواح الطينية من اثار المنطقة.

والواقع فانه يتبقى أن يشير الى أن العيلاميين واقرانهم من الاقوام الجبليين لم تجمع بينهم أية وحدة سياسية وان جمع بينهم لسان متشابه وانتموا الى جنس واحد. بيد أن العيلاميين كانوا أسبق كل هؤلاء فى الدخول الى العصر التاريخى وتأسيس كيان سياسى مستقل واسرة حاكمة منذ بداية الالف الثالث قبل الميلاد سواء بسواء مع بداية العصر التاريخى لمنطقة الرافدين، الأمر الذى يؤكد على تميز علاقة عيلام بحضارة الرافدين قبل الالف الثالث.

وعلى أية حال، فإن تناول العصر التاريخى برمته فى الهضبة الايرانية يستلزم تقسيمه حسبما اصطلح عليه العلماء الى ثلاثة وحدات رئيسية كل منها تقع فى الف مستقل قبل الميلاد. ونظرا لأن تاريخ هذه المنطقة برمته كان تاريخ أقوام أكثر من كونه تاريخ أمة موحدة، فلسوف نتناول فى هذا الفصل بالعرض الملامح العامة لتاريخ المنطقة فى كل الف على حدة. حيث سنتناول احداث الالفين الثالث والثانى قبل الميلاد فى عجالة، حتى لانقع فى مغبة التكرار لكثير من الأحداث التى تناولناها تفصيلا عند تناولنا لتاريخ الرافدين فى الباب الأول من هذا الكتاب. فى حين سيتم التركيز على الألف ومايمتز به من احداث لاسيما بعد نجاح الفرس الاخمينيين فى اسقاط بابل وانهاء التاريخ السياسى القديم للرافدين بسيطرها على المنطقة ككل.

أولا- في الالف الثالث قبل الميلاد

نعرف من المصادر العراقية أن الاقوام القاطنين على الحدود الشرقية حيث جبال زاجروس كانوا دائمى الضغط والتهديد إثارة القلاقل على الحدود لاسيما فى فترات الضعف وقد برز من اسماء هؤلاء اللولوبى وجويتوم (الجوتيون) وسكان ارض انشان (عيلام).

بيد أن واقع الأمر أن عيلام لم تكن مجرد منطقة يغير اقوامها على جيرانهم من لحظة لاخرى، بل كانت ذات كيان سياسى قائم بذاته منذ الربع الأول للألف الثالث قبل الميلاد. وقد اطلق السومريون على اقليمهم اسم «نم» بمعنى الارض المرتفعة، أما الاكديون فاسموه «ايلامتو» ربما كإشتقاق من الكلمة السومرية «إيم»، التى ربما تشير إلى أن اسم عيلام (إيلام) يعد اساسا اشتقاق من الاصل السومرى وهو قريب من مسمى التوراه لها (ايلامتو). فى حين اطلق العيلاميون على انفسهم وموطنهم اسم، حاورتى (حافرتى) بمعنى ارض الالة. أما اليونان فقد اطلقوا على المنطقة كلها مسمى العامن سوسة (سوسيانا) فى حين اسماها الفرنسى هوفاجا والتى اشتق منها مسمى «خور». هذا فضلا عن مسميات إنشان وشوشان.

وقد امتدت رقعة مملكة عيلام لحوالى ٩٠٠ كيلومتر واشتهرت بالمواد الخام من نحاس وبرونز، فضلا عن ان موقعها قد كفل لها ميزة التحكم فى طرق تبادل المتاجر. الأمر الذى جعلها محط أنظار العديد من القوى المحيطة بها سواء فى بلاد الرافدين اوشمال الهضبة الايرانية، كما جعلها منطقة جذب للعديد من العناصر البشرية فى وسط اسيا. فضلا عن ان فكرة الحضارة على حد تعبير سير م. ويلر M. Wheeler قد انتقلت عبرها من بلاد الرافدين الى الهند.

وعلى الرغم من استقرار حكم الاسرة العيلامية الحاكمة وسيطرتها على

رقعة كبيرة من الارض امتدت من شرق سوسة وحتى الساحل الشرقى للخليج، الا أن ظهور الأسرة الاكدية الحاكمة وتأسيس ملوكها لاسيما سرجون لدولة مترامية الاطراف قد جعل الصدام حتميا بين اكد وعيلام.

وقد أشرنا سلفا الى نجاح سرجون فى دحر عيلام بعد موقعتين ضارتين نجح بعدهما فى ضم سوسة الى حظيرة ملكه، كما نجح ايضا فى دحر التحالف اللولوبى – الجوتى، وهو ذات الأمر الذى اكد عليه ابنه مانيشتوسو بما يضمن له تأمين طرق نقل المواد الخام من الهضبة الايرانية الى العراق دون تهديد.

بيد أن التمرد سرعان ما عاد ثانية على عهد نارام سين، فما كان منه الا أن هاجم عيلام وعين من قبله حاكما لها، ونجح فى القيام ببعض المشروعات العمرانية واحلال اللغة الأكدية محل العيلامية امعانا فى اخضاع البلاد.

كما قام نارام سين بمقاتلة قبائل اللولوبى فى مقرته صورها كلا الجانبين على أنها نصر له. وذلك أن ملك اللولوبى «انوبانينى» قد سجل لنفسه نقشا مشيرا الى نصره على ملك اكد. وقد تناولنا هذه الاشكالية بالمناقشة عند عرضنا لنشاطات نارام سين العسكرية.

بيد أنه بوفاة نارام سين، استعادت عيلام سيادتها بفضل نجاح حاكمها «بوزور انشوشيناق» (جوتيك انشوشينان) فى اتخاذ بعض التدابير فى سبيل ذلك. حقيقة أنه بدأ كصنيعة للنفوذ الاكدى بعيلام، الا أنه اعاد الكتابة بالعيلامية بدلا من الاكدية، بالرغم من استخدام العيلاميين من قبل للغة السومرية بجانب العيلامية. الا أن الاكدية كانت تعنى بالنسبة لهم مظهر من مظاهر السيطرة التى نجحوا فى التخلص منها. بل ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل اندفع بقواته غازيا اكد ذاتها على عهد شاركا لى شارى، بيد أنه لم ينجح فقفل عائدا مكتفيا باستقلاله عن اكد.

اما الاقوام الجبلية فقد شجعهم هذا الوضع الجديد على الاغارة على بلاد الرافدين وتهديدها حتى نجح الجوتيون ابان منتصف هذا القرن فى اجتياح المنطقة واسقاط اسرة الوركاء الرابعة وحلول اسرتهم التى اخضعت المدن السومرية ومدت سيطرتها على عيلام ايضا. ونظرا لأن هؤلاء الجوتيين لم يكونوا اصحاب حضارة فقد تأثروا بالانماط الحضارية للمدن السومرية. كما أن عدم تمرسهم السياسى قد اوجد القلاقل الدائمة بين حكامهم الذين حكموا لمدد قصيرة ولم يخلفوا لنا نقوشاً يعتمد عليها فى كتابه تاريخهم وان عرفنا بعض اسماء ملوكهم والقاب البعض الاخر، وهى أمور سهلت من مهمة حكام سلالة اور الثالثة عندما سادوا البلاد وقضوا على الجوتيين.

وبالنسبة لعيلام فغالب الأمر انها ارتبطت فى مسيرتها التاريخية ببلاد الرافدين منذ الاجتياح الجوتى، اذ انتقلت السيادة عليها لاسرة اور الثالثة من بعده. وعندما اجتاح جيش مملكه سيماش، إحدى الممالك الجبلية غرب اصفهان، منطقة الرافدين واسقط اسرة اور دخلت عيلام فى تبعيته. الا ان اسرة اسين اخذ زمام المبادرة لطرد اولئك الغزاه وعندما دان لها الأمر كانت عيلام احدى المناطق التى دخلت ضمن نفوذها.

اما الفترة المتبقية من النصف الثانى من الالف الثالث قبل الميلاد، فليس لدينا ثمة مصادر يمكن الاعتماد عليها فى استجلاء وضع مملكة عيلام وجيرانها من الاقوام الجبليين خلال هذه الفترة. وخلاصة الامر فى هذه المرحلة المتعلقة بالالف الثالث قبل الميلاد يمكن ايجازها فى خطوط عريضة مضمونها نجاح اقوام الهضبة الايرانية فى دحر واسقاط مملكتين من ممالك جنوب الرافدين هى اكد واور الثالثة من ناحية، ونجاح الممالك السومرية من ناحية أخرى فى تحجيم تعاظم هذه الأقوام فى شكل دولة موحدة سياسيا تأمينا لسيطرتهم على المقدرات الاقتصادية للمنطقة طالما ظل اولئك الاقوام على تفرقهم.

ثانيا: فى الألف الثانى قبل الميلاد

شهدت منطقة الشرق الأدنى القديم بعامه خلال الالف الثانى قبل الميلاد تحركات بشرية غاية فى الأهمية لما كان لها من تأثير على المنطقة وصيانة الأحداث فيها. اذ شهدت بدايات هذه الفترة زحفاً لعناصر هندو اوربية اتجهت اولاها الى اسيا الصغرى وكونت مملكة الحيثين، والأخرى الى اعالى الفرات عبر القوقاز مكونة مملكة ميتانى بعد اختلاطها بالحوريين. ومن هؤلاء الأقوام جاء الهكسوس لغزو مصر. كما اتجه فرع آخر وباعداد اقل الى وسط جبال زاجروس، وهم الكاشيون. اما نهاية هذا الألف فقد شهدت تهديد «شعوب البحر» لدول الشرق الأدنى المطلة على البحر المتوسط مثل الساحل السورى والسواحل المصرية والليبية، فضلا عن جزر البحر المتوسط. وكان لضغط هذه الجماعات اثره فى احداث القلاقل فى المنطقة وتغيير موازين القوى بها.

والواقع، فان كيان عيلام السياسى خلال هذا الالف كان اكثر تماسكا ووضوحا لاسيما فى جنوب غرب ايران. ولقد أفاضت المصادر فى الحديث عن نجاح سلاله عيلامية من غزو جنوب العراق وتأسيس اسرة حاكمة فى لارسا من ٢٠٢٥ ق.م الى ١٧٦٣ ق.م حيث نجح حمورابى فى القضاء عليها وتأسيس الدولة البابلية الأولى. الا أن بالرغم من ذلك فان الوضع فى عيلام نفسه يكتنفه الكثير من الغموض.

بيد أنه يمكن القول، ان حكام عيلام بعد سقوط اور ظلوا محليين بطبيعتهم يدلل على ذلك لقبهم الذى حملوه وهو «شوكالماه» اى الوزير الأعظم. وقد ظل هؤلاء على محليتهم حتى اجتياح حمورابى للمنطقة. ويرى البعض أن هؤلاء الحكام قد حاولوا التدخل فى شئون الرافدين اكثر من

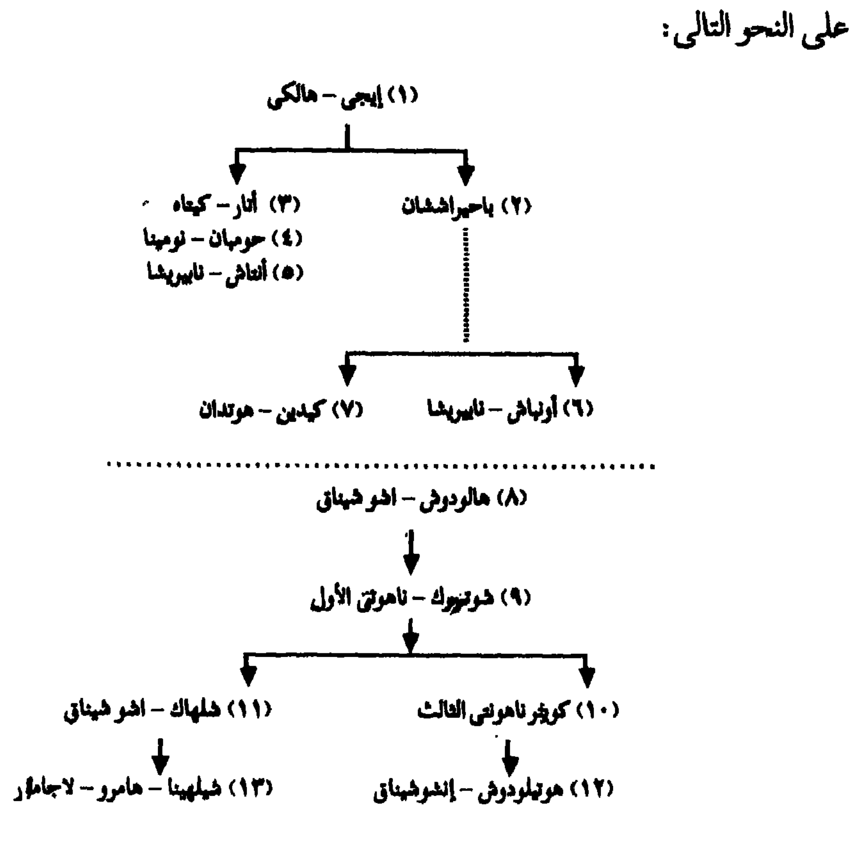
مرة لاسيما في منطقة اشور بعد سقوط حكم شمش أداد الأول. وأنهم لم يكونوا محليين. اذ أن احد ملوكهم ويدعى شير وكنوخ قد قاتل الجوتيين على رأس ١٢٠٠٠ مقاتل. وأنه اقام علاقات سلمية مع مملكة ماری على عهد زمری ليم وكذلك الممالك السورية. كما أن احد خلفاؤه قد اقام حلفا مع اشنونا استمر لفترة طويلة حتى عهد حمورابی ذاته الذى اخضع عيلام والقبائل الجبلية مثل الجوتيوم والسوبارتو.

غير أن بابل قد تعرضت بعد وفاة حمورابی لهجمة عيلامية على يد سابع ملوك اسرة ابارنی الحاكمة ويدعى كوثير ناهونتی الأول. الذى سلبها تمثال المعبودة انانا ونقله الى سوسة العاصمة حيث ظل هناك حتى أعاده اشوربانيبال.

وعلى أية حال، فقد ظلت المصادر على صمتها فيما يتعلق بعيلام منذ احتياج الكاشيين لبابل وتأسيس الاسرة الحاكمة التى تناولنا تاريخها بالعرض فى الفصل السابق. ولم تسعفنا المصادر سوى ببعض اسماء الملوك ونزريسير من المعلومات التى لايمكن بحال من الأحوال أن تغطى فترة زمنية امتدت قرابة اربعة قرون هى مدة سيطرة الكاشيين على المنطقة.

فعلى سبيل المثال، اظهرت الحفائر فى موقع يقع حوالى ١٥ كم جنوب سوسة ان احد الملوك ويدعى تيتى اهار ويلقب بملك سوسة واشتان، والذى يرجع عهدة لمنتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد قد بنى مدينة حدد موقعها فى منطقة كابناك القديمة. حيث عثرهناك على بقايا اثرية وهياكل عظيمة ولوحات بلغت ٦٠٠ لوحة، تضمنت طبيعة النظام الإدارى وسنوات بناء المعابد والبعثات الدبلوماسية بين عيلام وبابل على عهده والذى عاصر عهد الحاكم الكاشى كادشمان انليل الأول الذى جاء ذكره فى احدى هذه اللوحات.

بيد أنه بعد غزو الملك الكاشى كاريجالزو الثانى (١٣٣٢– ١٣٠٨ق.م) لعيلام، قامت بها اسرة جديدة أسس احد الحكام ويدعى إيجى هالكى والذى خلف من عهده نقشا بمنطقة جويشن او ادمدون القديمة. ولسوف نستعرض التسلسل المتاح لملوك عيلام خلال هذا الألف الثانى، قبل الخوض فى ذكر ما اتيح من معلومات تاريخية متفرقة منهم. حيث ينتظم تسلسلهم على النحو التالى:



وتشير الحفائد الى قيام رابع ملوك عيلام ببناء معبد على الساحل الايرانى للخليج بمنطقة ليان حوالى ٤٠٠ كم جنوب شرق سوسة. أما خلفه فقد اعاد اصلاح العديد من المعابد العيلامية من بينها عشرين معبدا فى سوسة وحدها. بيد أن أهم اعماله هو بناء مدينة جديدة على مبعدة ٤٠ كيلومترا جنوب شرق سوسة (خوجه زنبيل الحالية) وقد ضمنها العديد من وسائل

الإعمار، كما ضمت الجبانة الملكية التى حوت قبرة وقبور اسرته. أما خليفته على عرش عيلام أو نتاش نابير يشا فقد عثر على لوحة حجرية ودرع معدنى من عهده.

ويبدو ان الصراعات التى كانت تنشب بين الحكام الكاشيين فى بابل وبين حكام عيلام قد أثرت على ظروف تولى العرش، اذ يبدو أن صلة النسب قد قطعت بعد سابع ملوك عيلام حيث تولى مؤسس لاسرة جديدة لم يلبث ولده شوتروك ناهونتى الأول أن قام بغزو بابل وانهاء الحكم الكاشى بها.

ولقد مثلت فترة حكم هذا الملك الأخير عهد ازدهار لعيلام ساعده على ذلك الصراع البلبلى الأشورى الذى سمح له بالتقاط الانفاس وتنظيم البيت العيلامى من الداخل. وقد ركز على بناء المعابد واخضاع القبائل النجلية المجاورة له شرقا والسيطرة على الساحل الشرقى للخليج العربى من ناحية الغرب.

وقد شجعته هذه النجاحات على مد نفوذه دخل بلاد الرافدين، فاتجه صوب بابل وفتحها وعين ابنه كوتير ناهونتى الثالث حاكما عليها لفتر، كما ضمن خضوع مدن اشنونا وسيبار وغيرهما. وان كانت بابل قد عادت للتمدد مرة أخرى.

إلا أنه بوفاته أعتلى ابنة عرش عيلام حيث وجهه اهتمامه نحو عمار سوسة بالمعابد والمنشآت. وقد خلفه شلهاك انشوشيناق الذى بسط نفوذ عيلام على وادى دجلة كله فضلا عن شواطى. الخليج العربى وسلاسل جبال زاجروس بعد سلسلة من الحملات الناجحة التى تضمنتها آثاره تفصيليا. وان كان الملاحظ على حملاته عدم ضمها لبابل، ورغم محاولته ايجاد ذريعة

لذلك لاسيما ابان التدخل البابلى فى اشور. وان كان يحسب له تأسيس اول دولة عيلامية موحدة، الأمر الذى جعله فى نظر شعبه ليس فقط بطلا قوميا اذا جاز التعبير - بل الها معبودا.

الا أن بابل على عهد اسرتها الرابعة وملكها نبوخذ نصر الأول، قامت بمبادئه عيلام التى اعتلى عرش خلفاء شلهاك انشوشناق الذين لم يكونوا على نفس الدرجة من القوة السياسية مثله، فاتاح ضعفهم لنبوخذ نصر من اقتطاع الاراضى شرقى دجلة وضمها لنفوذه، وهى التى كانت خاضعة لعيلام. ثم اعقب ذلك حملة منظمة مكنته من مهاجمة سوسة ذاتها واسقاطها، لتخضع بسقوطها بقية المناطق العيلامية لسيطرته، ولينهى بذلك بذلك الكيان السياسى لعيلام التى زوت على اثره خلف استار النسيان والأفول لثلاثة قرون حيث اشتد الصراع البابلى - الاشورى فيها، فى حين ظلت الهضبة الايرانية على هامش تاريخ المنطقة.

ثالثا: فى الالف الأول قبل الميلاد

لم يكن مقدم القبائل الايرانية الى ايران فى بداية هذا الالف الأول الا حلقة من سلسلة هجرات الشعوب الهند واوربية التى اجتاحت منطقة الشرق القديم. فدالت ممالك وحلت أخر. وكان من بينهم الايرانيون الذين توغلوا نحو قلب الهضبة الايرانية عبر القوقاز او عبر طريق ترانسو كسيانا. وكفلت لهم مجاميعهم الكثيرة القدرة على قيام كيان مستقل بهم دون ان يمتصوا فى الشعوب الموجودة بالهضبة الايرانية.

والواقع فانه نتيجة لتوافد هذه الجماعات والتوسع فى استخدام الجديد الذى اعتبر هذا الالف بداية عصر الحديد بعد مرحلة عصور البرونز، نجد أن السيادة فى شرق اقليم الشرق الأدنى قد انتقلت من السهول الفيضية الى المرتفعات. وقد نجح الايرانيون خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد أن يخوضوا صراعا ضاريا مع القوى الموجودة بالمنطقة وهم الاشوريون والاوراتيون حتى نجحوا فى اقامة دولتهم.

ولقد ساعد الإيرانيون على تحقيق هدفهم تمكنهم من التعامل مع الخيول اذ كانوا فرسانا شديدى المراس، الامر الذى أمكنهم للعمل كجند مرتزقة لدى الأمراء المحليين. وقد أظهرت البقايا الاثرية بمناطق استيطانهم لاسيما سيالك حفاظهم على تقاليدهم الحضارية الخاصة بهم سواء فى بناء منازلهم او فى طرائق دفن موتاهم، حيث خصصت لهم جبانات خارج المدن على غير عادة أهالى المنطقة. كما استخدموا الأدوات المعدنية لاسيما الاسلحة من البرونز والحديد على نطاق واسع. واصبح لمجتمعاتهم اسسا طبقية تميز بين الأمراء والعامة.

والواقع فانه من الصعب ونحن نتحدث عن القبائل الايرانية الميدية والفارسية الا نشير الى قبيلتين لعبتا دورا لايستهان به فى المنطقة ابان السيادة

الاشورية وهم السيميريون cimmerians والاسكيثيون Scythians الذين سادوا في شمال غربي ايران. حيث هاجم اولاهم اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين، وكانت لهم صولات وجولات مع الاشوريين بعدما نجحوا في اسقاط مملكتي الفريجيين في اسيا الصغرى والاورارتيين. اما القبيلة الثانية والتي عاشت في جنوبي سيبريا بالاتحاد السوفيتي، فقد مدت نفوذها حتى جنوبي بحيرة اورميا في منطقة كردستان. وقد خلف ملوكها الطموحين آثاراً بالغة الروعة من الناحية الفنية. كما كان لهم علاقات سلمية وعسكرية مع الميديين، بل حاول أحد ملوكها ويدعى ماديس غزو بابل متحدا مع السيميريين. حيث ذهبوا في تهديدهم للمنطقة مذهبا استدعى التدخل الأشورى حسبما ذكرنا سلفا.

وبالنسبة للميديين والفرس فيمكن القول ان الميديين والفرس قد أشير اليهم ككيان واحد في المصادر التوراتية واليونانية، بحكم كونهم قبائل هندور اوربية تتحدث لغة واحدة. الا أن التمييز بينهم وفقا لما اشارت اليه المصادر الاشورية يتم بين الباحثين على اساس المنطقة التي استقروا فيها خاصة في فترة الامبراطورية الأشورية. ذلك أن المديين قد استقروا في الوديان الخصبة التي يخترقها الطريق الرئيسي المؤدى لايران، لاسيما في الجنوب الشرقي في مجاورات همذان. اما الفرس فقد استقروا في المنطقة الواقعة الى غرب وجنوب غرب بحيرة اورميا حيث جاوروا الميديين في قلب منطقة جبال زاجروس. في حين استقرت جماعة فارسية اخرى في منطقة انشان بمقاطعة فارس الحالية. ويبدو من ذلك كان على عهد شلمنصر الثالث صاحب اول اشارة للايرانيين ولسوف نستعرض تاريخ ايران من خلال ظهور قوة كل من الميديين والفرس ككيانين سياسيين منفصلين عن بعضهما، وعلى النحو التالي:—

١- الميديون:

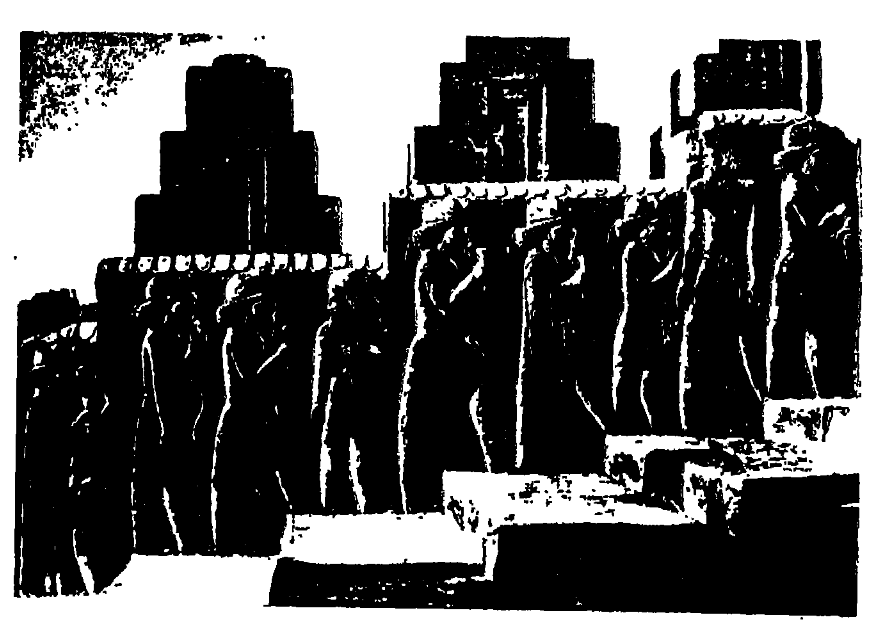
كانت لهم مواقف مساندة لبني جلدتهم من السيميرين والاسكيثيين وكذا الاورارتو إبان حروبهم وتوسعاتهم في المنطقة. وقد دفعوا ثمن هذه المساندة عدة مرات، بل وصل بهم الأمر الى الخضوع احيانا لاولئك الحلفاء

مثلما حدث مع الاورارتيين على عهد ملكهم ارجيستيس الذى ضم المناطق الواقعة حول بحيرة اورميا ومعظم ولايات آسيا الصغرى التى كانت فى حوزة اشور، والتى كان يحكمها انذاك تجلات بلاسر الثالث.

بيد أن هذا الأخير نجح فى استعادة ملكه المسلوب واخضع الامراء الميديين الذين دفعوا الجزية عن يدوهم صاغرون. وقد اكد سرجون الثانى هذا التوجه حيال عيلام واسيا الصغرى وميديا، حتى ان سرجون لم يكتف بإخضاع ثمانية وعشرين أميراً ميدياً لسيادته، بل نجح فى إحدى حمالته التالية فى أسر الملك الميدى واسرته ونفيهم الى حماه فى وسوريا، ثم أعاد الكرة على ميديا عدة مرات كلما تمرد اهلها على سلطاته.

ويبدو أن الميديين قد وعوا الدرس جيدا، فاستغلوا فرص انشغال سنحريب فى حروبه على الجبهة الغربية وبدأوا فى تقوية انفسهم بالتوحد وجمع الشمل تحت راية احد الامراء من اسرة دايوكا التى نفى مؤسسها الى سوريا – كما سلف ذكره، ويدعى هذا الأمير «خشاتريتا».

نجح خشاتريتا فى تأسيس مملكة امتدت من همدان الى شرق ديمافند، كما امتدت جنوبا الى حدود صحراء ايران، وكانت له تحالفات مع السميرين والاسكنيين، نجح فى اخضاع الفرس. الا ان طموحاته قد أودت بحياته، اذ تطلع لغزو نينوى. وهو الامر الذى كان بمثابة المخا طرة التى دفعت ثمنها دولته الناشئة اذ استغل الاسكيثيون هذه الهزيمة التى لحقت بالميديين حلفاء الأمس وإعداء اليوم، واجتاحوا اشور واسيا الصغرى وسوريا وفلسطين. كما ذكرنا سلفا. واخضعوا ميديا لنفوذهم ثمانية وعشرين عاما (٦٥٣ – ٦٢٥ ق.م).



لوحة رقم (٢٨)

نقش من برسبوليس يصور بعض النبلاء الميديين

قبل كي اخسار (كياكسارس) خليفة خشاثريتا وابنه الخضوع للغزاة الجدد، بدفع الجزية واظهار فروض الولاء والطاعة. الا أنه كان يعد العدة للتخلص من نير الاسكيثيين، وبالفعل تم له ما اراد، ثم وطد نصره بالسيطرة على القبائل المجاورة لاسيما الفرس والمنائين (سكان جبال كردستان). واتخذ من أكياتانا (همذان الحالية) عاصمة له. ومنها انطلق الى مهاجمة بلاد الرافدين ونجح بالتحالف مع ملك بابل بنوبيلاسر من مهاجمة اشور واسقاط نينوى عام ٦١٢ ق.م.

تابع كي اخسار زحفه نحو الاناضول، حيث تم اسقاط اوراتو حوالى عام ٥٩٠ ق.م وأصبح الصدام مع مملكة ليديا امرا حتميا. وليديا هي المملكة التى قامت على انقاض مملكة الحيثين، حيث سكنها اقوام عدوا خليطا بين

المواطنين من آسيا والصغرى والمهاجرين الهندو- أروبيين. وقد أصبحت ذات كيان سياسى كدولة منذ نهاية القرن الثامن قبل الميلاد وكانت عاصمتها ساردیس. وقد تمتعت بالرخاء والثروة لوفرة المعادن بها لاسيما الذهب والنحاس والفضة، مما جعلها تشرف على العمليات التجارية ذات العائد الضخم، بالمنطقة لاسيما مع اليونان وساعدها فى تيسير تجارتها اتخاذها العملة المعدنية فى اتمام الصفقات بدلا من نظام المقايضة. ومن أشهر ملوكها ألايتس وكروسوس.

ولقد كانت ثروة ليديا وموقعها محط نظر الملك الميدى الذى دخل فى حرب مع الاتيس دامت لخمسة اعوام حتى عام ٥٨٥ ق.م عندما استمع الطرفان لنبوءه تحذرهم من استمرار القتال الذى اوقف بالفعل. وتم الصلح بين الطرفين بوساطة الملك البابلى نبوخذ نصر حيث تم تثبيت الحدود بينهما كما دعم هذا الصلح بزواج ابنة ملك ليديا من ابن الملك الميدى وخليفته بعد ذلك استياجس.

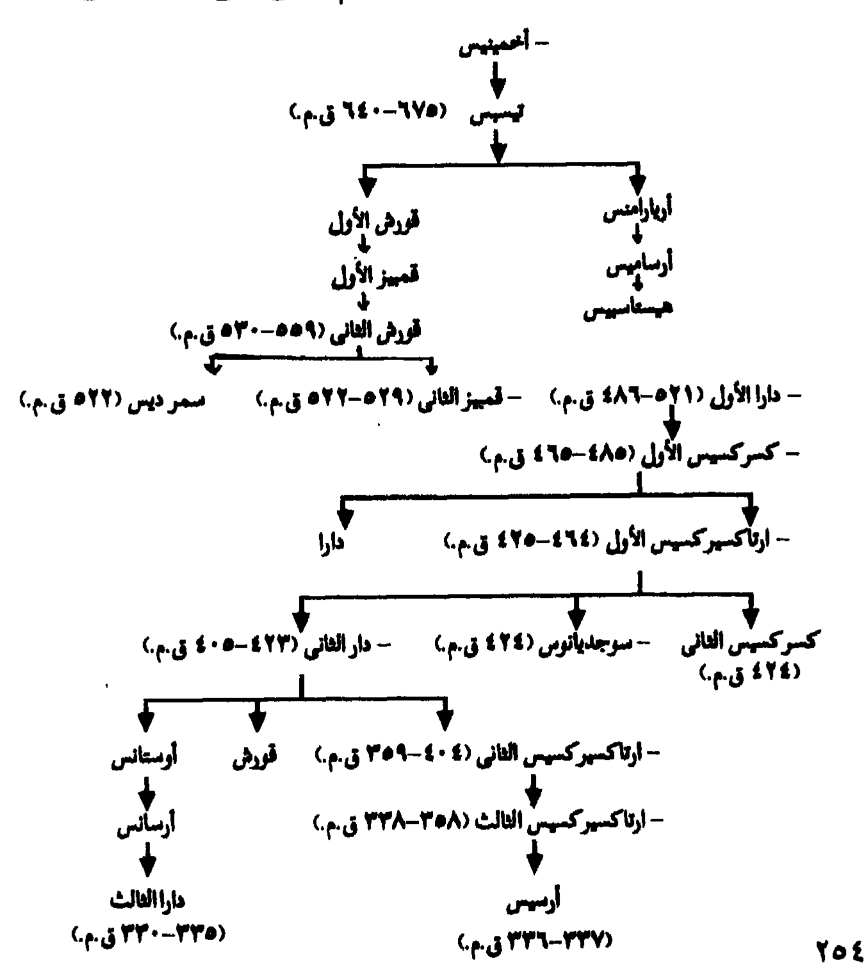
على الرغم من أن استياجس قد خلف والده على عرش مملكه دانت لها السيطرة على معظم ايران والأناضول. الا أنه وخلال مدة حكمه الممتدة لخمس وثلاثين عاما، لم يكن على ذات المستوى من الحنكة والدربة السياسية.

لذا فقد اندفع مهاجما بابل على عهد نابونيد الذى لم يجد بدا من التحالف على الملك الفارسى قورشى الثانى لوقف الزحف الميدى. وقد وجدها هذا الامير فرصة للانقضاض على ميديا وتم له ما اراد ليبزغ نجم الفرس ككيان سياسى دانت له السيطرة على ايران خلفا للميديين، فيما يعرف بالمملكة الفارسية الإخمينية.

٢- الاخمينيون (الفرس):

تنسب هذه الجماعة الفارسية لزعيم لها يدعى اخمينيس الذين اقاموا منذ القرن السابع قبل الميلاد بمنطقة بارسوماش عند سفوح جبل بختيارى الى الشرق من شوشتار، والواقعة على نهر قارون، ونظرا لوقوع هذه المنطقة ضمن النفوذ العيلامى، فقد خضع هؤلاء الأقوام لعيلام، بل وشاركوها حروبها ضد اشور. كما شاركوها الخضوع لاية قوى سياسية تسيطر على عيلام، لاسيما اشور بالطبع.

ولسوف نعرض لقائمة تسلسل حكام وملوك الفرس الاخمينون قبل الخوض فى سرد الأحداث التاريخية المتعلقة بهم. وهى على النحو التالى:



ولقد نجح تيسبس الملقب بملك انشان فى السيطرة على المنطقة الواقعة شمال غرب بارسوماش. كما استغل الصراع الاشورى العيلامى ليشق عصا الطاعة عن عيلام، وان خضع اسميا لملك الميديين، خشاتريتا. ثم نفض عن نفسه هذا الخضوع بعد مقتله، ليوسع نطاق ملكه بضم اقليم بارسواش (فارس) الذى جعل ابنه حاكما عليها.

ولقد خضع ملوك هذه الاسرة لاشور بانيبال. ابان صراعه مع عيلام، حتى ان قورش حاكم فارس قد أظهر ولاءه لأشور بدفع ابنه كرهينه ضمانا لهذا الولاء. ثم سرعان ماتحول ولاءة نحو الميديين بعد دحرهم لاشور.

والجدير بالذكر، ان حكم هذه المملكة الناشئة بعد وفاة تيسبيس، كان منقسما بين ولديه. الذى حمل كل منهما لقب الملك العظيم، ملك الملوك، ثم اسم المنطقة التى يحكمها. الا أن قمبيز الأول بن قورش الأول قد أعاد توحيد المملكة مع احتفاظه بابناء عمه كحكام تابعين له على الاقاليم الفارسية اذ ساعده فى بلوغ هذه الغاية حليفة ملك ميديا استياجس الذى زوجه ابنته ايضا، ام خليفته على عرش فارس قورش الثانى.

يعد قورش الثانى (٥٥٩ - ٥٣٠ ق.م) المؤسس الحقيقى للامبراطورية الاخمينية الفارسية. اذ جمع بين الكفاءة العسكرية والحنكة السياسية، تسانده فى ذلك جماعة من المقاتلين المتمرسين سواء من المشاه الرماه او الفرسان المهاجمين، واللذين استفادوا جميعهم من القدرة العسكرية لجنود اشور.

ولقد حيكت حوله شخصة العديد من الاساطير وان كانت نصوص عهده تشير الى أنه حد خلفاء ملوك أنشان، وعندما تولى العرش كانت مملكته خاضعة للميديين. الا أن الصراع الذى كان بين ملك ميديا استياجس

وملك بابل نابونيد ولجوئه لمحالفة هورشن، قد منح هذا الأخير فرصة لمقاتلة الميديين.

وقد سجل نابونيد هذا الصراع الذى استمرت حلقاته حتى تعرض الملك الميدى لتمرد وثورة على يد قادة جيشه اقتلعته من سدة الحكم وسلمته لقورش حوالى عام ٥٥٠ق.م. ولقد زحف بعدها قورش الى همدان حيث استولى على كنوزها وعاد بها الى انشان. ليضم بذلك ميديا الى حظيرة ملكه الذى اصبح يمتد من حدود ليديا حتى الهضبة الايرانية.

ولقد اوغر نصر قورش الثانى صدر بابل فتحالفت بدورها مع كرويسوس ملك ليديا ومصر وبعض المدن الاغريقية لمواجهة هذا الخطر الفارسى. وقد وجدها قورش ذريعة فهاجم ليديا ونجح بعد عدة معارك بدأت فى بتريا وانتهت فى العاصمة الليدية ساردیس حيث استولى عليها حوالى عام ٥٤٧ق.م لتصبح بدورها مقاطعة فارسية.

أما الاعوام التي تلت فتح ليديا فقد قامت القوات الفارسية تحت قيادة القادة العسكريون الميديون الذين انضموا لقورش بمهاجمة المدن اليونانية الساحلية وجزر ايونيا وكاريا وليكيا، ونجح بالفعل فى دحرها جميعا عدا ميلتوس التى استعصت عليه. وما من شك ان الاستيلاء على المدن اليونانية كان معناه الضمان لزيادة ثراء الامبراطورية الفارسية الناشئة فضلا عن عمالتها الفنية المدربة وجندها المرتزقة المدربين. وقد قام قورشن بعد هذا النصر بتقسيم ممتلكاته فى آسيا الصغرى اداريا الى قسمين ضم الأول الأقليم الايونى الى ساردیس، وضم الثانى اقليم البحر الأسود الذى عرف باسم «اقليم البحر».

اما المرحلة التالية من فتوحاته فقد وجهها قورش الثانى الى حدوده

الشرقية، حيث نجح في الاستيلاء على ولاياتها الواحدة تلو الأخرى بالشكل الذى كفل له السيطرة على كل الهضبة الايرانية بعدما امتد نفوذه الى وادى السند شرقا وبحر ارال الذى اصبح يمثل الحد الشمالى الشرقى لامبراطوريته. وقد اقام التحصينات اللازمة بتلك المدن ضمانا لصد هجمات بدو وسط اسيا.

بيد أن المهمة الكبرى فى سياسة قورش الثانى تمثلت فى الحد الغربى، حيث توجه الى بابل فى اخريات عام ٥٣٩ ق.م. ،نجح فى هزيمة جيشها عند اوبيس. ثم استولى على سيبار ومنها زحف الى بابل تحت قيادة اوجيارا القائد الفارسي ذو الاصل الجوتيى. وتم محاصرة معبد مردوخ حماية لاستمرار عبادته، كما تم اسر نابونيد الذى عينه قورش حاكما على منطقة كرمانيا جنوب ايران، كعادته مع حكام الاقاليم المفتوحة، كما اعاد كل تماثيل الالهة التى استولى عليها نابونيد الى مقاصيرها فى المعابد البابلية المختلفة.

ولم يكتف قورش بإعادة تماثيل الالهة من منفاها الى موطنها، بل اعاد اليهود المنفيين فى بابل واشور وميديا الى اورشليم، وارجع معهم كل ما استلب منهم من غنائم وسمح لهم باعادة بناء معبدهم هناك. وقد تناولنا سلفا طبيعة العلاقة بين اليهود وقورش الذى عد فيما بينهم بطلا قوميا. كما عده اليونان حاكما مثاليا. ولاغرو فى ذلك فقد حيكت حول سلوكه الحضارى في غزواته العديد من الروايات، وهو ما عززه الابقاء على خصومة واكرامهم وتعيينهم حكاما تابعين له فى الولايات الفارسية. وليس بخاف بالطبع المردود السياسى لتلك الدعايات على توطيد دعائم حكمه.

والجدير الذكر، ان توسع قورش الثانى فى فتوحاته قد استلزم بناء عاصمة

جديدة أنشأها فى بازار جادة على يد العمال الميديين الأكفاء، حيث بنى معبدا للديانة الزراديشتية الذى تعاصر قورش مع داعيها الأكبر.

ولقد كان قورش يعد العدة لغزو مصر حتى يستكمل بها فتوحاته، الا أن تمردا قد وقع بين قبائل وسط اسيا حيث بلغ من حرص قورش على دحره ان ذهب بنفسه فناله فى القتال سهما اودى بحياته عام ٥٣٠ ق.م بعدما اسس امبراطورية مترامية الاطراف حق له معها أن يلقب بقورش العظيم.

خلف قمبيز والده على عرش البلاد، حيث كان قد تمرس على الحرب والسياسة على عهد والده وصاحبه فى حملة بابل وشاركه حفل رأس السنة البابلى عام ٥٣٨ق.م. وقد كوفىء بلقب ملك بابل فى حين عين اخوه برديا حاكما على الاقاليم الشرقية.

ولقد امتد حكم قمبيز لحوالى ثمانية اعوام (٥٢٩ - ٥٢٢ ق.م)، كانت فيها حملته على مصر اعظم انجازاته بعد سيطرته على الأوضاع فى العاصمة اذ زحف الى مصر فوصل الى غزة، حيث انضمت اليه احدى الفرق المرتزقة من اليونانيين، فساعدوه على اجتياز سيناء والوصول الى (بلوزيوم) فى الوقت الذى كان الملك المصرى احمس قد توفى وحل محله ابسماتيك الثالث الذى لم ينجح فى صد الغزو الفارسى ولتدخل مصر بهزيمتها خطيرة النفوذ الفارسى عام ٥٢٥ ق.م بعد القضاء على الاسرة السادسة والعشرين الوطنية.

اعتبر قمبيز مؤسسا للاسرة السابعة والعشرين الحاكمة بمصر، وحاول السير على نهج والده فى معاملة اهل البلاد معاملة طيبة والتزام الاحترام لمعبوداتهم، ومشاعرهم الدينية، حيث قام بتقليد الحكام الوطنيين فى القيام

بواجباتهم الدينية. الا أن تخفيضه لمخصصات المعابد والكهان قد جعلته يلقى معارضة قوية من قبل رجال الدين.

ولقد حاول قمبيز ان يجعل من مصر قاعدة لاستكمال سيطرته على العالم القديم وذلك بارسال ثلاث حملات تتجه الاولى الى قرطاج، الا أنها باءت بالفشل لاعتماده على الاسطول الفينيقى الذى رفض قادته محاربة بنى جلدتهم اما الثانية فكانت موجهة الى واحة سيوة حيث مقر وحى الاله امون، فى محاولة منه لتأديب كهانه الذين افتأتوا عليه ووعدوه بسوء المصير غضبا من الاله أمون عليه لعدم حصوله على مايليق به من مخصصات. ومن ثم فقد كان لهذه الحملة خصوصية تفردت بها عن غيرها حيث قاد فيها قمبيز خمسين الفا من جنده الذين فنوا عن اخرهم فى الطريق من الواحات الخارجة وقبل الوصول الى سيوة. ولم يعثر لهذه الحملة بالفعل على أثر حيث يراها بعض الباحثين احد اسرار الصحراء الغربية، وان كان هيرودوت يذكر ان كهان امون قد وصفوا ما آل اليه مصير الحملة الى كونه غضبه الهيه من الاله امون انتقاما من قمبيز وجندة الذين عدهم اعداءه. ولقد كان لهذه الحملة نتائج بعيدة المدى حيث وجه قمبيز سخطه على الشعب والهته فهدم المعابد وانتهك الحرمات والمقدسات لاسيما فى منف. كما كان من نتائجها ان قام الاسكندر باسترضاء كهانة أمون فى سيوة عند فتحه لمصر، مستفيدا بذلك من درس التاريخ. اما الحملة الثالثة فقد حاول قمبيز بها غزو بلادكوش فى جنوب مصر والتى كانت تحت السيطرة المروية، الا أن عدم دراية جيشه بالطريق الذى استدرجتهم فيه قوات كوش قد اهلك معظمه وجعل ينسحب الى مصر جاراً أذيال الفشل.

وهكذا كانت اخر اعوام قمبيز الثلاثة وبالا عليه، زادها التمرد الذى حيك ضده فى العاصمة واضطره الى مغادرة مصر. بعد ما ادعى احد المتمردين - مستغلاً قرب شبهه من اخى قمبيز - نفسه حاكما على الولايات الفارسية الا أنه توفى إما متأثرا بمرضه او منتحراً بمنطقة شمال فلسطين، وهو فى طريقه الى فارس.

ويبدو أن قصة اعتلاء قمبيز العرش ثم وفاته قد حظيت بشهرة واسعة على يد خلفه دارا الأول الذى قام بنسخ عدة نسخ منها وترجمتها وتوزيعها فى عدة مناطق منها بابل واليفانتين. وملخصها أن قمبيز اعتلى العرش بعد ما قتل اخيه سمرديس، الا أن غيابة فى مصر جعل ماجوس (احد كهنة الفرس ويدعى ايضا جوماتا المتمرد) يعتلى العرش مستغلا شبهه باخيه المقتول. وظل الوضع حتى بعد وفاة قمبيز، الا أن دارا بمساعدة ستة من القادة نجحوا فى القبض على المتمرد وذبحه فى ذات العام ٥٢٢ق.م. ويبدو أن القصة ملفقة لخدمة الوضع الجديد لدارا كحاكم، اذ ان واقع الأمر يشير الى احتمال أن المتمرد كان بالفعل سمرديس وليس شبيهه وان اخيه قمبيز قد انتحر عندما علم باستيلائه على عرش فارس اثناء غيابه بمصر. الا أن دارا قد انقلب عليه ونجح فى اقصائه واعتلى العرش بمساعدة اولئك القادة من نبلاء فارس.

ومما يؤكد هذا الزعم، ان دارا كان اول حاكم يتولى عرش الامبراطورية الاخمينية من الفرع الاخر لابناء تيسبس، وهم خلفاء آريامنس. اى انه لم يكن الوريث الشرعى لعرش الامبراطورية. وهى قضية تستدعى استجلاؤها دراسة نقوش بازار جادة وبيسوتون ورواية هيرودوت.

وعلى أية حال فقد اعتلى دارا الأول عرش فارس لخمس وثلاثين عاما

(٥٢١ - ٤٨٦ق.م) حيث واجه الثورات التى اندلعت ضده فى اقاليم فارس، وعيلام وميديا، واشور ومصر وبارثياومارجيانا وستاجيديا وسكيثيا، ونجح بالفعل ان يقضى على هذه الثورات فى خلال عامه الأول. فقد سجل نقش بيسوتون فى احد الممرات الجبلية بين كرمنشاه وهمذان ان دارا قد احرز نصرا ضد حوالى عشرة من المتمردين الذين ادعوا الملك. وحتى يضمن توطد ملكه بعد هذا الكم من التمرد لم يكتف دارا باحترام الكيان الثقافى والاجتماعى والعقيدى للولايات بل قام بعدد من الزيجات السياسية من بنات خصومة المحليين فضلا عن ابنتى قورش وحفيدته.



اللوحة رقم (٢٩)

دارا وخلفه كركيس يستقبلون وفدا رسميا

وبعد أن اطمأن لتوطيد عرشه والقضاء على معظم التمردات ضده، سعى لتوسيع حدود امبراطوريته فهاجم الاسكيثيون بعدما عبر نهر الدانوب. كما سيطر على شبه الجزيرة الهندية. هذا بالاضافة لسبق قمعه لبعض الثورات فى الأقاليم الشرقية، وكذا تمرد نائبة فى مصر الذى إستدعى ذهابه إليها عام ٥١٧ ق.م. حيث أتبع سياسة مخالفة لسياسة سلفه حيال المقدسات والمعتقدات الدينية فى مصر كما نجح فى إعادة احياء قناة نكاو التى كانت تربط بين البحر الأحمر والبحر المتوسط.

وتعد تنظيمات دار الأول الإدارية من أهم انجازاته اذ قسم ولاياته الى عشرين ولاية Strapies وعلى رأس كل منها حاكم يتصل بصلة القربى للملك. ويحكمها نظام محدد فى جمع الضرائب والجرى يتفق والطبيعة الاصلاحية القانونية لهذه التدابير التى ساعد على نجاحها نظام جيد من وسائل الاتصال يشبه نظام البريد السريع الذى اعتمدت عليه كثير من حكومات الرافدين.

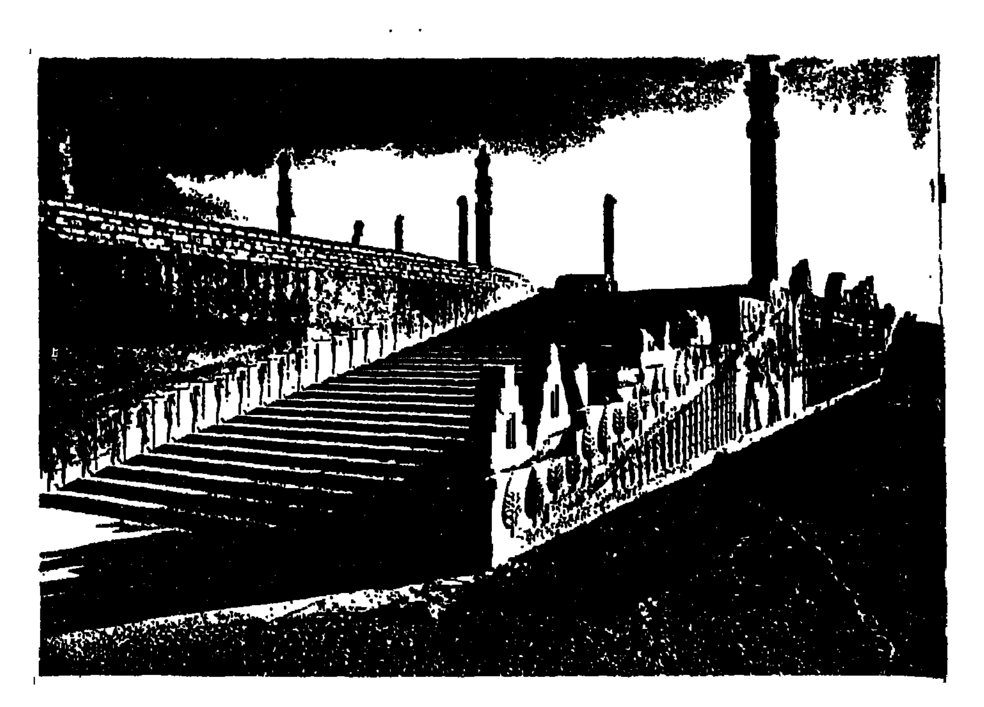
ويبدو أن دارا قد حكم عليه الا ينعم بالاستقرار فى الحكم، اذ لم يحل عام ٤٩٩ ق.م حتى تحالفت المدن اليونانية التابعة للفرس فى قبرص والمدن الساحلية لبحر إيجه ضد دارا الأول حيث نجحوا فى مهاجمة سارديس وتدميرها. الا أن دارا نجح فى قمع قبرص مستعينا بالفينيقيين، فى حين أخذ قمع المدن الايجية مدة أطول حتى حسم الأمر فى موقعه بجزيرة لادى قرب ميلتوس قرب نهاية عام ٤٩٤ ق.م الا أنه اضطر ثانية لاستخدام اسطول من ٦٠٠ سفينة ساعده فيه الفنيقيون والمصريون والكليكيون والقبارصة لحسم الصراع الداخلى الذى دار بين اليونانيين انفسهم بعدما انقسموا بين مؤيد

للحكم الفارسى عليهم ومعارض وقد بدأ فى حسم هذا الصراع بالقضاء على اية معارضة للمدن اليونانية فى آسيا الصغرى ثم اتجه الى السيطرة على الجانب الاخر من بحر ايجه. بيد أن الامر لم يكن بهذه السهولة اذ تحالف الفرقاء اليونان امام الخطر الفارسى حيث نجح الاثنييون فى الحاق هزيمة نكراء بالاسطول الفارسى فى ماراثون، ودفعوه للتقهقر متخذا طريق الساحل.

ولقد اغرى هذا النصر اليونانى على الأسطول الفارسى عام ٤٩٠ ق.م المصريين الذين تمردوا على الحكم الفارسى الذى اثقل كاهلهم بالجزية والضرائب. وحاول دارا ان يعد العدة لقمع اليونانيين والمصريين الذين تمردوا عليه الا أن المنية عاجلته عام ٤٨٦ ق.م تاركا هذه المهمة لمن سيخلفه.

بيد أنه قبل الانتقال الى عهد خليفة دارا الأول ينبغى الاشارة الى اسهامات هذا الملك الانشائية التى لم تشغله عنها تلك السلسلة المتواصلة من الحروب. فعلى الرغم من قصوره المتعددة فى بابل وهمذان وفارس الا أنه وقع اختياره على سوسه العاصمة القديمة لعيلام ليتخذها عاصمة له، فاعاد بناءها واسس بها قصرا له على مساحة ٢٥٠ متر مربع وجمع فيه بين انماط عمارة القصور فى بابل وبازر جادة وميديا.

كما بنى مقرا ملكيا على مبعده ٤٠ كم جنوب غرب بازار جادة اطلق عليه الفرس اسم بارسا، وهى مدينة برسيوليس الحالية فى مساحة ٤٥٠ متر طول، و٣٠٠ متر عرض زخرت بالعديد من القصور. واستمر العمل فيها على عهد ابنه وحفيده وقد جلب من اجل سوسة وبرسبوليس مواد بناء وعمال من كل ارجاء امبراطوريته، نظرا لعدم دراية الفرس ببنناء القصور. كما استلهم الانماط الفنية والمعمارية لابنيته من عدة اقاليم لاسيما مصر واليونان وبلاد الرافدين.



لوحة رقم (٣٠)
أحد الأبنية الملكية فى برسبوليس

وعلى أية حال، فقد اعتلى كسركسيس الأول عرش فارس خلفا لوالده، اما أمه فكانت ابنه قورش التى اشرنا لزواجه منها والتى كانت زوجه مبله لكل من الأخوين قمبيز وسمرديس. ويشير هيرودوت الى منزلتها وتأثيرها على دارا بحيث نجحت فى الظفر بالعرش لابنها رغم أنه لم يكن اكبر ابناء دارا، وإنما كان اول الابناء الذين انجبهم بعد اعتلائه عرش فارس.

حكم كسر كسيس الأول فى الفترة من ٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م نجح خلالها فى قمع ثورتين قامتا بعد وفاة والده. الأولى فى بابل والأخرى فى مصر، حيث تعامل معهما بمنتهى القسوة معيدا للاذهان ايام قمبيز. كما حاول غزو اليونان التى اعد لها العدة حسبما يذكر هيرودوت لسنوات عدة،

حيث قاد جيشا من مليونين من الجند سار به عبر الدردنيل فوق معابر صنعتها السفن ذاتها. وحتى لايكرر ماحدث للاسطول الفارسى ابان صراع والده مع اليونان وتعرض الاسطول للغرق بسبب عاصفة مدمرة، قام بحفر قناة عبر رأس جسر بحرى. ولقد بدأ زحفه جنوبا، حيث نجح فى دحر الاسبرطيين عند ثرموبيلاى، ثم أستولى على اثينا، الا ان اسطوله تعرض لهزيمة على يد اليونان عند سلاميس. الا أنه بحلول الشتاء هجر الجيش الفارسى اثينا متجها لشمال اليونان فى حين عاد كسر كسيس ادراجه شرقا تاركا مهمة استمرار الصراع مع اليونان لقائده ماردونيوس.

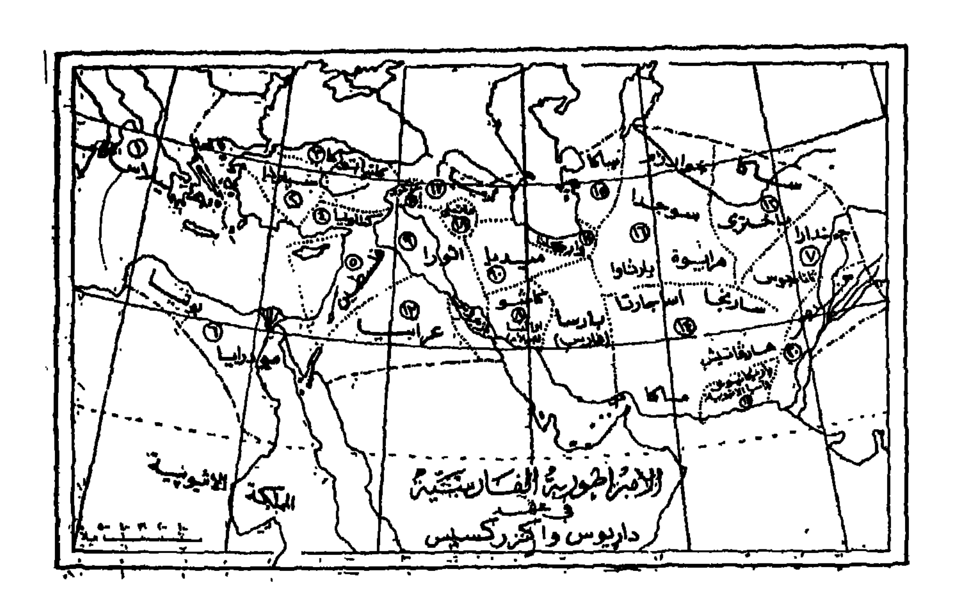
ولقد نجح هذا الأخير فى بداية معاركه من استعادة اثينا. الا انه هزم فى معركة تالية عند بلاتيا حيث لقى حتفه. وقد شجع هذا النصر اليونانيين عام ٤٧٩ق.م على استمرار الضغط على الجيش الفارسى وملاحقته عند ميكال على الطريق الرئيسى المقابل لجزيرة ساموس، ليجهضوا وبذلك كل خطط الفرس فى غزو اليونان.

والواقع فلقد مثلت هذه الانتصارات اليونانية نقطة تحول بين اليونان والفرس حيث اصبحت لليونان الكلمة العليا على البحار، واستعادت المدن اليونانية غرب تركيا فى العقود التالية استقلالها عن الحكم الفارسى. وكانت كل هذه الأمور، رغم استقرار بقية مناطق الامبراطورية ارهاصا ببداية الأنهيار.

والجدير بالذكر ان نهاية عهد كسر كسيس الأول قد شهدت نهاية مأساوية، حيث يذكر احد الاطباء اليونان الذين خدموا بعد ٦٠ عاما من وفاة كسركسيس الأول (عام ٤٥٦ ق.م.) أنه قتل على يد ثلاثة من كبار خلصائه منهم الوزير الأعظم، والحاجب حيث اغروا احد ابنائه ويدعى

ارتاكسركسيس الأول لقتل اخيه دارا وتولى العرش، حيث استمرت مدة حكمه زهاء عشرين عاما. نجح فيها فى قمع ثورة المصريين ضده، كما فتح الباب أمام شعبه للاستقرار فى بلاد الرافدين، واتبع سياسة متسامحة مع بابل فى مقابل ذلك. كما تميز عهده بازدياد نفوذ اليهود فى بلاطه، حيث نجحوا فى تأسيس العديد من الجاليات التجارية فى الولايات الفارسية فضلا عن إعادة اعمار اورشليم.

وعندما مات ارتاكسركيس الأول تصارع ثلاثة من ابنائه على العرش الذى تعاقبوا عليه بشكل سريع. حيث لقى اثنان منهما حتفهما بعد عدة شهور من اعتلاء العرش، ليتولى الثالث ويدعى اوخوس؛ العرش حيث اتخذ لنفسه اسم دارا الثانى.



لوحة رقم (٣١)

الإمبراطورية الفارسية فى عهد درايوس واكزركسيس

حكم دارا الثانى فى الفترة من (٤٢٣ - ٤٠٥ق.م) واشرك معه زوجته باريساتيس ابنه ارتاكسركسيس من احدى محظياته فى سابقه تعد الأولى من نوعها فى محاولة منه لاقصاء كل معارض داخل القصر. وقد تميز عهده بالفساد والمؤامرات التى امتد اثرها الى بلاد اليونان ظنا منه أنه باغداق الأموال يمكنه زعزعة استقرار المدن اليونانية السياسى بما يمكن معه استعادة مجد امبراطوريته الزائل هناك. بيد أن هذه السياسة كانت قد استنفدت اغراضها.

ولقد كان ولده المفضل من زوجته باريستاتيس هو ارساكيس الذى كان حاكما على ساردیس وعندما مات والده اصبح ملكا وإتخذ لنفسه اسم ارتاكسركسيس الثانى. وقد امتدت فترة حكمه لحوالى خمسة واربعين عاما من ٤٠٤ - ٣٥٩ق.م. وقد حصلت مصر على عهده على استقلالها من السيطرة الفارسية، فى الوقت الذى انشغل فيه بصراعه مع اخيه قورش. وقد قام هذا الأخير عام ٤٠١ق.م على رأس جيش من عشرة الآف مقاتل من المرتزقة الاغريق بالزحف عبر تركيا، حيث كان واليا على آسيا الصغرى، ومنها الى الفرات فى محاولة لمناوئه ملك اخيه ارتاكسركسيس الثانى. على الرغم من تجاوز هذا الأخير عن محاولة قورش لاغتياله عندما تولى العرش.

ومن هنا كان لزاما عليه أن يضع حدا لما يثيره من قلاقل، حيث الحق به هزيمة فى معركة كوناكسا شمال بابل، ولقى حتفه. اما جنده بقيادة كزينوفون فقد عادوا إدراجهم فى زحف طويل عبرا شور وارمينيا الى البحر الاسود ومنها الى اليونان.

ولقد اشتهر ارتاكسيركسيس الثانى بكثرة زيجاته التى بلغت ٣٦٠ زيجه، خلف منها ١١٥ ابنا. ولقد تآمر عليه ابنه الاكبر فلقى حتفه، اما الثانى فقد

انتحر بتناول السم بعد ما ادخل اخوه اوخوس فى روعه ان والده غير راض عنه. وبالفعل خلت مدة الحكم لاوخوس عند وفاة والده عا م ٣٥٩ق.م.، ليحكم خلفا لابيه متخذا اسم ارتاكسركسيس الثالث.

ولقد استمر حكمه لعشرين عاما. استهله بقتل كل اقاربه ممن يمكن أن يتولوا العرش او يدعوا احقيتهم بالملك منه. كما واجه سلسلة من الثورات فى الغرب، فضلا عن محاولته اعادة الكرة لغزو مصر عام ٣٤٣ق.م. بعد فشل محاولته الأولى لتحالفها مع المدن الفينيقية وصيدا، حيث إنتقم من المتحالفين جميعهم شر انتقام. الا أن الدوائر قد دارت عليه بعد خمس سنوات أى عام ٣٣٨ق.م حيث لقى مصرعه على يد قائد قواته باجواس الذى نصب ابنه ارسيس خلفا له على عرش فارس. ولقد حاول هذا الأخير التخلص من باجواس، الا أنه هو نفسه قد قتل بالسم بعد ما استمر حاكما لمدة عامين (٣٣٧ - ٣٣٦ق.م). ليضيف حلقة جديدة فى السلسلة الدامية التى صبغت عهود حكام الاسرة الاخمينية منذ قرابة قرن من الزمان.

ولقد اعتلى من بعده العرش ابن عمه دارا الثالث، بعد سلسلة من الإقتتال بين كل الاقارب الطامعين فى العرش. حيث قام بالتخلص من باجواس باجباره على تناول السم. ليخلو له عرش فارس خمس سنوات، بدأها عام ٣٣٥ق.م بغزو مصر لقمع تمردها بعد وفاة ارتاكسركسيس الثالث الا أن ظروف الامبراطورية وعدم قدرتها على متابعة مستعمراتها حالت دون تحقيق مبتغاة. وفى ذات الوقت ظهر على الساحة شابا طموحا اعتلى عرش مقدونيا هو الاسكندر، الذى زحف بعد عامين من توليه العرش لقتال دارا الثالث. وكان كلما استقطع جزء من الامبراطورية الفارسية يدفعه طموحه للحصول

على المزيد. لاسيما وانه الحق بجبين دارا الثالث ثلاثة هزائم فى ثلاثة معارك رئيسيه هى جراتيكوس عام ٣٣٤ق.م وايسوس فى العام التالى ثم اخيرا فى جوجميلا بالقرب من نينوى عام ٣٣١ق.م. وهذه الأخيرة خاضعها بعد فتحة لمصر وانهاء حكم الاسرات بها.

ولقد فر دارا الثالث بعد موقعه جوجميلا تاركا للاسكندر حرية الحركة فى الحصول على كنوز بابل وسوسة وبرسبوليس وهمذان. ولقد كان تدمير برسبوليس تحديدا بمثابة الحدث الذى عين نهاية الشرق الأدنى القديم وبزوغ الحضارة الغربية القديمة على يد اليونان. اما دارا نفسه فقد لقى حتفه على يد احد اتباعه، بعد أن رأى غريمة الاسكندر الاكبر يمد نفوذه على المقاطعات الشرقية للامبراطورية الفارسية، قبل عودته لبابل حيث وافته المنية هو الآخر عام ٣٣٢ ق.م.

وهكذا كانت نهاية عهد دارا الثالث نهاية لعهد الامبراطورية الاخمينية الفارسية التى دامت لحوالى ثلاثة قرون مرت فيها بالمراحل التقليدية للوحدات الحضارية الكبرى، بدءا من مجرد دويله صغيرة او مملكة تابعة ثم امبراطورية مترامية الاطراف ثم اخيرا دولة مفككة الأوصال تنتظر قدرها فى الأفول والزوال وهو الأمر الذى تحقق على يد الاسكندر المقدونى.



الباب الثالث

آسيا الصغرى



الفصل الأول

الأسس البيئية والتكوين الحضاري



الفصل الأول
الأسس البيئية والتكوين الحضارى

اولا: الأسس البيئية

تتضمن البيئة الطبيعية لشبه جزيرة آسيا الصغرى (الاناضول) مجموعة من المتناقضات الجغرافية بين السهل والمرتفعات والتى أبرزت تميزها المتناقضات الموسمية للمناخ، وما يستتبعها من تأثير على النشاط البشرى واقتصاياته. فالتكوين الجيولوجى لشبه الجزيرة يشير الى تكونها من كتلة صخرية يزداد ارتفاعها كلما اتجهنا شرقا ليتراوح بين ٢٥٠٠ الى ٥٠٠٠ قدم، وهى تقع الى الشمال والشمال الغربى من سوريا وبلاد الرافدين فى مفترق الطرق بين اسيا واوربا، تحيطها البحار من ثلاثة جوانب، البحر الأسود شمالا والبحر المتوسط جنوبا والأرخبيل غربا.

ولقد سببت هذه المظاهر الطبيعية نوعا من العزلة للاقليم حيث فصلت البحار بينه وبين أوربا والجبال بينه وبين آسيا. وإن كان أحد الباحثين يرى فى شبه جزيرة الاناضول معبرا ذو حواجز مرتفعة، وأن هذه الحواجز هى التى فصلت جزءية الشمالى والجنوبى عن المناطق الساحلية التى تختلف عنها مناخيا. أما الجزء الغربى فينحدر تدريجيا نحو وديان الانهار التى تصب فى بحر ايجه وبحر مرمرة. وهذه الانهار هى كايكوس، هرموس، كايسترو، مايندر (واسماؤها الحالية على التعاقب، بكير، حريز، كوشوك منديريس، يوبوك منديريس) .

والواقع فان الانهار التى تزخر بها الهضبة لاتقتصر فحسب على جزئها الغربى بل أن هناك انهار أخرى مثل نهر الهاليس فى الجزء الشمالى الشرقى من هضبة الاناضول، وقد تعددت منابعه حول المنحدرات الواقعة عند خط

تقسيم المياه الشمالى لنهر الفرات، ويبلغ طوله ٥٠٠ ميلا وينتهى مصبه عند البحر الأسود.

وهناك ايضا بذات المنطقة الجزء العلوى من نهر ايريس، وهذه المنطقة كانت موطن الحيثيين الاصليين وبها اسسوا واحدة من عواصمهم وهى خاتوساس.

ومن المجارى المائية ايضا نهر سانجاريوس الذى يمثل مع نهر هاليس حدود الجزء الشمالى الغربى من هضبة الاناضول في حين تشكل البحيرات الوسطى الجنوبية الغربية حده الجنوبى. وهو يشمل اقليم فريجيا واهم مدنه انقره. أما الانهار التى تصب فى بحيرات بيديسيان وتقع فى المنطقة الوسطى للهضبة الايرانية، فقد جعلت هذه المنطقة صالحة لزراعة، فى مقابل عدم صلاحية مايتخللها من مرتفعات لاتصلح منحدراتها لهذا النشاط.

وهناك ايضا بحيرتان كانت اولاهما تغذى المنطقة السهلية الواقعة اسفل مرتفعات طوروس الشمالية وهى بحيرة اكيجيل. والأخرى وتعرف باسم بحيرة الملح فى سهل اكسيلون وسط الهضبة ذاتها.

اما بالنسبة للمرتفعات فقد زخرت الهضبة بمجموعة منها تنوعت فى ارتفاعاتها بين الجبال والهضاب. ويمكن أن نميز منها هضبة ارمينيا التى تعد امتدادا لسلسلة جبال البرز المطلة على بحر قزوين، ويصل ارتفاع قمة جبل أرارات بها الى ١٧ الف قدم. وهناك ايضا سلسلتان جبليتان تمتد فى شكل اقواس متوازية، الأولى بمحاذاة ساحل البحر الأسود والأخرى تمتد الى الجنوب الغربى حتى تصل الى البحر المتوسط.

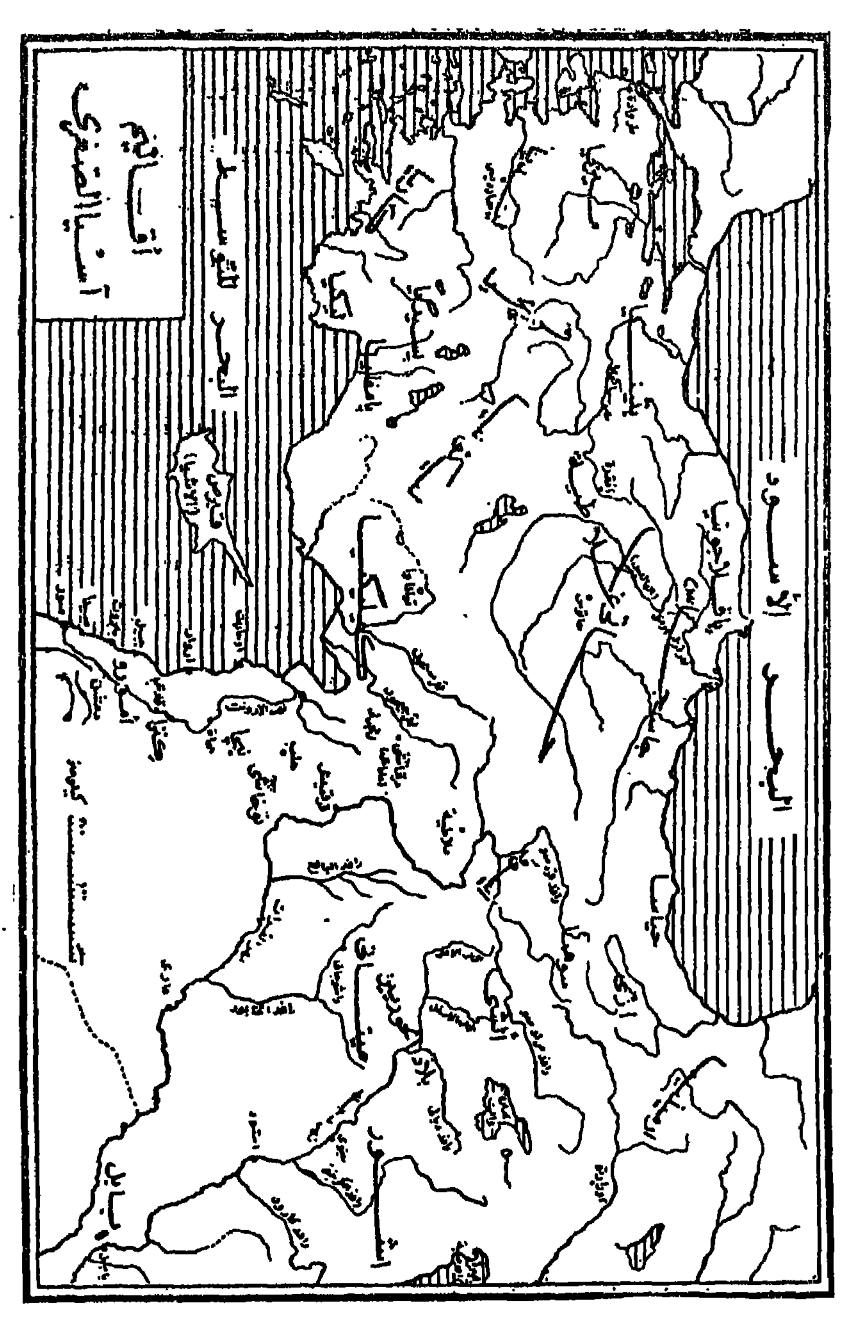
وتعرف السلسلة الأولى باسم القوس البونتى (جبال بونتين). وتقع الهضبة بين هاتين السلسلتين بينما يقع فى قلب الهضبة ذاتها جبل ارجيه

بارتفاع ٤٠٠٠ قدم، حيث تمتد منه كتلة تتصل بجبال ارمينيا وكردستان وتلتحم بجبال الالب البونتيه وبامتداد طوروس والقوقاز، كما تلتحم بمجموعة جبلية اخرى جنوب غرب فارس.

اما مناخ اسيا الصغرى فمتنوع بتنوع الاقاليم التى يشرف عليها، فهو يشبه مناخ اوربا الشرقية فى جزئه الشرقى، كما يشبه مناخ البحر المتوسط فى جزئه الجنوبى الغربى. وان تميز الشتاء بعامه بجو شديد البرودة مع رياح باردة شديدة، بعكس الصيف شديد الحرارة، مع ندرة فى الامطار بعامة عوضتها كثرة المجارى المائية على سطح الهضبة.

وقد عرف سكان هذه المنطقة زراعة الخضراوات والفواكه، كما اهتموا برعى الماعز الذى اشتهر بجودة صوفه. كما اشتهروا بتعدين الحديد الذى عد استغلاله انقلابه فى منطقة الشرق الأدنى القديم.

ونظرا لتداخل وتنوع المظاهر الطبيعية لهضبة الاناضول (آسيا الصغرى) فقد تباينت تقسيمات الباحثين لاقاليمها. اذ يراها البعض تنتظم فى اربعة اقاليم هى القسم الشمالى الشرقى والقسم الشمالى الغربى وقسم يشمل الاراضى الواقعة بين السهول الوسطى وبحيرات بيسيديان ثم اخيرا القسم الواقع اسفل مرتفعات طوروس الشمالية مع اضافة سهل اكسيلون ومنطقة بحيرة الملح لها (ربما كقسم خامس).



لوحة رقم (٣٢)

أقاليم آسيا الصغرى

أما البعض الآخر فيراها تنتظم فى ستة اقاليم طبيعية؛ الأول الجزء الأعلى لحوض ساكاريا فى الشمال الغربى. والثانى حوض قزمل إرمق فى الشمال الشرقى. ثم المنخفضات حول البحيرات الصغيرة فى الجنوب الغربى وتمثل الاقليم الثالث. أما الرابع فيمثله المثلث المتكون من طوروس وطوروس الداخلية فى الجنوب الشرقى. ثم الاقليم الخامس فى الجنوب وهو اقليم اكجول. ثم اخيرا السهل المحيط ببحيرة الملح فى الوسط.

وقد يغلب على الظن ان هذه المظاهر الطبيعية لهضبة الاناضول (اسيا الصغرى) قد جعلها منطقة طاردة للبشر أو مجرد معبر بين اوربا واسيا. لأن الأقوام التى هاجرت إليها لم تتعامل معها على أنها مجرد معبر، ولكن كونها ارض الثراء القادم والمواد الخام ذات الخصوصية المتميزة. فأيونيا على سبيل المثال كانت المنبت الذى نمت فيه بدايات الحضارة اليونانية، اما الروما ن فقد مثلت آسيا بالنسبة لهم اغنى بقاع الامبراطورية، كما ادركوا ان المركز الحقيقى للنمو السياسى والثقافى والاقتصادى سيكون شرق ايطاليا ومن ثم نقلوا عاصمتهم الى القسطنطنية.

ولقد ساعد على ابراز هذا التميز لشبه جزيرة الاناضول ثراءها فى المنتجات الزراعية فى السهول والمناطق الساحلية والأخشاب، التى امكن التحصل عليها من الغابات المنتشرة على سفوح المنحدرات والتى ساعدت ايضا على ممارسة حرفة الرعى، فضلا بالطبع عن ثرائها فى كمية المعدن الخام. وهى خصائص تجعلنا نتعامل مع منطقة ذات اهمية بالغة بلاشك على المستوى السياسى والاقتصادى بمنطقة الشرق الأدنى القديم.

وفيما يتعلق بالعناصر البشرية التى استوطنت هذه المنطقة فيمكن القول أن المنطقة كانت مأهولة بالعنصر البشرى منذ عصور ماقبل التاريخ بيد أنه بالرغم من صعوبة تتبع الهجرات التى وفدت على هضبة الأناضول، إلا أنه يمكن تمييز البعض منها. مثل أولئك الأقوام الذين وفدوا إليها من اوربا فى

اول عصر المعدن مستقرين على طول الجانب الاسيوى من بحر ايجه ثم انتشروا للداخل.

اما ثانية هذه العناصر فهى المعروفة باسم «الأسيائيون» والذين سكنوا وسط الهضبة حتى نجحوا فى السيطرة عليها سلميا منذ نهاية الالف الثانى قبل الميلاد. ونظرا لسبقهم لمرحلة وفود القبائل الحيثية فقد اصطلح على تسميتهم «بما قبل الحيثيين Proto - Hittite».

ويمثل الحيثيون ثالث هذه العناصر وأشهرها، وهى جماعات هند واوربيه تتابعت فى عبور البسفور والتوغل فى آسيا الصغرى. ويميزها ثلاثة شعوب كبرى هم اللويانيون أول من وصل للهضبة وقام بتدمير حضارة عصر البرونز المبكر وقد استوطنوا غرب كليكيا، واستخدموا خطابا خاصا بهم اطلق عليه الهيروغليفيه الحيثية. أما الشعبين الثانى والثالث اللذان لحقا بالأول فهم، البلابكيون الذى استوطنوا منطقة سيفاس. والنسايتيون (نسبة لمدينة نيسا) وقد استوطنوا كبادوكيا. وقد سموا بالحيثين بعد فتحهم مركز هضبة الاناضول شرق انقرة والذى كان معروفا باسم «حاتى»، فتسمى الفاتحين الجدد به وصار الإسم الذى اشتهروا به واطلق على ادوارهم التى لعبوها فى تاريخ الشرق الأدنى القديم ابان الالف الثانى قبل الميلاد.

والجدير بالذكر أن التوراه تشير الى شعب «حث» بن كنعان بن حام على أنه احد القبائل الكنعانية السبعة. وان كانت هذه الاشارة لاتجد صدى لدى الباحثين، مكتفين بما اشارت اليهم التوراه من احداث، دون ردها الى أى تفسير متعلق بالاجناس، لاتفاق معظم الباحثين على اصلهم الهند واروبى الذى تعرضنا له بعاليه.

ثانيا: التكوين الحضارى (عصور ماقبل التاريخ)

تعانى مرحلة التكوين الحضارى لمنطقة الاناضول (آسيا الصغرى) من افتقار للأدلة الآثرية التى من شأنها اماطه اللثام عن هذه الفترة المبكرة من تاريخ المنطقة وحضارتها، فضلا عن رسم صورة لتتابع الحضارات بشكل واضح. وعلى الرغم من أن الجهود التى بذلت فى هذا الشأن قد بدأت من مطلع هذا القرن الا أنها صادفت العديد من العثرات التى مثلتها الطبيعة الوعرة للمنطقة، فحالت دون ارتياد بعض اجزائها واستجلاء البعض الآخر بشكل مستقل.

ولسوف نحاول قدر الطاقة عرض الملامح المميزة لمواقع العصور الحجرية بتقسيماتها التقليدية فى شبه جزيرة الاناضول مع ملاحظة تأخر العصر التاريخى بها حتى الالف الثانى، فى حين ادرج عصر البرونز المبكر كاخر مرحلة من عصور ماقبل التاريخ.

١ - العصر الحجرى القديم والوسيط (الباليوليثيك والميزوليثيك):

اصبحت الظروف المناخية فى عصر البليستوسين أكثر اعتدالا بما سمح بارتياد الانسان للمنطقة، والذى يمكن رصده باكتشاف بعض الأدوات الأولية لاسيما الفأس اليدوية التى استخدمها الانسان دفاعا عن نفسه ضد مخاطر الطبيعة والبيئة. وقد بينت هذه الأدوات أن انسان هذا العصر فى آسيا الصغرى كان يعيش على الصيد وجمع الغذاء، وأنه اقام فى الملاجىء الصخرية والكهوف على فترات متعاقبة حيث كان البحث عن الطعام هو المتحكم فى حركته.

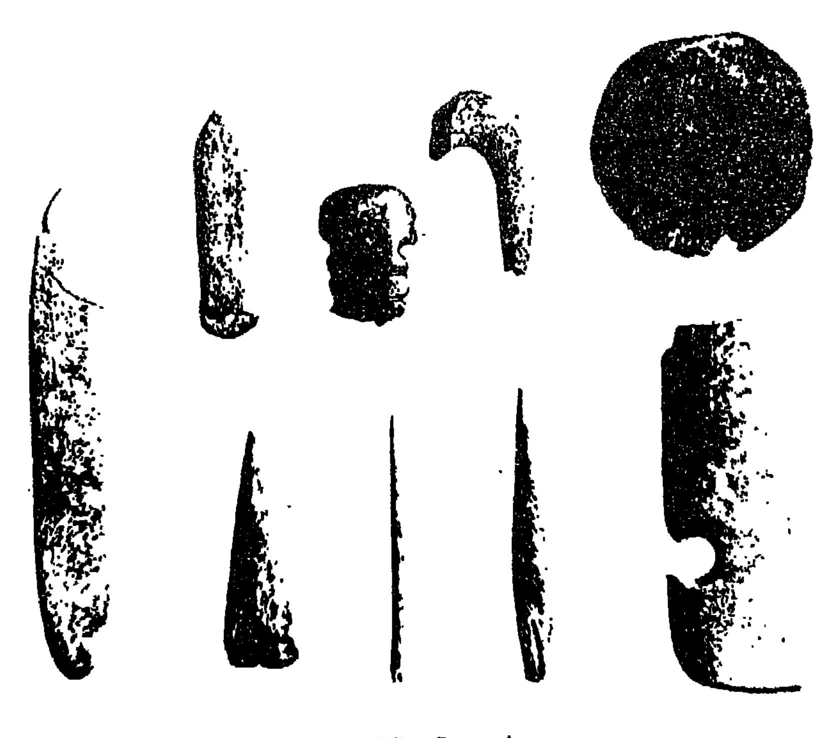
ومن الملاحظ أن الآثار التى عثر عليها من هذه المرحلة الحضارية فى آسيا الصغرى قد وجدت فى الجهات التى تحف بالهلال الخصيب (فلسطين

وكردستان العراقية وايران)، وفى منطقة انتاليا (فى كارين وبلدييى وبلباشى وغيرها). وفى كابالين (قرب اسبرطة) ومغاراسيك عند منحدر ماساداجى قرب انطاكية. كما كشفت الحفائر الحديثة فى وديان دجلة والفرات العليا جنوب شرق الاناضول عن وجود مراكز جديدة للاستيطان خلال هذين العصرين.

والواقع فان امتداد هذه المرحلة من ٦٠٠٠٠٠ الى ٨٠٠٠ ق.م هو الذى يفسر كثرة عدد مواقعها فضلا عن طبيعة حركة الانسان فيها. بيد أن افضل المواقع التى تمثل هذه الفتره هى كهف كارين الذى كشف عن ثمانية طبقات تغطى العصر الحجرى القديم بمراحله الثلاث. حيث عثر على أدوات من الظران بمناطق الاستيطان الموسمية فيه. وتتميز هذه الادوات بتعدد استخدامات الواحده منها سواء أكانت مكاشط أم فأس يدوية. كما تميزت بتطورها لاسيما فى مرحلة القديم الأعلى وتنوعت لتشمل ادوات القطع والازاميل فضلا عن ظهور الأدوات القزمية، حيث لم يختلف انسان هذه المرحلة الحضارية عن قرينه فى مناطق الشرق الأدنى القديم. وقد زاد فى تطويره لادواته بتثبيتها فى مقابض صنعت من قرون الوعول والعظام والخشب، حيث استخدمت هذه الأدوات ذات المقابض على نطاق واسع ابان العصر الحجرى الوسيط.

كما قام انسان هذه الفترة بمحاكاة نظيره فى اوربا، وذلك بزخرفة جدران مناطق ايواءه من كهوف وملاجىء صخرية ببعض الأشكال المعبرة عن الخصوبة والصيد ذات المدلول السحرى. وقد استخدم فى هذه الزخرفة اكسيد الحديد الاحمر، وتعد زخارف منطقة بلدييى خير امثلة على ذلك.

اما الحفريات العظمية لبقايا الانسان من هذا العصر فتشير الى استيطان انسان نياندرتال والهومو سابيان فى هضبة الاناضول، ويعد كهف سنيورك من الأمثلة على هذا الوجود البشرى، لاسيما انسان نياندرتال.



لوحة رقم (٣٣)

نماذج لأدوات وأسلحة حجرية وعظمية من العصور الحجرية بالأناضول

٢- العصر الحجرى الحديث (النيوليثيك):

ويمثل مرحلة الاستقرار وانتاج الطعام بالمنطقة حيث يمتد من ٨٠٠٠ ق.م الى ٥٥٠٠ ق.م وقد اطلق عليه الاثرى غوردون شيلد تعبير «ثورة النيوليثيك». لأن تعامل الانسان فيه مع معطيات بيئته يمثل ثورة حضارية حقيقية وان كان بعض الباحثين يميل الى اعتباره تطورا حدث عبر ملايين السنين وليس ثورة فجائية.

وعلى أية حال فلقد كانت مناطق ديار بكر - اورفا ومنطقة بحير الملح فى وسط الهضبة ومنطقة بوردور اسبرطة فى الجنوب الغربى، اسرع تطورا فى تبنيها لأنماط الاستقرار الحياتية من زراعة وتربية الحيوان. وهذا السبق فى هذه

المحلات الزراعية لم يكن يعنى تطورها فجأة، بل كان نتيجة لزيادة الطلب على المواد الخام لاسيما الظران والأوبيسديان لاجل صناعة ادوات الزراعة وغيرها من الأدوات. الأمر الذى يضمن استقرار المستوطنين بالمحلة الزراعية طالما توفرت لهم اداة العمل. وقد استتبع هذا بالطبع زيادة حجم التبادل التجارى بين هذه المناطق لتعويض عملية الاقلال من تحرك المستوطنين الذين فرضت عليهم الزراعة بمباشرتها البقاء فى مواطنهم.

وعلى الرغم من ان منطقتى دياربكير وبوغاز كوى يعدان اقدم مناطق الاستقرار بين مواقع هذا العصر، الا أن اوضح الأمثلة فى هذا المقام التى يمكن اتخاذها كنموذج لموقع نيوليثى هى منطقة كاتال حويوك الواقعة لحوالى ٢٥ كيلومترا جنوب شرق سهل كونيا جنوب الاناضول. وقد امتدت مرحلة استيطانها من ٦٥٠٠ الى ٥٧٥٠ق.م تقريبا. وتتخذ بيوتها شكلا مستطيلا وتنتظم بجانب بعضها البعض فى شكل مجموعات حول افنية. وقد استخدم الطوب اللبن فى بنائها الذى تباينت ارتفاعاته. كما افتقدت المنازل للأبواب حيث كان يتم دخولها باستخدام سلم متحرك يصل لاسطح المنازل، التى كانت تستخدم فى القيام ببعض الاعمال المنزلية او كمجازات تصل بين المنازل. وكانت جدران المنازل تسند بواسطة الواح خشبية كما كان يبنى أمامها مقاعد للاستقبال من الطوب اللبن (مصاطب). وكانت الحجرات تحتوى احيانا على افران او مدافىء، كما كان يتم التنقل بينها ايضا عبر فتحات علوية وليست ابواب.

ولقد امتاز موقع كاتال حويوك بكثرة المقاصير التى زخرف بمناظر دينية سحرية ترتبط بالصيد والخصوبة. وكانت اهم موضوعاتها اشكال الثور والغزال والنسور والفهود. ولعل كثرة هذه المقاصير يشير الى اعتبار الموقع بمثابة المركز الدينى للمنطقة.

اما فخار الموقع فقد استخدم الى جانب السلال على نطاق واسع، فضلا عن الأواني الحجرية والخشبية. كما راجت تجارة الاوبسيديان. كذلك فقد مارس المستوطنين الصيد الذى عبروا عن أهميته فى مجتمعهم برسم مناظره على جدران منازلهم، وقد استخدموا لممارسته السهام والحراب المصنوعة من حجر الاوبسيديان.



لوحة رقم (٣٤)

إناء فخارى مزخرف من الأناضول

.بقد صنعوا العديد من إلهتهم من الطين المحروق والتى كانت تمثل الحيوانات لاسيما الثور الذى انتشرت عبادته فضلا عن عبادتهم للأمومة التى صنعوا بها تماثيل رمزا للخصوبة وربطوا بينها وبين عبادة الثور على أساس ان الخصوبة تضمن استمراره وبقاءه لألاف السنين.





لوحة رقم (٣٥)

معبودتان من الأناضول بينهما إلهه الأمومة

ولقد استخدم انسان هذه المنطقة الحلى بانواعها المتعددة – والمصنوعة من النحاس فى الغالب – على نطاق واسع، حيث عرف عنه ولعه بذاته لدرجة العبادة كما نجحوا فى صناعة اختام لزخرفة المنسوجات.

اما ثانى موقع من هذا العصر فهو موقع هاسيلر، لحوالى ٢٥ كيلومترا جنوب غرب بوردور. ويمثل نمط صناعة فخارة النمط الممتد للعصر التالى له وهو عصر الحجر والنحاس (الكالكوليثيك). حيث شكلت آنيته على هيئة

معبودات ظنا منهم أن الشرب من هذه الآنية انما يعنى سقيا الآلهة ذاتها، بما يعنى التوحد بين الفرد ومعبوده.

٣- عصر الحجر والنحاس (الكالكوليثيك):

ويمتد من ١٥٥٠٠ الى ٣٢٠٠ ق.م على وجه التقريب. حيث بدأت الإختلافات بين الثقافات المحلية تظهر ولكن بشكل محدود فى المنطقة الممتدة الى الجنوب والجنوب الغربى من هضبة الاناضول. وكانت أكثر هذه المناطق لحاقا بركب العصر الجديد هى منطقة هاسيلر الذى لمسنا ارهاصاته فى العصر السابق. حيث زاد على أبنيتة بناء حائط دفاعى مع بقاء نمط بناء المنازل مماثل لسابقه فى الأغلب الأعم، وان زيد عليه ورش العمل الملحقه بالمنزل فى جانبه الشرقى بالاضافة للمطابخ ومصلى صغير. اما فى المنتصف فقد خصص جزء لصناعة الفخار وجزء للتخزين.

ورغم تشابه زخارف فخار هاسيلر بفخار كاتاحويوك، الا أنه تميز عنه بصغر حجمة ودقة صنعه. كما عرفت التماثيل المعبوده للامومة والمصنوعة من الفخار المحروق.

ويبدو ان موقع هاسيلر قد تعرض لغزوة بشرية داهمت انجازه وحطمته، ذلك أن الفترة المتأخرة من هذا العصر ليست ممثلة بالموقع. إذ حلت بدلا منها منطقة كوروكاى حويوك التى تميزت بانتاجها المعدنى، وكذا منطقة كارتاش سمايوك ومنطقة كانهاسان جنوب بحيرة الملح. فضلا عن منطقتى مرسين - يومو كتبه وطرسوس جنوب الأناضول. حيث تقابل هذه المواقع حضارة تل حلف وحضارة العبيد بالعراق. كما وجدت مواقع بشرق الأناضول ايضا تمثل هذه الحضارة حيث تميزت بوجود عجلة الفخرانى بها بما يعنى توصل أهلها لصناعة الفخار المنتظم بدلا من اليدوى. ومن أشهر هى المواقع منطقة كاراز الواقعة بالقرب من ارزوروم.



لوحة رقم (٣٦)

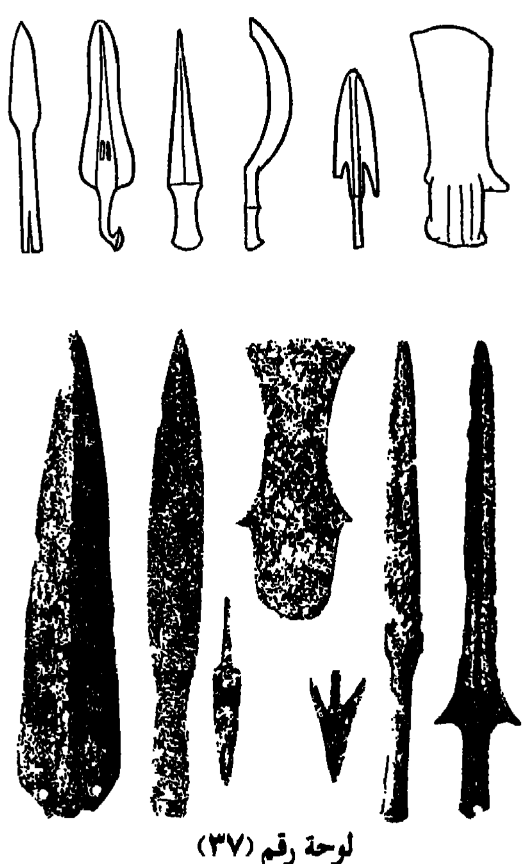
إناء فخارى ملون ومزخرف من الأناضول

أما مواقع وسط الهضبة التى ترجع لهذا العصر فأهمها منطقة اليشار فى الشمال والتى عرفت البدايات الأولى لاستخدام البرونز. أما غرب الهضبة فيعد موقع بيكسلطان أهم هذه المواقع. فى حين ينتسب لهذا العصر بشمال غرب الهضبة موقعان هما فيكيرتبه وبنديك قرب اسطنبول.

٤- عصر البرونز المبكر:

يتميز هذا العصر ببداية تكوين المدن على أساس نشاط استغلال المعادن، وهو يمتد من ٣٢٠٠ الى ١٨٠٠ ق.م تقريبا. ويعد معدن البرونز الذى استمد منه العصر برمته اسمه هو محور النشاط البشرى والاساس الذى قام عليه نمو المدن بهضبة اسيا الصغرى (الأناضول). وان كنا لانغفل اهمية الذهب والفضة الى جانب البرونز، حيث بلغت عدة مواقع مبلغا طيبا فى صناعته وتشكيله بالصهر والطرق بعد تمرسها فى استغلال معدن النحاس الذى تعد منطقة كايونو أولى مناطق استغلاله فنيا. وقد انعكس ذلك على تطور هذه المدن اقتصاديا بالتوسع فى انتاجها المعدنى استخراجا وتصنيعا وتجارة حتى غدت مدنا مستقلة لكل منها كيان مستقل بذاته.

ومن أشهر هذه المواقع تبة أرسلان فى اقليم مالايتا، التى عثر فيها على كمية ضخمة من المشغولات المعدنية لاسيما الاختام الاسطوانية والمربعة. فضلا عن السيوف والسكاكين وغيرها من الأدوات التى زخرفت بذات الزخارف الخاصة بالآنية الفخارية. وقد تطورت هذه الزخارف لتصبح منقوشة فى منطقة بولور (ساكيول) بمنطقة اليزق. كما عدت منطقة تبه نورشون من أهم المواقع التى ترجع لهذا العصر بمازخرت به من عمائر مبنية بالطوب اللبن كالقصور والمعابد التى حفلت بالعديد من الزخارف. كما عثر بالموقع على أنواع مختلفة من الحلى المعدنية التى تؤكد انماطها الفنية على الاتصال الحضارى بين مناطق شرق ووسط وغرب الأناضول.



لوحة رقم (٣٧)

أسلحة وأدوات مواقع مختلفة بالأناضول من عصر البرونز الأوسط

اما فى أخريات مراحل هذا العصر فقد بلغت مواقع شمال وسط هضبة الاناضول مبلغا رائعا فى التطور الحضارى. ومنها مواقع تبة هورروز واسكيابار وتبة ايكيز وغيرها. وقد تميزت بجباناتها الغنية بمقتنياتها التى ضمت رفات الطبقة الحاكمة بهذه المدن التى عرفت نظام حكم المدينة الدولة. وقد زخرت حجرات الدفن بالعديد من الكنوز الاثرية، كالاوانى الذهبية والتيجان والصولجانات الذهبية والحلى المصنوعة من المعادن والأحجار الكريمة. فضلا عن الأدوات المعدنية كالفأس والمطرقة وكذا بعض الأعلام ذات المغزى الدينى والادوات الموسيقية. هذا فضلا عن الأوانى الفخارية المصقولة ذات اللون الاحمر.

اما حضارة غرب الهضبة ووسطها الغربى فقد مثلته عدة مواقع مثل يورتان بيكسلطان وتروى، والتى زخرت بكافة المظاهر الحضارية لهذا العصر بكل مالحق بها من تطور فى الشكل والصناعة والمادة المستخدمة بما لايتسع المجال لذكره مكتفين بضرب الأمثلة فقط.

***

ولعل من نافلة القول أن نشير الى مسميات هذه الهضبة وهى تركيا والاناضول واسيا الصغرى. فبالنسبة للمسمين الأولين فان تركيا كانت تعنى الاناضول فى الاشارة الى منطقة جغرافية محددة انتظم سكانها فى القومية التركية وتحدثوا اللغة التركية. ولقد ظلت كلمة اناضول (اناضولا حسب النطق التركى) غير ذات معنى حتى القرن العاشر الميلادى، إذ كان يستخدم بدلا منها للاشارة للمنطقة كلمة اسيا أو اسيا الصغرى، لاسيما فى الكتابات الكلاسيكية وذلك تمييزا لها عن قارة آسيا .

والجدير بالذكر، أنه فى مرحلة ماقبل العصر الكلاسيكى لم يكن لها اسم على الاطلاق، لعدم توحدها سياسيا ولعدم تحديد حدودها بشكل قاطع، أو بمعنى آخر لعدم وجود كيان سياسى لها يمكن تعيينها به.



الفصل الثاني

ملامح الإطار التاريخي
لمنطقة آسيا الصغري



الفصل الثانى

ملامح الإطار التاريخى لمنطقة آسيا الصغرى

تقديم

عرفت منطقة شبه جزيرة الأناضول نظام المدينة الدولة منذ عصر البرونز المبكر، حيث كانت تنقسم لحوالى عشر ممالك صغيرة يرأسها حاكم بلقب «أمير الأمراء». وقد أستلفتت هذه المنطقة بثرواتها وتقنيتها العالية فى صياغة المعادن نظر التجار الأشوريين الذين سيطروا على مناطقها التى غدت بمثابة مستعمرات تجارية آشورية وقد إرتبطت فيما بينها باتحاد يسمى «كاروم» يتوفر على رئاسته عميد «ليمو» لتنظيم العلاقة بين هذه المستعمرات التجارية. ولقد حظى زعماء هذه المدن فى آسيا الصغرى بثروات واسعة بما حصلوه من مكاسب نتيجة لإنتقال المتاجر الآشورية عبر أراضيهم، إذ حرص أولئك التجار على الحفاظ على علاقات الود مع زعماء مدن الأناضول. وترجع أهمية هذه العلاقة تاريخيا إلى ما خلفته من مراسلات بين الجانبين، مثلت للباحثين مصدراً لإلقاء الضوء على هذه الفترة التى تعد أولى المراحل التاريخية للعصر التاريخى لشبه جزيرة آسيا الصغرى (الأناضول). حيث تلتها مراحل الدولة القديمة ثم الدولة الوسطى وعصر الإمبراطورية، وأخيراً مرحلة ما بعد الإمبراطورية. ولسوف نتناول كل منها على حدة مشيرين لأهم معالمها وأحداثها.

أولا - مرحلة المستعمرات التجارية الأشورية

على الرغم من إتفاق جل المؤرخين على إعتبار بداية العصر التاريخى لآسيا الصغرى من هذه المرحلة، إلا أن هناك ثمة إشارات نصية لبداية تكون بلاد الحيثين ككيان سياسى. إذ يشير أحد نصوص ملك يدعى تليبينوس -

ربما كان آخر ملوك مرحلة الدولة القديمة – إلى ثراء الدولة على عهد أسلافه مقارنة بعهده الذى آل إلى التدهور والإنهيار. ويذكر اسم ملك يدعى لابارناش الملقب «بالملك العظيم» .. «الذى وحد بين أبناءه وأخوته وذوى القربى والجنود، وكانت البلاد صغيرة على عهده. إلا أنه كان ينتصر كلما زحف بجيشه ليلا على البلاد التى دحرت وخارت قواها. جاعلا من البحر حدا له. وقد عين أبناءه حكاما على كل جزء من المملكة ..» ثم يذكر أنه بعد ذلك فقد أصبح خاتو سيللى ملكا ...

وإذا كان هذا النص يعد مدخلا لفهم تكون الدولة الحيثية فى مرحلة الدولة القديمة، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمرحلة المستعمرات التجارية الأشورية التى كانت تسبقها دون شك. إذ أن تعرفنا على مسميات ملوكها أقل من الإشارة إلى تسميات هذه المدن أو المستعمرات التى تعرف عنها وعن مسمياتها من عصر دولة أكد. إذ ترجع أقدم إشاراتها إلى عهد نارام سين، الذى تشير نصوصه إلى محاربة حلف من سبعة عشر ملكا بينهم ملك حاتى المدعو «بامبا» وحليفة ملك أمورو. ولسنا ندرى على وجه التحديد هل حاربهم نارام سين فى إقليم حاتى، أم أن ذكرهم كان مجرد دعاية أكثر منا حقيقة لسطوة هذا الملك العسكرية على المنطقة. كما أشارت نصوصها إلى مسمى نيشيتا (نسبة إلى مدينة نيسا) إشارة إلى مجئ الحيثين، ثم إشارة أخرى لمدينة كانيش، وإن أعوزنا معرفة النشاط الحقيقى لأهليها الذى ربما أكتفوا بتواجدهم بها قبل ممارسة النشاط التجارى بعد ذلك.

إلا أنه منذ عام ١٨٧٠ ق.م. بدأت معرفتنا فى الزيادة عن المدن وحكامها أو ملوكها المحليين. إذ نميز منهم على سبيل المثال اسم الملكة بوروشاتوم (بوروشاندا) التى حظيت بلقب «الملك العظيم»، كملكة على منطقة الموحويوك جنوب بحيرة الملح.

كذلك فإن ألواح كانيش تخبرنا بتداخل العناصر الحيثية فى المنطقة، وهو تداخل ساهم فى تكوين الأمة الحيثيه الموحدة بعد ذلك. وإن بدأ بنوع من الصراع بين المدن التى كان إختزال تفرقها السياسى لصالح تلك الوحدة. حتى إن كانيش نفسها قد هوجمت مرتين وتم دحرها نهائياً عام ١٧٤٠ ق.م.

ويبدو على أيه حال، أن مدينة كانيش هذه كانت مركزاً له خطورته ونفوذه بالمنطقة حيث عثر بموقعها على ألواح مكتوبة أماطت اللثام عن بعض أحداث هذا العصر منها مثلا المراسلات التى كانت ملكها وارشاما وجاره ملك مدينة ماما المدعو إنرم - هربى، حيث يشكو فيها ضراوة العداوة مع الأمراء المجاورين ساعيا للتحالف مع حاكم ماما. وهى إشارت تفسر سبب تدمير كانيش نفسها، وتعطى صورة لمرحلة ما قبل الإستقرار السياسى.

وعلى الرغم من وجود لوحات نصية بمدن أخرى بالأناضول مثل بوغاز كوى وأليسار، والتى تضمنت إشارات للملك شمشى آداد الأول، إلا أن لوحات منطقة كانيش كانت لها أهمية تفوق أقرانها حتى أنه قد تم استنساخها وتضمينها فى الأرشيف الحيثى. ونعرف من هذه اللوحات إشارة إلى اسم ملكين سبقا دون شك مرحلة عصر الدولة القديمة وهما بيثاناس وأبنه أنيتاس، حيث مثل عصر أخرهما نهاية مرحلة النشاط الأشورى؛ أولى مراحل العصر التاريخى والتى استمرت قرابة قرن من الزمان.

ونحن نعرف عن أنيتاس حكمه لمدينة كاسورا، والقائمة التى خلفها بالمدن التى فتحها فى مجاوراتها ومنها مدينة كانيش (نيشا) التى ركزوا قوتهم فيها وتعاملوا مع أهلها من بنى جلاتهم معاملة لابأس بها. لدرجة أنه نقل عاصمته إليها وأعاد تحصينها. ومنها هاجم خاتوساس وبوروشاندا، منتحلا لقب «الملك العظيم». إلا أن المرحلة التالية له يكتنفها الغموض لعدم توافر الأدلة التى يمكننا معها تتبع حركة التاريخ بمنطقة الأناضول حتى نصل إلى ذلك النص

الذى أشرنا إليه فى مدخل هذه المرحلة والذى يعد إشارة إلى بداية عصر تاريخى جديد، هو مرحلة الدولة القديمة.

ثانيا - مرحلة الدولة الحيثية القديمة

تبدأ هذه المرحلة حوالى عام ١٧٠٠ ق.م. ممتدة لقرنين من الزمان. وقد عرفنا أنه ربما يعزى إلى الملك لابارناش تأسيس الدولة الحيثية حسب نص الملك تليبينوس. إذ أصبح اسمه واسم زوجته توانانا ش بمثابة القاب تشريفية تسبق أسماء الملوك المتعاقبين من بعدهم.

وغيرما ذكره النص من أن لابارناش أخضع مدن خوبيسنا وتوانووا ونيساسا ولاندا وزالارا وبارشوهاندا ولوسنا وجعل البحر حداً له، فنحن لانعرف المزيد عن عهده ولاعلاقته بالملك خاتوسيللى الذى خلفه على حكم مملكة خاتى.

وتشير المصادر إلى أن أصل خاتوسيللى يرجع لمدينة كاسارو، وأنه وجد إزاء الخطر الحورى أن ينقل عاصمة ملكة إلى موقع حصين هو خاتوساس والذى ينسب إليها اسمه؛ «رجل خاتوساس». حيث يعد المؤسس الحقيقى للدولة.

ورث خاتوسيللى مملكة ممتدة من سهل كونيا شرقا إلى جبال طوروس، فى المنطقة الواقعة جنوب نهر هاليس والتى أعتبرها الحيثيون المناطق الأصلية لمملكتهم وأطلقوا عليها الأرض المنخفضة. ولقد ترك لناخاتوسيللى فى حولياته أحداث السنوات الست لعهده. والتى عرفنا منها أنه مد حدوده لشمال سوريا، حيث خضعت له الالاخ، ومن ثم أصبحت المنطقة الممتدة حتى شمال سوريا خاضعة لنفوذه. أما فى عامة الثالث فقد أخضع مملكة ارزاوا غرب الأناضول. بيد أن الحوريين المقيمين شمال الرافدين، قد استغلوا إنشغاله بهذا الفتح واستعادوا ما كسبه من أراضى فى حملاته الأولى. وقد استغرق خاتوسيللى عامين حتى أعاد حدوده لما كانت عليه وأوقف المد الحورى. إلا أن معركته

ضد حلب المتحالفة مع الحوريين، قد وضعت حداً لعهده بعد فشله في قتاله معها في عامة السادس. حيث عاد يجر أذيال الفشل إلى مقرة الأول كاسورا، ليموت فيها متأثرا بجراحة.

خلف خاتوسيللي حفيده مورسيللي، بعد سلسلة من الإضطرابات بين أفراد الأسرة المالكة في الصراع على العرش، بلغت حد تآمر إبنة خاتوسيللي ضده والتمرد عليه. فكان إختباره لمورسيللي وفقا لمرسوم ملكي جاء حاسما لكل هذه النزعات التي قام بسحقها.

قام مورسيللي بسحق الجيش الحوري وغزو حلب التي إستعصت على سلفه. وقد شجعه نصره على الإتجاه شرقا وعبور الفرات متجها صوب بلاد الرافدين؛ حيث بابل. وقد وضع حداً بفتح بابل لعصر الأسرة البابلية الأولى التي لم تقو على مجابهة الأسلحة الجديدة عليهم من فرسان وعجلات حربية، وكان ذلك حوالي عام ١٥٩٥ق.م..

بيد أن تسرب الشائعات عن الإضطرابات السياسية في الأناضول، قد حال بين موريسللي وبين جني ثمار إنتصاره والتنعم برخاء بابل. ويبدو أن هذه الإضطرابات قد ساعد على إزكائها غياب الملك عن مقر ملكه مدة طويلة حتى أنه عندما أسرع بالعودة كانت يد الإغتيال أسبق من عودته لعرشه. حيث قام أحد مغتصبي العرش ويدعى خانتيليس بالقضاء عليه.

كان هذا الإغتيال بداية لنصف قرن من المشاكل السياسية والعسكرية التي واجهتها دولة خيتا. حيث تعرض عرشها لهزات عنيفه داخليا، كما فقدت سلطانها على المناطق الجنوبية خارجياً على يد الحوريين، بما فيها كليكيا (كيزواندا) وارزاوا. كما هددت القبائل الشمالية حدود البلاد، إلا أن تليبينوس نجح في صد تهديداتها. ويبدو أنه كان من الحنكة السياسية بالدرجة التي جعلته ينجح في التحالف مع حكام كيزواندا بالشكل الذى ضمن معه طريقا ممهداً صوب البحر المتوسط.

ولقد كان مرسوم قانون إعتلاء العرش من عهد تيليبينوس أهم إنجازاته حيث قرر فيه أن هذا الأمر لابد وأن يتم بشكل شرعي. حيث يجتمع النبلاء المخلصين للملك للنظر فى الأمر بشكل قانونى دون اللجوء لإراقه الدماء، وإلا تعرض من يلجأ إلى العنف للعقوبة. وقد وضع قاعدة الملك* على أساس حق الأمراء من الجيل الأول فالذى يليه فى وراثه العرش. أما فى حاله عدم وجود أمير أو وريث من الجيلين الأولين فيتم إختيار الرجل الذى يتزوج أميره من الجيل الأول حاكما للبلاد. وهى قاعدة استهدفت إستقرار الأمور داخليا، كما أصبح معها من حق الجمعيات المحلية فى تعيين الملك، بعكس ما كان على عهد سابقين.

وعلى الرغم من غموض معلوماتنا حول وفاة تليبنوس وزوجته وأبنه، إلا أن وفاته كانت مؤذنه لنهاية مرحلة الدولة الحيثية القديمة وبداية مرحلة الدولة الوسطى التى تعد بمثابة المرحلة الإنتقالية لعصر الإمبراطورية الحيثية.

ثالثا - مرحلة الدولة الحيثية الوسطى (عصر الإنتقال)

كانت الكتابات التاريخية التى تناولت تاريخ الحيثين قبل عقدين من الزمان تتناول مرحلة الإمبراطورية فور إنتهاء الحديث عن الدولة القديمة. إلا أنه منذ عام ١٩٧٣ أضيفت هذه المرحلة كى تعيّن فترة النقلة بين مرحلتى الدولة القديمة وعصر الإمبراطورية والتى تمتد قرابة قرن من الزمان، وإن عابها بالطبع قلة مصادرها.

وهذه المرحلة على أيه حال تغطى عهود ثمانية ملوك، ما تزال سنى حكمهم وأسماؤم غير مؤكدة. وتبدأ بوفاة تليبينوس التى تعد بدورها خاتمة الدولة القديمة. والواقع أنه رغم غموض سياسة ملوك خاتى فيها. إلا أن

سياساتهم قد وضعت بما لاشك فيه إطاراً يحتذى فيما يتعلق بمن تلوهم من ملوك، لاسيما فى عصر الإمبراطورية. على أساس أن كل مالدينا من مرحلة الدولة الوسطى يعد نزرا يسيراً من الوثائق لاستجلاء أحداثها. أهمها المعاهدة التى أبرمت مع كيزواندا والتى كانت موجهة لتحجيم خطر الحوريين. ذلك أن الحوريين كانوا خلال مرحلة النقلة قد نظموا أنفسهم فى شكل دولة عرفت باسم دولة ميتانى شمال العراق، والتى حاولت أن تسيطر على طرق المواصلات على الفرات. فى ذات الوقت الذى كانت فيه الإمبراطورية المصرية على عهد الدولة الحديثة قد بدأت تتطلع للشمال السورى الزاخر بالخيرات، حيث نجحت بالفعل على عهد تحوتمس الثالث (١٤٧٩-١٤٢٥ ق.م±) من السيطرة على الساحل السورى وغزو حلب.

ولقد أفرز هذا الوضع الجديد نوعا من تعارض المصالح بين مصر وميتانى، فى حين خضعت خاتى للسيطرة المصرية بالمنطقة ودفع ملوكها الجزية عن يد وهم صاغرون. حيث أن وضعهم لم يكنْ يحتمل أكثر من قبوله على مضض مع دفع الجزية إنتظاراً للفرصة السانحة التى تعيد للدولة مكانتها أقطاب المنطقة.

وبالفعل فقد سنحت الفرصة عندما ثارت حلب ضد مصر فور وفاة تحوتمس الثالث بتحريض من الحيثين، إلا أن حلب لم تكن قانعة بتغيير تبعيتها لصالح ميتانى. فما كان من تود هالياس الأول إلا أن اتجه لاستثمار الوضع برمته مجددا معاهدة أسلافه مع كيزواندا لينجح فى غضون عام أو إثنين من توليه العرش فى دحر حلب وميتانى، وليغنم بنصره هذا استعادة السيطرة الحيثية على الطريق التجارى فى الجنوب الشرقى.

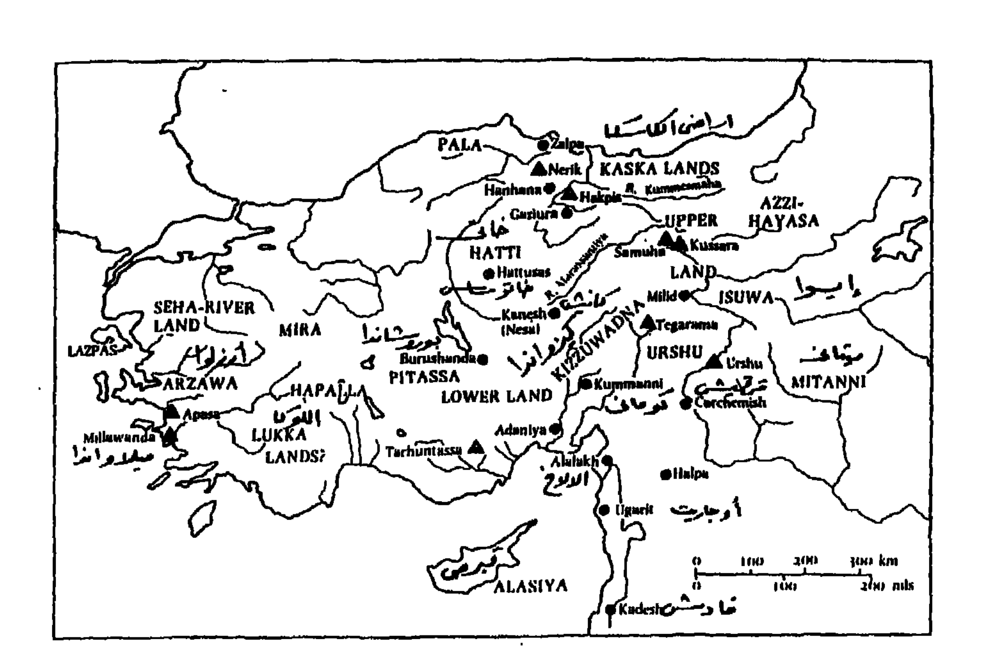
ولقد أغرى هذا النصر تودهالياس، إذ يمم وجهه وجهه بعد ذلك شطر الغرب ليسيطر على أرزاوا ومنطقة نهر سيها. أما فى الشمال الغربى فقد كان أقل حظاً فى السيطرة عليه، إذ تشير النصوص إلى تجمع دويلات المنطقة تحت

زعامة دويلة إيشوا. بيد أن عدم تكرار اسمها فيما بعد فى المصادر المتأخرة جعل الباحثين يذهبون إلى أنها قد أنحسرت فى حدودها الأساسية بعد الهزيمة. كذلك فقد ورد ذكر أهياوا فى المصادر الحيثية كمنطقة معادية لها، إذ قام ملكها اتارسياس بمهاجمة مادواتاس حليفة خيتا.

وفيما يتعلق بنشاطه فى المنطقة الشمالية، فلقد أثرت القلاقل بمنطقة قبائل جازجا (كاسكاس) على المصالح الحيثية هناك. لاسيما بعد تحرك شعبها تجاه الأراضى الساحلية الشمالية. فى ذات الوقت الذى حاول فيه الحوريون تعويض فشلهم فى شمال سوريا بتأليب حكام دويلات مرتفعات أرمينيا. ومن ثم فلقد كان لزاما على تودهالياس التحرك.، إذ أنه من المحتمل قيامه بحمله ضد أزى وهاياسا فضلا عن أخرى ضد ايسوا الواقعة عبر الفرات عند اليزق الحالية. ولقد كانت أهم نتائج هذه الحملة الأخيره وضع الحيثيين لأيديهم على مناجم النحاس بالمنطقة.

وبوفاه تودهالياس الأول تواجه خاتى فترة من الإضطراب فقدت فيها شمال سوريا وكيزواندا، فى حين تجمعت كل الدويلات التى أخضعها تودهالياس من كل حدب وصوب وطوقوا العاصمة خاتوساس وأعملوا فيها الحرق والتخريب. وظهر نجم ملك أرزاوا فى السيطرة على المنطقة برمتها من جنوب هضبة الأناضول إلى كليكيا، ومهيمنا على طريق التجارة فى الجنوب الشرقى. الأمر الذى جعله شخصية دولية مرموقة إتضحت أهميتها من المراسلات التى كانت تصله من مصر فى عصر العمارنة، التى حاول فيها خطب ود الأسرة المالكة المصرية بزيجة سياسية على عهد أمنحتب الثالث. ورغم عدم تأكدنا مما وصلت إليه الأمور، إلا أنها تشير إلى مكانة هذا الملك التى وقف بها على قدم المساواة مع الملوك العظام بالمنطقة.

أما ملوك خاتى فيبدو أن هذه الفترة المظلمة من تاريخهم والتى تستهدف الأحداث السابقة قد ظهرت فيها شخصيات باهته لحاكمين حملا اسم تودهالياس على التعاقب الثاني والثالث. حيث لم تقم لدولتهما قائمة بين الممالك الكبرى التى سادت المنطقة مثل مصر وميتاني اللتان أصبحتا حليفتين. وظل الوضع على هذا الحال حتى ظهور أحد أعظم شخصيات التاريخ الحيثى طراً، وهو الملك شوبيلوليوما، والذى تبدأ من عهده مرحلة جديدة فى التاريخ الحيثى هى عصر الإمبراطورية.

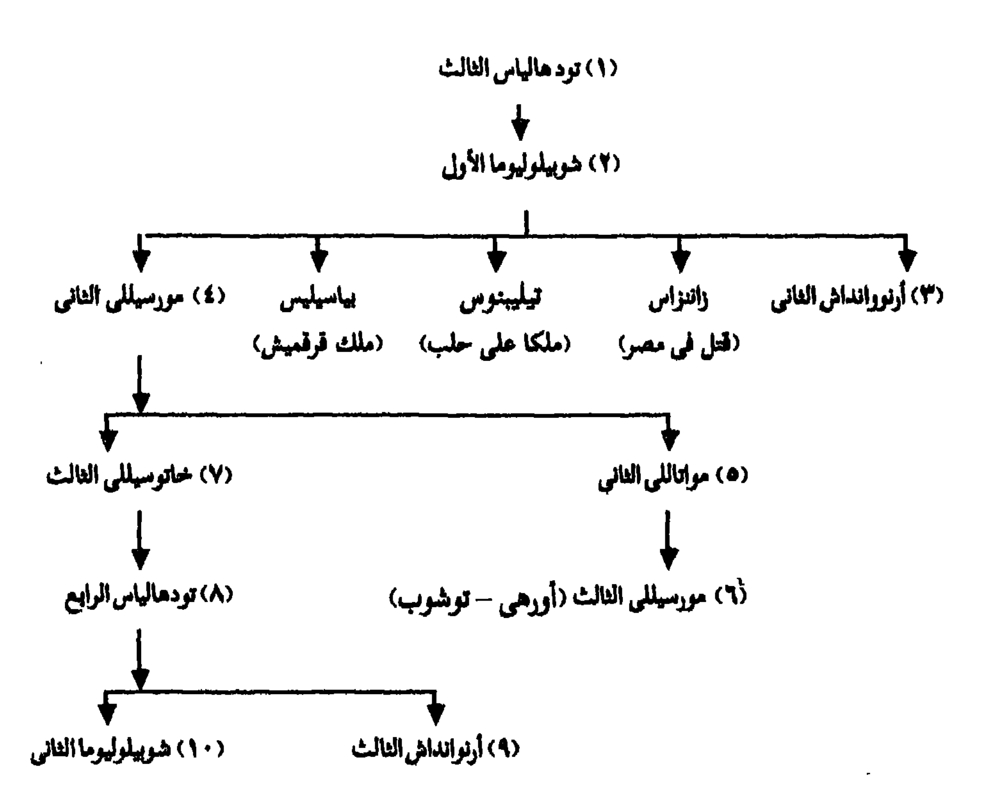


لوحة رقم (٣٩)

الأناضول على عهد الحيثيين

رابعا - عصر الإمبراطورية الحيثية

قائمة تسلسل ملوك خاتى فى عصر الإمبراطورية



كان إعتلاء شوبيلوليوما الأول، عرش خاتى خلفا لوالده تودهالياس الثالث فاتحة عصر جديد للدولة الحيثية ولمنطقة الشرق الأدنى القديم على حد سواء. ولقد كان يتمتع بخبره عسكرية إستقاها من تكليف والده له لخوض عدة حملات على عهده، فضلا عن حنكة سياسية جعلته يبدأ أولى سنى حكمه بترتيب شئون الدولة الداخلية بعدما أنهكتها الصراعات، كما قام بتحصين العاصمة خاتوساس وتوسيعاتها. فضلا عن إقامة عدة أسوار حول بوغاز كوى.

أما حملاته فقد كانت أهمها تلك التى وجهها لمملكة ميتانى، على عهد ملكها توشراتا بعد ما نجح فى تحقيق إنتصارات على الجبهات الشمالية الشرقية والشمالية والشمالية الغربية، لاسيما فى أرزاوا وكيزواندا وإيساوا، فضلا عن تحالفه مع منطقة الشمال السورى ضد ميتانى. بحيث أنه لم يجد أية صعوبة فى دحر أراضى غرب الفرات وحلب وبعض المدن السورية، بما جعل فى مكنته السيطرة على رأس طريق الفرات التجارى. ولقد ساعده أيضا على تحقيق هذا الإنجاز المبكر ضعف السيطرة المصرية على مستعمراتها فى سوريا منذ عهد أمنحتب الثالث.

بيد أن شوبيلو ليوما لم يقع فى ذات الخطأ الذى إرتكبه أسلافه بغزو بابل، بل نجح فى معالجة وضعها دبلوماسيا بزيجة سياسية بين إبنته وملك بابل، فى الوقت الذى أنكبت فيه مصر على نفسها من جراء مشاكل الأتونية ثم تولى الملك الصغير توت عنخ آمون العرش. ليجد توشراتا نفسه وحيدا بلا حلفاء أمام تحالف آشورا والحيثيين ضده ومسانده أخيه أرتاتاما الثانى. حيث نجح هذا الأخير بالفعل فى التخلص من أخيه وإعتلاء عرش ميتانى بعدما تقلصت حدودها.

إلا أن شوبيلوليوما قد نجح فى استثمار مسألة الصراع فى ميتانى، إذ قرب إليه أبن توشراتا المدعو شاتيزاوا بعد فراره إلى البلاط الحيثى. حيث وقع معاهدة مع ملكها مؤداها أن يضمن له عرش ميتانى بعد وفاة عمه. إلا أن أرتاتاما لم ترضه هذه الإتفاقية لاضرارها بمصلحة إبنه وخلفه شوتارنا فى تولى عرش ميتانى خلفاً له، فسعى هو الآخر لمحالفة آشور. الأمر الذى إنتهى بتقسيم ميتانى إلى قسمين الأول تحت النفوذ الأشورى، والثانى إنضوى تحت الحيثين الذين سيطروا على الساحل السورى جنوبا حتى قادش على نهر الأورنت.

أما التحرك الثانى لشوبيليوما فكان ضد قرقميش عام ١٣٢٣ ق.م.، تلك

المملكة القابعة عند نقطة إقتراب الفرات من ساحل البحر المتوسط، بحيث شكل إنضواؤها مع حلب تحت السيطرة الحيثية منطقة عازلة لأية خطر محتمل ضد حدود خيتا الجنوبية الغربية. وقد أمكنه تحقيق ذلك بعدما وضع إثنين من أبنائه حاكمين عليهما، وظلت ذريتهما تتوارث عرش قرقميش وحلب حتى بعد سقوط الإمبراطورية الحيثية عام ١٢٠٠ق.م.

وتشير المصادر إلى أنه عند حصاره لقرقميش وبعدما أصبحت خيتا قوة عظمى بالمنطقة، تلقى شوبيلوليوما ذلك الخطاب المزمع إرساله من أرملة توت عنخ آمون والتي طلبت منه فيه تزويجها لأحد أبنائه. وقد قام بإرسال أبنه بالفعل بعد عدة مشاورات بين الطرفين، حيثل تكفل به قائد الجيش حور محب وقتله قبل وصوله لمصر التي كان يعتلى عرشها آنذاك الملك آى.

أدى مصرع إبن شوبيليوما إلى إجهاض أيه محاولات للتحالف بين مصر وخاتي، لاسيما أن الأخيرة قد أعلنت الحرب على مصر. إلا أن القدر لم يمهل شوبيلوليوما الذى توفى بالطاعون أثناء مصاحبته لجيشه فى غزوة سورية قبل مهاجمة مصر. ليخلفه أبنه أرنوانداش الثانى الذى لم يلبث أن لحقه به بعد فترة قصيرة، بحيث آل العرش فى النهاية إلى الأبن الأصغر لشوبيلوليوما ويدعى مورسيللى.

لم يبدأ مورسيللى الثانى عهده بالإقتتال إذ كفته منطقة ميتانى الحاجزة وبمساعدة قرقميش آيه هجوم على الجنوب الشرقى، لاسيما الخطر الأشورى. لأن مصر كانت لاتزال تعيد ترتيب أمورها الداخلية بعدما إعتراها من آثار الآتونية. بيد أنه بعد فترة وجيزه كان عليه وضع حد لتمرد أرزاوا التى نصب عليها حاكما من قبله. كما أنضوت تحت لوائه ممالك ميراوها بيللا ومنطقة نهر سيها، حيث نظمت العلاقة بينهما وبين خاتى كممالك تابعة لها بموجب معاهدة أبرموها مع مورسيللى. أما منطقة الكاسكاس (جارجا) فقد

أستمرت فى مهاجمة حدود الإمبراطورية الشمالية، وبلغ من خطرها أن حوليات مورسيللى والتى غطت ربع قرن من حكمه الممتد لثمان وعشرين عاما، قد أشارت إلى عشرة حملات وجهها ملك خاتى إلى تلك المنطقة، نجح خلالها فى تطويق أرضها.

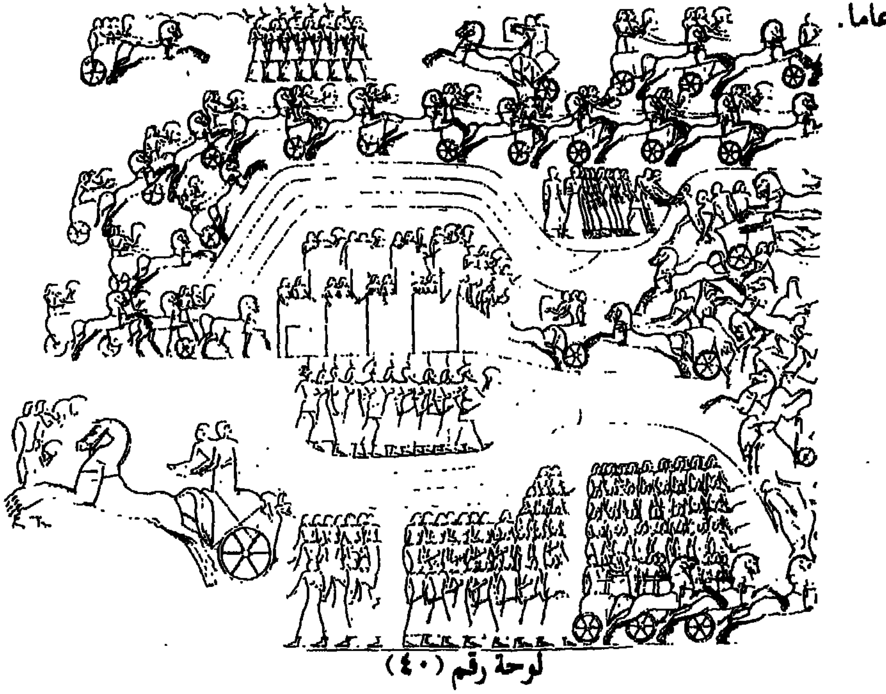
ولقد قام مورسيللى أيضا بعدة حملات كان من شأنها توطيد نفوذه على الممالك التابعة، وهى سياسة إستلزمتها طبيعة الوضع فى المنطقة لاسيما بعد تجدد مطامح مصر فى سورية، وهجوم آشور على ميتانى ثم استعادتها. وقد كان معنى تطبيق هذه السياسة، هو عدم مد حدود الإمبراطورية لأكثر مما كانت عليه، إذ كان الهدف الأساسى من هذه السياسة هو الحفاظ على ما وصلت إليه حدودها فى ظل موازين القوى الموجودة بالمنطقة. ولقد كرس مورسيللى الثانى أخريات سنى عهده لإقرار هذه السياسة، حتى ولو استلزم الأمر التدخل فى شئون أيه منطقة تهدد سياسة تثبيت حدود نفوذه. مثلما حدث من إضطراب فى ميلاواندا استدعى تدخله وإعادة حاكمها الهارب بايمارادوس لعرشه ضامنا بذلك خضوعها وتأمين حدوده لأقصى الشمال الغربى تبعا لذلك.

على أيه حال فقد توفى مورسيللى بعد فترة حكم زاخرة بالنشاط العسكرى والنجاحات فيه والتى لاتقل بحال من الأحوال عن نجاحات سلفه. ليخلفه على العرش إبنه مواتاللى الثانى. ولقد كان أول ما واجهة العاهل الجديد ذلك التهديد المصرى لنفوده فى سوريا على عهد فراعين الأسرة التاسعة عشرة، الأمر الذى أدى إلى مواجهة حاسمة بين الطرفين حوالى عام ١٢٨٦ ق.م. فى معركة قادش على نهر الأورنت حيث تزعم فيها الجانب المصرى الملك رمسيس الثانى ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشرة.

والواقع فإن مواتاللى قبل لقاء الجيش المصرى كان قد تابع سياسة والده

حيال مناطق النفوذ المثيرة للقلاقل دوما بالقيام بعدة حملات ضد قبائل الجازجا. الذين بلغ من تهديدهم أن قام مواتاللى بنقل عاصمته جنوبا من خاتوساس إلى كارامان، وهو نقل جعله أقرب إلى بؤرة الصراع القادم مع مصر. هذا فضلا عن تأديب أرزاوا وتدعيم نفوذه على الحدود الشمالية الغربية وكذا الجنوبية، بحيث ضمن مساندة كل هذه المناطق التابعة له فى صراعه العسكرى مع مصر.

وحسبما تتفق معظم الكتابات فقد دان النصر للحيثيين أو على الأقل لم يحظ الجانب المصرى بما كان يصبو إليه من هذه المعركة بالسيطرة على شمال سوريا التى ظلت تحت السيطرة الحيثية. رغم الإدعاءات الدعائية لرعمسيس الثانى والمتكررة على آثاره بأنه قد حقق نصرا على الأعداء فى معركة قادش التى خاضها فى عامة الخامس من حكمه الممتد لسبع وستين عاما.



لوحة رقم (٤٠)

منظر يصور معركة قادش بين الجيش المصرى والجيش الحيثى

بيد أن آشور كانت خلال المواجهة المصرية قد نجحت فى مهاجمة ميتانى وضمها لحظيرة النفوذ الآشورى، الأمر الذى جعل خيتا تواجه تهديدا محققا من الشرق والغرب على حد سواء فى نهاية عهد مواتاللى الذى توفى حوالى عام (١٢٩٤ ق.م. ±).

ولقد واجهت الأسرة المالكة مسألة وراثة العرش بوفاة مواتاللى الذى لم يعقب وريثا من صلبه، فى حين كان هناك أخوه خاتوسيللى الذى نصبه بعد نقل العاصمة حاكما على المنطقة الشمالية الشرقية. ومن ثم أصبح من المتوقع تولى أخيه العرش. وبتطبيق قانون تليبينوس فى وراثة العرش، كان الأحق بالحكم هو مورسيللى الثالث (أورحى - تيشوب) الذى يعد أكبر أبناء مواتاللى من إحدى محظياته. إلا أن هذا الوضع لم يدم لأكثر من سبع سنوات عانى فيها الأبن من مناوئة عمه، الذى نجحت إنتفاضتة فى تولى العرش.

ومن ثم فقد دان العرش لخاتوسيللى الثالث الذى شهد عهده توجها جديدا للسياسة الحيثية الخارجية غلبت فيه الدبلوماسية الهادئة على المواجهات العسكرية. ومن ثم فقد قام بمفاوضات ناجحة مع مصر إنتهت بعقد المعاهدة الشهيرة بينه وبين رعمسيس الثانى. والتى أحتفظ الجانبان بنسخ منها. حيث أعترف فيها كل طرف بحدود ومناطق نفوذ الطرف الآخر، كما تبعها العديد من المراسلات الودية ليس على مستوى الملوك، بل وبين الملكات أيضا. وهو الأمر الذى إنتهى بزواج رعمسيس الثانى من إبنه خاتوسيللى الثالث، ليستكمل التحالف كل أبعاده فى المسانده المشتركة بين الطرفين لأى تهديد آشورى يوجه إلى أى منهما. كما دعم الملك الحيثى علاقته بكيزاواندا بزواجه من إبنه كاهنها الأعلى وتدعى بودوهيبا، وليوجها إهتماماً مشتركا للعديد من المشاكل الإدارية والدينية المشتركة، مثل إعادة بناء خاتوساس ونسخ مدونات الأرشيف الحيثى.

ولقد بلغ من قوة نفوذ بودوهيبا أن فرضت إبنها تودها لياس الرابع خلفا لوالده على عرش البلاد، حيث شاركته فى الحكم فترة. ولكونها من أصل حورى فقد غلبت ملامح الفكر الدينى الحورى على مثيله الحيثى فى تلك الفترة.

والواقع، فإن الظروف التى واكبت تولى تودهالياس الرابع العرش على الصعيد الدولى، قد فرضت عليه ميراثاً ثقيلاً من التبعات. ذلك أنه منذ أن وضع الصراع بين والده وبين أخيه أوزاره، ومناطق عديدة من الإمبراطورية الحيثية بدأت تتقلص منها. ومعظم هذه المناطق من الجهة الغربية للبلاد لدرجة أن الوثائق الحيثية لم تعد تذكرها. ولم يعد يسرى عليها إعلان خاتوسيلى الثالث آنذاك بأن «على المناطق التى كانت تابع لأسلافه أن تدين له بالتبعية أيضاً». وقد سرى ذلك على الشمال الغربى حيث طريق النحاس، إذ قاتل الحيثيون أراضى اللوكيين ونهر سيها وميلاواندا وأهياوا. كما صعد استقرار آشور وتوسعاتها من خطورة الوضع على النفوذ الحيثى بالمنطقة، حيث وصلت على عهد شلمنصر الأول إلى الفرات الأعلى قرب مالاتيا بالتالى بسطت سيطرتها على أغنى مناجم النحاس بالمنطقة.

وعلى أيه حال، فلقد نجح تود هالياس الرابع فى إحتواء التقدم الأشورى نحو قرقميش بما ضمن له استبقاء السيطرة على الساحل السورى. كما قام بغزو قبرص فى محاولة للحصول على بعض الإمدادات من معدن النحاس تعويضا لما فقده على يد الزحف الأشورى. وقد قام بعقد تحالف مع أمورو كانت أهم بنوده إلتزام الأخيرة بعدم التعامل مع آشور تجاريا البته.

وعلى العكس من الوضع فى منطقة الطريق التجارى فى الجنوب الشرقى والتى ظلت فى حوزة الحيثيين، فإن الشمال الغربى بدأت تعتمل فيه القلاقل من جديد، وبدا واضحا رغم كل محاولات تودهالياس أن نفوذه على دويلات هذه المنطقة قد بدأ يتقلص رويداً رويداً. حتى أن أهياوا أصبحت من القوى

التى يحسب حسابها بالمنطقة وهى التى كانت تابعة لخاتى حتى وقت قريب، شأنها فى ذلك شأن ميلاواندا وأرزاوا وبدرجات متفاوته.

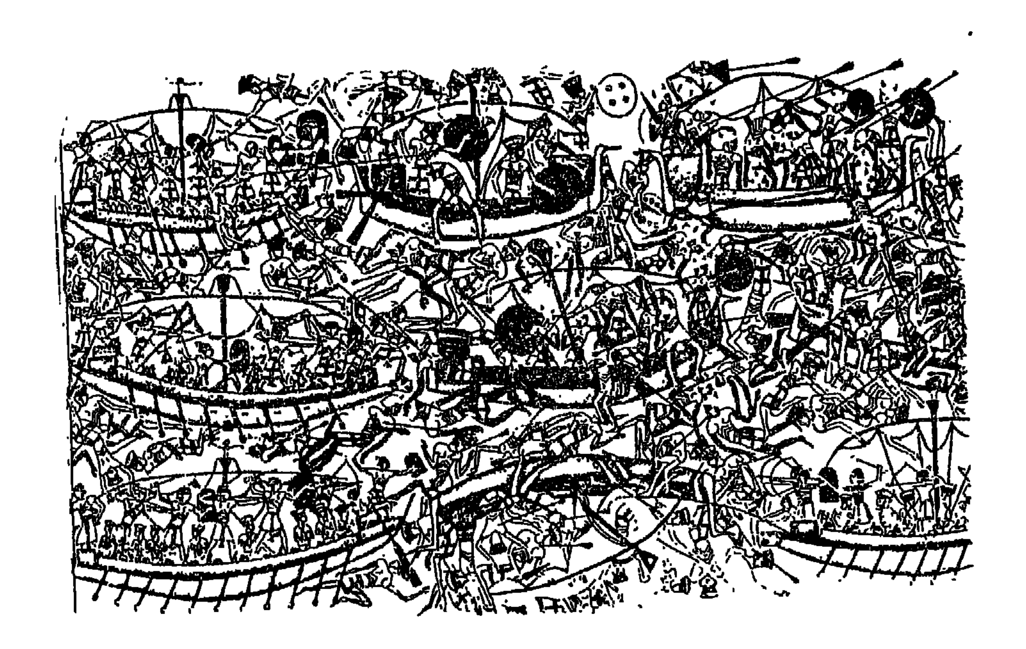
والواقع فإن إهتمام تودهالياس بإعادة تحصين حدوده الغربية كان يعنى نوعا من التهديد الذى بات محيطا بالإمبراطورية من الاتجاه الإيجى والدول الأوروبية من خلفه. حتى إذا ما حلت وفاته عام ١٢٢٠ ق.م.، كانت هذه المخاطرة قد تبدت واضحة وأصبح مصير الإمبراطورية الحيثية المحتوم وزوالها قاب قوسين أو أدنى.

وعلى أيه حال، فلقد إعتلى عرش خاتى ملكين إنتهت بهما مرحلة عصر الإمبراطورية الحيثية، أولهما أرنوانداش الثالث والثانى شوبيلوليوما الثانى. ولقد شهدت فترة حكمها تداعيات عدة. تمثلت أولاها فى هجرة الفريجيين إلى آسيا الصغرى مصحوبة بتحرك مماثل من الإيجيين تجاه الغرب، وبعض الشعوب الأخرى التى أطلق عليها اسم شعوب البحر والتى وصلت فى تهديدها للحدود المصرية حيث نجح الملك المصرى مرنبتاح فى صد هجومهم.

أما الأمر الثانى فتمثل فى الوضع الاقتصادى المتردى حيث تعرضت خاتى للمجاعة وأضطرت إلى جلب القمح من مصر. فى حين مثل التهديد الآشورى وضغطه على حدود خاتى ثالثة الآثافى، وزاد عليه شق الدويلات السورية التابعة لخاتى عصا الطاعة عليها وهجوم قبائل الكاسكاس (جازجا) من الشمال. ولقد حاول شوبيلوليوما الثانى إحداث صحوه تجنب بلاده هذا الوضع المتدنى، فاستعاد مسانده الدويلات السورية، وهزم اسطولاً من الغازين من شعوب البحر خارج حدود قبرص، كما وجه حملة ناجحة ضد آشور استطاع بها أن يستعيد السيطرة على مناجم النحاس فى أيسوا.

بيد أن هذه الصحوه سرعان ما استتبعتها نهاية الدولة لكونها كانت مجرد صحوة أخيرة لم تحل دون إسراع الإمبراطورية الحيثية نحو نهايتها المحتومة والتى

لم تجئ من آشور وإنما جاءت على يد شعوب البحر حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. أولئك الأقوام الذين أشرنا إليهم فى مواضع سابقة والذين مايزالون موضع بحث من قبل الدارسين بالنسبة لهويتهم الأولى ومواطنهم الأصلية. حيث دامت لهم الأناضول ثم كليكيا ثم قبرص فشمال سوريا. وأصبحت خاتى شبه متهاوية وكأنها تنتظر أيه ضربة لتقضى على بقيتها الباقية. وقد حدث هذا بالفعل على يد قبائل الكاسكاس (جازجا) وجيرانها فى الشمال والشرق، الذى أضرموا النار فى عاصمة الحيثيين وجعلوها أثرا بعد عين.



لوحة رقم (٤٠)

منظر من بعد معبد مدينة هابو يصور هزيمة شعوب البحر على يد رعمسيس الثالث

وبذلك تسقط الإمبراطورية الحيثية التى أستمرت قرابة قرنين ونصف من الزمان كانت فيها القوة العظمى فى الشرق والمسيطرة على الطرق الرئيسية لتجارة المواد الخام. بيد إن من الأهمية بمكان فى ختام هذا العرض الختامى بمرحلة عصر الإمبراطورية إن نلخص ما ذهب إليه J.G.Macqueen فى تقييمه لهذه المرحلة. إذ يذكر أن ثمة أفكار خاطئة قد إكتنفت هذا العصر أولها أن الحيثيين تحصلوا على مكانتهم باحتكارهم إنتاج الحديد، وهو أمر لم يقم الدليل عليه.

ثانيا أن نجاح الحيثيين إنما يعزى لكونهم قد حكموا بواسطة أرستقراطيه هندواروبيه. بيد أن ماحيك من أساطير حول العبقرية الهندواروبية لم يعد يعتد به الآن، فقد أعتملت عدة عوامل فى صياغة التكوين الطبقى للمجتمع الحيثى لم يكن من بينها التمايز بفضل اللغة أو العرق.

أما ثالثا وأخيرا، فإن الحيثيين قد صوروا بأنهم شعوب بربرية دفعها العوز والفاقه لعبور حدودها تجاه مناطق الحضارات القديمة بالرافدين. وهو أمر مجاف للحقيقة، ذلك إن بلاد الأناضول لم تكن ترزح فى بربرية العيش قبل أن يغشى الحيثيون بابل. بل على العكس، كانت تقاليدها أصيلة ورفيعة المستوى تضاهى أقرانها فى الشرق، كما أن إهتمام الحيثيين بمنطقة الرافدين كان يستند على مبادئ اقتصادية تحكمت فيها قواعد السياسة وبالتالى فإن وصفه بالغزوه البربرية الطامعة يعد إجحافاً له.

خامسا - مرحلة ما بعد الإمبراطورية

مثلما حلت الشعوب الاخية والطروادية فى غرب وجنوب الأناضول، فقد حلت كذلك القبائل الفريجية محل الحيثيين، وإن إستقروا فى الجزء الغربى من هضبة الأناضول حتى نهر هاليس. ثم مدوا نفوذهم شرقا حتى

كبادوكيا. وقد عرفوا بالحيثيين الجدد تمييزاً لهم عن ما قبل الحيثيين ثم الحيثيين الأصلاء وإن إحتفظوا بمسمى خاتى للدلالة على منطقتهم، لاسيما فى المدونات الأشورية.

وكذلك الحال بالنسبة لبعض المدن السورية التى أعتبرت مقاطعات حيثية، حتى أن العهد القديم كان يشير لحكامهم بالملوك الحيثيين. بيد أن عدم وجود أية دلائل مادية تتعلق بأثار أولئك الأقوام تجعل من الصعوبة بمكان ربطهم بالحيثيين الأول. وستظل أحوال هذه الممالك تستعصى على الفهم حتى يمكن للباحثين تفسير كافه النصوص المتعلقة بها بما يجعل فى مكنتهم رسم تصور واضح لهذا الوجود (الحيثى) على هيئة ممالك تمتد من ملاتيا إلى حدود فلسطين منذ بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد.

والجدير بالذكر، أن تعاصر هذه الممالك الحيثية مع ملوك آشور الطموحين قد صاغ جزءاً رئيسيا من تاريخها. إذ تكرر ذكر خيتا فى نصوص ملوكها المحاربين بدءاً من عهد تجلات بيلاسر حيث وصفت بخاتى العظيمة ربما تضخيما لحجم إنجازه أو إشارة لقرقميش. ثم ضعف نفوذ آشور على هذه الممالك لحساب القبائل الآرامية التي أستقرت فى سوريا، ولتصطدم بدورها مع الممالك الحيثية في الشمال السورى. وقد نجحوا فى أقصاء بعض هذه الممالك وإقامة حكم آرامى فيها، يشهد بذلك ما خلفوه من كتابات بلغتهم الأرامية أو بالفينيقيه.

ثم عاد النفوذ الآشورى ليطل برأسه على المنطقة على عهد آداد نيرارى الثانى الذى اتجه صوب الفرات الأعلى وأخضع الممالك الحيثية. ثم تأكد هذا الخضوع على عهد شلمنصر الثالث. وعندما خفتت سطوة الآشوريين على الممالك الحيثية، كان الدور على الأوراتيين قد حل ليمتد نفوذهم على هذه الممالك بدلاً من آشور. إلا أن هذه الأخيرة نهضت من كبوتها على يد تجلات

بيلاسر الثالث الذى استعاد نفوذ مملكته على الدويلات السورية والممالك الحيثيه. حتى أصبحت على عهد من خلفوه من ملوك آشور ممالك آشورية، أشارت لها المصادر الكلاسيكية، بما يعنى زوال اسم خاتى نهائيا ولتسدل عليه استار التاريخ بالمنطقة.

ومن ثم يمكن القول إن تاريخ الممالك الحيثية فى سوريا الكبرى قد ارتبط إرتباطا وثيقا بتاريخ المنطقة الجغرافية، ولم تكن علاقته بالحيثيين تتعدى الخلفية التاريخية لبعض سكانها.



	١٢٠٠ ق.م		٧٠٠٠ ق.م	٤٠٠٠ ق.م	٣٠٠٠ ق.م	٢٥٠٠ ق.م	٢٠٠٠ ق.م	١٥٠٠ ق.م	١٠٠٠ ق.م	٧٥٠ ق.م	٦٠٠ ق.م	٣٠٠ ق.م
المنطقة الحضارية	باليوليثيك		نيوليثيك	عصر البرونز المبكر			عصر البرونز	عصر البرونز المتأخر	عصر	الحديد		
شمال العراق		ماقبل النيوليثي - المزارعون الأوائل	حسونة العبيد سامراء حلف	جاورا أروك	نينوى ٥	- العصر الأكدى - أسرة أور الثالثة	- العصر الآشورى القديم - شمش - أداد - رسائل مارى	- ميتانى - العصر الآشورى الوسيط	العصر الآشورى المتأخر		الحكم الفارسى	غزو الأسكندر الأكبر
جنوب العراق			العبيد	أروك	عصر الأسرات المبكر - الجبانة الملكية لأور	- العصر الأكدى - أسرة أور الثالثة	إيسين-لارسا العصر البابلى القديم	- العصر الكاشى - العصر البابلى الوسيط	العصر البابلى المتأخر	السيطرة الآشورية	- العصر البابلى الحديث - الحكم الفارسى	
إيران / والخليج	أرتفاع مستوى سطح البحر		التأثير العراقى فخار العبيد	سوسة أ تأثير أروك	مرحلة عصر ما قبل العيلامى	- العصر العيلامى القديم - جودين III - ولمون		العصر العيلامى الوسيط مجئ القبائل الإيرانية	- الميديون - الغزو الأورارتى والأشورى	الميديون الغزوات الأشورية	الميديون الأخمينيون الفرس	
الأناضول (آسيا الصغرى)			شاتال هويوك		العصر القوقازى المبكر	مقابر الأكاهويوك	- عصر المتاجر الأشورية القديمة - العصر الحيثى القديم	- الحيثيون - مجئ الفريجيين	- الأورارتيون - الفريجيون	الليديون	الغزوات الميدية والفارسية	

جدول بالملامح العامة والتقريبية
للتوافق الزمنى والتتابع التاريخى للكيانات الحضارية الثلاثة
العراق - إيران - آسيا الصغرى



مراجــع الكتـاب

وقـراءات مختــارة



أولا - المراجع العربية والمعرّبة

(١) دكتور أحمد أمين سليم : إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. بيروت (١٩٨٨).

(٢) دكتور أحمد سوسه : تاريخ حضارة وادى الرافدين، الجزء الأول. فى ضوء مشاريع الرى الزراعية والمكتشافات الآثارية والمصادر التاريخية. بغداد (١٩٨٣).

(٣) دكتور أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم. القاهرة (١٩٦٣).

(٤) أنطون مورتكات : الفن في العراق القديم. ترجمة وتعليق الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي. بغداد (١٩٧٥).

(٥) أوسكار رويتر : بابل المدينة الداخلية «المركز». ترجمة : الدكتوره نوال خورشيد سعيد والدكتور على يحى منصور. بغداد (١٩٨٥).

(٦) بونغارد - ليفين. غ (وآخرون) : الجديد حول الشرق القديم، ترجمة دكتور جابر أبي جابر وخيرى الضامن. موسكو (١٩٨٨).

(٧) جورج رو : العراق القديم. ترجمة وتعليق حسين علوان حسين. بغداد (١٩٨٤).

(٨) دكتور حسن محمد محى الدين السعدى : المعالم الرئيسيه لتاريخ مصر الفرعونية. الإسكندرية (١٩٩٤).

(٩) حياة إبراهيم محمد · بنوخذ نصر الثاني ٦٠٤-٥٦٢ ق.م. بغداد (١٩٨٣).

(١٠) دكتور رشيد الناضورى : المدخل فى التحليل الموضوعى المقارن للتاريخ الحضارى والسياسى فى جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا. الكتاب الأول. بيروت (١٩٧٧).

(١١) سبتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة. ترجمة دكتور السيد يعقوب بكر. بيروت (١٩٨٦).

(١٢) ستروف. ف.ف. (وآخرون) : العراق القديم : دراسة تحليلية لأحواله الاقتصادية والإجتماعية. ترجمة وتعليق سليم طه التكريتى. بغداد (١٩٨٦).

(١٣) الدكتور صالح أحمد العلى (وآخرون) : العراق فى التاريخ. بغداد (١٩٨٣).

(١٤) دكتور عبد الحميد زايد : الشرق الخالد، القاهرة (١٩٦٦).

(١٥) دكتور عبد الرضا الطعان : الفكر السياسى فى العراق القديم. الجزء الأول. بغداد (د.ت).

(١٦) دكتور عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق. القاهرة (١٩٨٠).

(١٧) دكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت (١٩٨١).

(١٨) دكتور محمد بيومى مهران : تاريخ العراق القديم. الإسكندرية (١٩٩٠).

(١٩) دكتور محمد عبد القادر محمد : إيران منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامى. القاهرة (١٩٨١).

(٢٠) الدكتور محمود عبد الحميد أحمد : الهجرات العربية القديمة فى شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين والشام إلى مصر. دمشق (١٩٨٨).

(٢١) دكتور محمد عبد اللطيف محمد. : دراسات فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، الإسكندرية (١٩٨٧).

(٢٢) دكتور نجيب ميخائيل ابراهيم : الشرق الأدنى القديم، الجزء الخامس، القاهرة (١٩٦٣).

(٢٣) دكتور نزار الحديث (وآخرون) : حضارة العراق. الجزء الأول. بغداد (١٩٨٥).

(٢٤) نيقولا جريمال : تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتى، مراجعة دكتوره زكية طبوزاده. القاهرة (١٩٩١).

ثانيا - المراجع الأجنبية

(25) Bottéro (and others) : The Near East : The Early Civilizations. London (1967).

(26) Chard, C.S : Man is Prehistory. New York (1975).

(27) Dagan, K. : Problems in Ancient History. Vol. 1, The Ancient Near East and Greece. New York (1966).

(28) Dicks, B. : The Ancient Persians, How They Lived and Worked, London, (1979).

(29) Gadd, C.J. : Babylonia - The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion; Vol. 1. Hammurabi and the end of his Dynasty; Vol. 2/1; in Cambridge Ancient History. Cambridge (1982).

(30) Goetze, A. : The Hittites and Syria; in Cambridge Ancient History, Vol. 2/2A Cambridge (1982).

(31) Gokçe, K. (and Others): The Anatolian Civilisations, Vol. 1. Instanbul (1983).

(32) Gurney, O.R. : The Hittites, London (1954).

(33) Herodotus : The Histories, Penguin Classics (1976).

(34) Hinz. W. : Persia, in Cambridge Ancient History, Vols. 1, 2/1. Cambridge (1982).

(35) Jones, T.B. : The Sumerian Problem. London (1969).

(36) Labat, R. : Elam and Western Persia, in Cambridge Ancient History, Vol. 2/2A. Cambridge (1982).

(37) LLoyd, S. : Early Anatolia, Pelican Books (1956).

(38) LLoyd, S. : The Archaeology of Mesopotamia, From old Stone Age to The Presian Conquest. London (1984).

(39) LLoyd, S. : Ancient Turkey, A Traveller's History, London (1989).

(40) Macqueen, J.G. : The Hittites and their Contemporaries in Asia Minor, London (1986).

(41) Mallowan, E.L. : The Early Dynastic Period in Mesopotamia, in Cambridge Ancient History. Cambridge (1982), Vol. 1.

(42) Melloart, J. : Anatolia, in Cambridge Ancient History. Vol.1, Cambridge (1982).

(43) Moscati, S. : The Face of the Ancient Orient, London (1960).

(44) Oates, J. : Babylon. London (1986).

(45) Pirenne, J. : Civilisations Antiques. Paris (1957).

(46) Roaf, M. : Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East. Oxford (1990).

(47) Roux, G. : Ancient Iraq. Pelican Books (1985).

(48) Saggs, H.W.F. : The Might That Was Assyria, London (1984).

(49) Seignobos, C. : The World of Babylon, Nineveh and Assyria. Genéve (1975).

(50) Trever, A. : History of Ancient Civilization, Vol. 1. The Ancient Near East and Greece, New York (1935).

«تم بحمد الله تعالى»



